١٤٤ ـ رفيقـك الـداني ليـاشفت حالـه
أحمـل عليـك من المعـاليق مـا شـال

(أبو زويد الشمري)

تنعكس الشهامة في عينيه التي تقدح شرراً عندما يسمع تلك الكلمة الجارحة أو التصرف المشين نحوه أو نحو من يهمه أمره كقريبه أو صـديقه أو رفيقه كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

١٤٥ ـ رفيقنـا مـا نجـدعـه للقصـاصيب
في رأس حيـد نـايف مـا يضـامي [١]

١٤٦ ـ رفيقنـا لو هـو من الجـد بـاصليب
متـعـلق منـا بـراس الـسـنـامـي

(عبيد الرشيد)

ترتسم الشهامة في تلك الرعشة العضلية والتحفز والانقضاض عندما يسمع تلك الكلمة العجفاء أو التصرف الأهوج شاهدنا أبيات الشاعر الذي يمثل الرجل بالصقر المنقص على فريسته حيث يقول:

١٤٧ ـ حر شلع من راس عال الطويلات
للصيـدة الـلي حط خمسـة وراهـا

١٤٨ ـ غـز المخـالب بـالتنـادي السمينـات
وتـل القلوب وبـالضمـائـر فـراهـا

(خلف الأذن)

---

(١) الشوادر، ص٣ ـ ٦٠.
(٢) أبطال من الصحراء ٢٦٢.

تتمثل الشهامة في غليان الدم بالعروق الذي يكاد يفجرها عندما تطرق أذنيه كلمة نابية أو التصرف الساذج فيكاد يخرج عن طوره ويثور كما صورها الشاعر:

١٤٩ ـ يـا لاعن حطاب تلعن أبـوك أنت
تلعن أبــوك وبــاقي العـمــر فــاني

(خليف بن حطاب)

هذه الصفة التي حياها الإنسان العربي بقيت وحدة متماسكة فيه وستبقى فيه ليتم بمقتضاها طرد هذه الشرذمة الباغية التي عبثت بأرضنا المقدسة فساداً وتعود المقدسات إلى أصحابها.

□ النخوة:

النخوة هي من السمات التي يتصف بها الانسان العربي من قديم الأزمنة ولا تكاد تفارقه، وأشد ما يستجيب لهذه النخوة ويلقي بثقله عندما يسمع نداء المستجير به، المتسغيث بطلب النجدة، فعند ذلك لا يفكر، أمِنْ جنهم يعبر؟ أم إلى العدم يصير؟ تنزعه نشوة النخوة، فيفزع متجشمًا الأخطار والأهوال في سبيل انقاذ من يستجير به، ولو نقبنا في كتب التاريخ لوجدنا ما تزخر به المجلدات من أمثال «وامعتصماه» المشهورة لكن بعضها بقي رهن الكتمان، والبعض الآخر قد انطمر في ثنايا الأحداث، غير أنها تبقى في جوانح الصدور، تتوج بعض الأحداث العظام لمن طارت بهم النخوة لتخليص مضطهد مغلوب، أورد اعتبار مسلوب، كما حدث في «وامعتصماه» ولا يكاد المرء الطافح بنشوة النخوة أن يميز بين مصير وآخر، هدفه تحقيق ما تصبو إليه نفسه بأي ثمن.

وهذه السمة تضيىء جوانح كل فرد في ذلك المجتمع فلا يكاد يرتفع صوت الاستغاثة بكلمة «تكفي يا فلان» «اليوم ولا غيره» وما شابهها، أو إشارة تعني النخوة حتى تشرئب الأعناق وتطفح الأفئدة ويتسابق الرجال وألسنتهم

تلمهج بالكلمات المعبرة عن الاستجابة مثل «حاضر والشر غايب» «أبشر بسعدك» «حييك.. حييك» «حاضر على الخير والشر» «ثبت يا صياح» وغيرها من الكلمات التي تدل على الاستجابة للنداء، كل بقدر استطاعته وحسب اضطلاعه بالمسؤولية، بمقدار الضيم أو الحيف الحاصل على المستغيث ولا يخلو من هذه الصفة إلا ما ندر، وتشمل النخوة كل مستغيث تحت أي ظرف حتى يتم التثبت من الحادث، وبمقدار تأثير هذا الحادث على من حوله ليتم اتخاذ المواقف الحاسمة. وعلى كل فلا أحد يستجير إلا من ظيم لحق به أو حيف أصابه كما عبر أحد أبناء هذه البيئة بقوله:

١٥٠ ـ سلم عليه وقل يقول العبادي
ما صاح صيَّاح وينخاك من خير

(عبد الله القضاعي)

كما نجد الصورة الثانية أكبر من الأولى حجمًا حيث يقول صاحبها:

١٥١ ـ ليا صاح صياح ورا طارق النوق
نركب على حيل جذبها الصياحي[١]

١٥٢ ـ اليا لحقنا لأول الخيل مفهوق
ياطن شخانيب الوعر والسماحي

(راكان بن حثلين)

والصورة الثالثة أشمل من سابقتها حيث يقول الشاعر:

١٥٣ ـ أولاد على اليوم ذا وقت نفعكم
لا رحم أبو نفس تتاجر بمالها[٢]

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ٦٠.
(٢) شعر النبط، ص ٢٣٧.

١٥٤ ـ ذي قالة ما ينطحه كود نادر
أولاد على اليوم من قال أنالها؟

(محمد العوني)

وهكذا نرى انعكاس هذه الصفة تلف أفراد هذا المجتمع لتجعل من الفرد شعلة متحفزة نحو تلبية أي نداء يستطيع أن يساهم في رفع الظلم فيه واسترداد الحق من مغتصبيه.

□ الوفاء:

الوفاء هي إحدى فرائد العقد الثمين، الذي يزين عاتق الإنسان العربي منذ القدم، وقد امتدح الله أصحاب هذه الخصلة بالآية الكرية: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، صدق الله العظيم[1]، والشواهد على ذلك كثيرة تفوق الحصر ولا يكاد يخلو سفر منها وعلى سبيل المثال قصة العربي الذي جاء إلى كسرى أنو شروان في يوم نحسه خير دليل على الوفاء بالوعد أو العهد والحفاظ على الكلمة مهما كانت النتائج، وأغصان الدوحة تتسم بنفس الصفات التي يحملها صنوها، ولا غرابة في ذلك فإن الوفاء أصبح ميزة تطبع برونقها أفراد ذلك المجتمع وأعني بذلك السواد الأعظم منه، مما يعني أن هناك شواذاً لا ينطبق عليهم الحكم إنما أغلب الناس إذا قال كلمة وفى بها، إذا عاهد عهداً فإن نكثه من رابع المستحيلات، يحافظ على تلك الكلمات الشفهية البسيطة، وكأنها الجبال الرواسي قد حملت على كاهله، إذا ائتمنه إنسان على شيء لا يمكن أن يغدر به إلا ما ندر، إذا اتفق مع أحد على نقطة معينة، فإن البوق بعيد عنهما، ويعتبر المحافظة على العهد من الخلال التي يفتخر بها الفرد على أقرانه وينال بها منزلة رفيعة بين قومه، إذا قال لك كلمة اعتبرها أكثر من ميثاق كما هو في لغة الزمن الحاضر بل ربما ميثاق هذا العصر، ينسحب منه أحد الطرفين

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧٧.

بأسهل طريقة، إنما كلمة ذلك الإنسان البسيط لا يمكن أن ينسحب منها مهما كلفه من ثمن، وكم بسبب كلمة أو موقف حصل للفرد ما جره إلى الأهوال والمتاعب لتمسكه بالوفاء بما تلفظ به أو اتخذه من مواقف وهذه الميزة ظلت فيه حسب اعتبارات غير مدونة وإنما معروفة لدى الجميع يتناقلها الخلف عن السلف ويعرف قواعدها وأبعادها الكبير والصغير، ومن هذا فإن انعكاس آثار هذه الخصلة قد قللت من مشاكل المجتمع وجعلت الفرد فيه يسير في طريق يعرف فيها موطىء قدمه قبل أن يضعها فإذا وصفها كانت على أرض صلبه أمينة لا يخاف منها، وما دام هذا الوفاء على مستوى الند للند أو الأضداد، فإن الوفاء للأقربين أكثر تماسكاً وأقوى أواصر، وتحت ظلال الوفاء يدخل الوفاء للوالدين وبرهما واعطاؤهما حقهما كاملاً، والوفاء لذوي القربى، والجار، والرفيق، مما أضفى على تلك البيئة جلباباً مهيباً قوام ثالوثه الصدق، والوفاء، والرحمة، فعاش الناس تحت ذلك الكنف المرفرف بالمحبة والوئام.

□ حق الجار:

أوصى القرآن الكريم بالجار خيراً فقال تعالي: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب﴾ صدق الله العظيم[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه[2]»، وإذا تعمقنا بعيداً فإننا نجد هذه الخصلة لدى العربي قبل بزوغ فجر الاسلام بقرون، وهي من العادات الحميدة التي شدد الاسلام على اتباعها والتمسك بها، وقد زخرت كتب التاريخ والسير بالأذكار العطرة عن قصص الحفاظ العربي على حقوق الجار على مدى تلك الحقب الزمنية وتمتد هذه الخصلة باسطة ظلالها وهيبتها عبر تلك القرون حتى تصل إلى الفترة الزمنية التي نحن بصددها، يتسابق أفراد المجتمع على التمسك بأهدابها ويتنافسون في أيهما حاز قصب السبق

---

(١) سورة النساء: آية ٣٦.

(٢) منهاج الصالحين، ص ٣٩٨.

في إكرام جاره أو رفع الضيم عنه أو الذود عن حياضه أو الدفاع عن محارمه، أو تحمل زلاته والتجاوز عن أخطائه، فترى هذا العربي الحكيم الصبور، المقدر لحرمة الجار يصبر عما يعتلج في نفسه عندما نالته جنفاء جاره دون أن يعلم ذلك الجار ما يحصل منه:

١٥٥ ـ ثمـان سنين وجـارنـا مجـرم بنـا
وهـو مثل واطي جمرة مـا درى بهـا[١]

١٥٦ ـ نـر فى خمال الجـار لـو داس زلـه
نـرفـاه كـما تـرفى العـذارى ثيـابهـا

(محمد المهادي)

كما يتغني الثاني ويفتخر بما يبذله للجار من اكرام ومعروف حيث يقول:

١٥٧ ـ ألا ومـع ذلك لـك الله لنـا كـار
عن جـارنـا مـا قط نخفي الـطريفـة[٢]

١٥٨ ـ نـر فى خمالـه رفوة العش بـالغـار
ونـودع لـه النفس القـويـة ضعيفـة

١٥٩ ـ ولا نبدي الخافي ليا صار مـا صار
يفلج قصـير البيت لـو بـان حيفـه

(مقحم الصفري)

أما الثالث فيترنم بهذه الأبيات التي تدل على أن حق الجار كلما طالت إقامته كلما زاد قدره عند جيرانه:

---

(١) المجموعة العربية، ص ١٥٤.
(٢) آدابنا الشعبية ١٧٧.

١٦٠ ــ تــر جارنا ما رفقته عنــدنــا يــوم
يــزيــد مــع زايــد اسنينــه وقــاره[٣]

١٦١ ــ البيا قزت عينة قـزينـا عن النـوم
والشيــخ مــا يكتب عليــه الخســاره

١٦٢ ــ دونـه نـروي كـل حــد ومسمـوم
ونـرخص عمـار دون كســر اعتبـاره

(رميح الخمشي)

مما سبق يتضح لنا أن الجار له من القيمة والقدر ما للأخ والقريب وله من الحقوق والواجبات ما يلي حقوق الوالدين والأقارب مباشرة في هذا المجتمع المتماسك المتعاطف الذي تربطه المحبة بأمتن أواصرها وذلك في السواد الأعظم منه وقد يوجد شواذ تخالف القاعدة وتنفص على الأكثرية لكن ذلك نسبته ضئيلة.

□ البساطة:

البساطة إحدى مقومات هذا المجتمع وهي إلى جانب كونها صفة عامة في المجتمعات القديمة، إلا أنها في المجتمع العربي تزداد نقاوتها بريقاً، ووداعتها شمولاً، فترى الفرد ينظر إلى كل الأمور بغاية البسـاطة إلا مـا يرمي إلى المحذورات الدينية والأخلاقية أو ما يمت إلى الاخلال بمجرى العادات والتقاليد والأعراف بصلة فإن تلك البساطة تنقلب إلى عنف وشراسة، أما ما عداها فالفرد بسيط في مظهره، في ملبسه، في مأكله، في مشربه، في بيته، في مجلسه، في معاملته مع الآخرين، تتجاذبه عدة عوامل دينية، وأخلاقية واجتماعية، مما يجعله يسير في أبسط صورة، تجد تعامله مع الآخرين حسب الثقة المتبادلة، إن

(٣) الشوادر، ص ٣ ــ ٨٧.

أعطى شيئاً لا يحتاج إلى صكوك أو وثائق، إن طُلِبَ جاء في الوقت المحدد بدون استدعائه من قبل السلطات المحلية، لا يقول إلا الصدق في معاملته مع الناس، لا يعمل إلا حسب المتفق عليه مع الآخرين، يجلس على الأرض وكأنه على نمارق من الحرير، يتكيء على كومة من الرمل وكأنه على وسادة من الريش، يحترم كبير السن، فضلاً عن والديه أو أحد أقاربه، ينهض من المجلس ليجلس فيه من هو أكبر منه سناً أو أحد ذويه، يستمع إلى محدثه باصغاء لا مقاطعة فيه حتى ينتهي من حديثه ثم يبدي رأيه في الموضوع ذاته، يتأخر قليلاً ويقدم كبير السن في المناسبات وغيرها وإذا كانوا في مجلس يتحدث واحد والباقون يستمعون لحديثه حتى ينتهي ثم تبدأ المناقشة واحداً بعد الآخر، يحترم رأي الكبير، ويؤخذ برأى الصغير إن كان صائباً، يجلس الكبير والصغير الرجل العادي ومن هو من علية القوم على بساط واحد يتجاذبون أطراف الحديث في شتى المواضيع، المناسبات بشكل بسيط لا يوجد بها من الترتيبات إلا ما هو ضروري، الأفراح تقتصر على الضروريات وبأبسط التكاليف، مع المحافظة على الطابع المميز لكل مناسبة، الملابس على أبسط هيئة لا تكلف ولا تعقيد، قد يجلس النساء مع الرجال يتجاذبون أطراف الحديث في ظلال الأشجار أو بمكان مشمس بالشتاء، الاحترام مبتادل بحكم الشيم وحسن الجوار، يجتمعون في مناسبات كالحصاد وجمع المحاصيل الزراعية، في جمع العشب، في صيد الجراد وجني الكمأة، وغير ذلك من المناسبات التي تستدعي العمل الجماعي تلفهم المحبة والاحترام المبتادل، لا يضير الرجل طرح السلام على من حوله رجالاً ونساء، والسؤال عن حاجته من الاستعلام عن شخص أو وجهة معينة وغير ذلك، لا يَصِمُ المرأة أن تسلم أو ترد التحية على النساء والرجال على حد سواء، وكذا السؤال عن حاجتها بكل بساطة ونقاوة ضمير، يعيش الفرد على أيسر الأطعمة إذا توفر لديه كمية من الحبوب تكفيه على مدار السنة، ومثلها من التمور يمونه إلى الحول فإنه حينئذ لا يغبط ملكاً في ملكه، لا يحتاج إلى أرصدة في البنوك، أو شركة التأمين على الحياة، يعيش متكلاً على الله في رزقه، يتعاون مع الآخرين بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

□ □ □

الفصل الحادي عشر:

الناحية الثقافية

◻ الكتاتيب:

لم يكن التعليم قد انتشر آنذاك كما هو عليه في الوقت الحاضر في كل مدينة وقرية و«هجرة» وفي أصغر تجمع سكاني، بل كان التعليم يقتصر على مدارس الكتاتيب، وهي عبارة عن مدرسة غير منتظمة، قوامها الشيخ «المطوع، الخطيب» حسب التسميات المتعارف عليها فهو المدرس الوحيد وهو مدير المدرسة وهو بعبارة أخرى، الكل في الكل، ومكان المدرسة إما أن يكون بجزء من المسجد خاصة في الصيف أو تكون في بيت الشيخ ووقت الدارسة حوالي ثلاث ساعات يومياً على فترتين ساعتان صباحاً من حوالي الساعة التاسعة وحتى الحادية عشرة صباحاً والفترة الثانية ساعة واحدة بعد صلاة العصر مباشرة وحتى الساعاة الخامسة تقريباً بالتوقيت الزوالي، وهي مستمرة صيفاً وشتاء، وليس على «الخطيب رقيب غير الله، فإن كان لديه عمل ما سمح للطلاب بالانصراف، أما المنهج الذي يدرسه الطلبة فهو تعليم حروف الهجاء على القاعدة البغدادية التي تعتني بمعرفة حركات الحروف، من الفتحة، والكسرة، والضمة، والسكون، والتنوين والتشديد، مع الحركات المذكورة، ثم بعد ذلك يدرسون الأبجدية بحروف مجمعة كما يلي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ، وبعد ذلك يتم الانتقال إلى قراءة القرآن الكريم، وتعلم الكتابة، وذلك بنسخ الحروف المشار إليها من نسخ في القرآن الكريم ومتى تدرب على ذلك انتقل إلى نسخ السور القصيرة من القرآن ثم صفحات منه، ويتم النسخ

على ألواح من الخشب، ويفضل خشب الاثل يكون اللوح بطول حوالي ٤٠ سم وعرض ٢٠ سم وسماكة ٢ سم وله من أعلاه مقبض يمسك به ويتم تبييض اللوح بعد طمس ما عليه من الكتابة بمادة بيضاء من فصيلة الجبس أو الحجر الرملي الأبيض تسمى «بيضا لوح».

ويقوم الطالب بكتابة الجزء الذي عُين له وبعد عرضه على «الخطيب» يعطي توجيهاته وإرشاداته للطالب ثم يقوم الطالب بطمسه من جديد وإعادة الكتابة عليه، وهكذا حتى يتعلم الكتابة، أما الأقلام التي يكتب بها فلا تعدو كونها من أغصان الشجر الصلبة، وربما أحياناً بأعواد القصب، أما الحبر فيصنعه الطالب محلياً من عدد من الأشجار، كحب شجر «الرَّال» وقشور ثمرة الرمان وبعض الأصباغ أو سناج الصاج الأسود مضافاً عليه نسبة من الصمغ العربي ليتكون من ذلك حبرٌ صالحٌ للكتابة، وبهذه الطريقة يتم تمرين الطالب على القراءة والكتابة في نفس الوقت ويركز الطالب على تعلم القرآن الكريم وبعده يتعلم الأصول الثلاثة، ويبدأ بقراءة الكتب الفقهية والحديث وقواعد اللغة العربية، أما هذا الشيخ فليس له راتب معين من السلطة إلا ما يناله من الصدقة والزكاة، بالاضافة إلى ما يتقاضاه من هبات من آباء الطلاب، إما نقداً أو عيناً من المنتجات الزراعية حبوب أو تمور أو المنتجات الحيوانية، أو الحيوانية كالأغنام أو مشتقات الألبان، وربما جعل «الخطيب» على الطالب مقداراً من هذه المنتجات شهرياً قد لا يتعدى صاعاً من أي نوع، أو نقداً بحيث يكون ريال لفترة من الفترات على كل طالب ورغم ما يقرره على كل طالب إلا أن الآباء والأمهات يبرونه ببعض الهدايا بغية الحصول على عنايته الخاصة بأبنائهم، وينتظم لدى المعلم من ١٠ ــ ٥٠ طالباً وقد يصلوا ١٠٠ طالب، وفي الأماكن الباردة يحتاج الطلاب إلى الدراسة في غرفة من بيت المعلم توقد فيها النار للتدفئة، وفي فصل الشتاء لابد لأولياء أمور الطلاب من إحضار الكمية الكافية من الحطب ليضمنوا بقاء أبنائهم داخل الغرفة الدافئة. ويكفي عن الطالب حمل بعير من الحطب طيلة فصل الشتاء، أو أن يحضر الطالب معه كل يوم ما يستطيع حمله من الحطب حتى يكون من ضمن الطلبة الدارسين داخل الغرفة الدافئة

وإن لم يحضر الطالب الحطب أو يؤمنه ولي أمره للمعلم فسيدرس في مكان خارج الغرفة الدافئة، وللمعلم هدية مجزية في حساب ذلك الزمن تتكون من النقود والملابس، أو من كمية من الطعام من والد الطالب عندما ينتهي من ختم القرآن الكريم ويعد أهل الطالب الناجح لزملاء ابنهم وجيرانهم وليمة دسمة بهذه المناسبة ويقدم للمعلم هديته أثناء هذه الحفلة التي تسمى «الخِتَامَةُ» وهي مناسبة طيبة حيث يصطحب الطلبة، ويختارون النابه منهم والفصيح الجريء بالقراءة، وينطلقون من بيت المعلم في احدى فترات الدراسة واضعين الطالب الناجح أمامهم ومعلمهم يمشي بمحاذاتهم ويمشون خلفه ويقرأ فيهم زميلهم شيئاً من الأدعية والتراتيل وهم يرددون خلفه ما يقول، وأحياناً يرددون كلمة آمين إذا كان ما يردده من الأدعية والابتهالات مثل:

الحمد لله الذي هدانا
للدين والإسلام ثم اجتبانا

سبحان من خلق سبحانا
بفضله علمنا القرآنا

علمنا معلم يرعانا
أول ما علمنا هجانا

يضربنا بسوطه أحيانا
ثم الصلاة على محمد وآله الكراما

وفي طريقهم من بيت المعلم إلى بيت أهل الطالب عبر الشوارع والأحياء حيث يصطف الناس على الجانبين وعلى طول الطريق رجالاً ونساء كباراً وصغاراً، للمشاركة الرمزية بهذه المناسبة التي يتمنى كل والدين أن يصل ابنهم إليها، هذه المسيرة تسير حتى تصل إلى بيت أهل الطالب، ليجدوهم في استقبالهم بالبشر والترحاب، فإذا دنوا من مكان الحفل رفع الطلبة زميلهم الناجح على الأكتاف وهم يرددون الأدعية المشار إليها تصاحبها الزغاريد والتهليل، حتى يضعوه داخل البيت ثم يجلسوا مع معلمهم لتناول القهوة العربية

ثم ينتقلون لتناول الطعام الذي أعد لهم حسب ما يستطيع أهل الطالب تقديمه، وعادة يبذلون الغالي والرخيص بهذه المناسبة الغالية، وبعد ذلك يقدم للمعلم هدية مناسبة إما من النقود والملابس بحضور الجميع وإن كانت الهدية من الطعام فترسل له في البيت ويشعر المجتمعون في ذلك، ويعيش الناس في ذلك الحي أو القرية يوماً مشهوداً، وتساهم النساء في تشجيع أبنائهن في هذه الناحية، فبعضهن تعمل حفلة للمعلم وطلابه كلما انتهى ابنها من دراسة وقراءة جزء من القرآن، كجزء عمَّ، وجزء تبارك، إلى آخر أجزاء الكتاب وتقدم للمعلم هدية رمزية من مالها الخاص وكذلك يفعل بعض الآباء، وكنتيجة لهذا التشجيع ترى بعض الطلبة يبرز في دراستهم، ويبزو أقرانهم، في ناحية معينة، وكما أشرنا فإن للمعلم السلطة المطلقة في طلابه، ولكونه الوحيد الذي يعلمهم ويؤدبهم في نفس الوقت فإنه يجعل جلوسهم صفوفاً حوله على شكل حلقات نصف دائرية، ولكل صف من هذه الصفوف جريدة طويلة من جرائد النخل تناله، ومتى رأى طالباً غير منتبه لدراسته، أو يلعب مع أقرانه فإنه يتناوله بهذه الجريدة بوخزة خفيفة أو ربما ضربة تتراوح شدتها حسب درجة خطئه، وهكذا يتم للمعلم السيطرة على طلابه وهو جالس بينهم على بساط من قطن أو نسيج من صوف أو نسيج من خوص النخل «سفيف» وربما على الحصباء، وقد يكون المعلم يمارس مهنة ثانية يقوم بتأديتها أثناء التدريس من الحرف البسيطة كخصف الأحذية أو نسيج الجرابات الصوفية وما شابهها في الوقت الذي يستمع لتلاوة الطلبة ويصحح لهم أخطاءهم وهذا الوضع خاصة إذا كان عدد الطلبة قليل ومواردهم لا تفي بالتزامات المعلم المعاشية، فيعمل بهذه المهنة لتغطية النقص الحاصل عنده.

ويحمل الطلبة أثناء الدرس شيئاً من الطعام الصالح للنقل، كالتمر، والأقط، وخبز الصاج، والكليجا، والشعثا، والقديد، والجراد، وذلك لتناوله في الاستراحة من الدرس وهو بمثابة وجبة «الفسحة» المدرسية في الوقت الحاضر.

وهكذا يتخرج الطالب من هذه المدرسة يقرأ القرآن الكريم والأحاديث، ويكتب كتابة طيبة، أما النابهون فإنهم يواصلون دراستهم حتى يصلوا إلى مراتب عليا من التعليم.

□ حلقات الذكر:

تعد حلقات الذكر في المساجد كنوع من التوعية والتثقيف يقوم بها إمام المسجد أو قاضي البلد، أو من يرى في نفسه الكفاءة والمقدرة على تذكير الناس، وذلك بقراءة الأحاديث والآيات التي تحث على نوع من أنواع العبادة، أو ما يتعلق بموضوع ديني أو دنيوي، وأحياناً يخصص لكل حلقة موضوع معين يطرقه المذَكرٌ، وأحياناً يتطرق إلى مواضيع متعددة، ويتم النقاش بعد ذلك والاستفسار عن نقطة معينة خافية على البعض وتكون إجابتها مفيدة وشاملة لجميع الحضور، كما أن هناك تلاوة للحديث، بعد صلاتي الظهر والعصر، وأحياناً قبل صلاة العشاء الأخير، وبعد صلاة الفجر، يقرأ إمام المسجد ما يختاره من كتب السنة، بحيث يقرأ يومياً موضوعاً معيناً ليمر على كافة مواضيع الكتاب خلال السنة، كما يعقد نوعاً آخر من حلقات الذكر بين مجموعة من طلبة العلم كما هي تسميتهم آنذاك، إما عند شيخهم الذي يقرؤون عليه، أو في بيت أحدهم بالتناوب، وهذا النوع من الدراسة منها ما يختص بالمواد الدينية ومنها ما يتطرق إلى العلوم الأخرى، كاللغة العربية والأدب والشعر، فتجد هذه المجموعة تدرس إلى جانب الأحاديث على المذاهب الأربعة، والفقه، والتفسير، تجدهم يحفظون الفية بن مالك في اللغة العربية واعرابها وكتب الأدب، ومذاهبها وكتب التاريخ، والسير التي تم تأليفها في العصرين الأموي والعباسي، وأكثر ميلهم الى الكتب ذات الصبغة الدينية كذلك لديهم إلمام بكتب تفسير الأحلام وأشهرها للامام محمد بن سيرين، والكتب المتعلقة بالفلك وعلم الحساب، وعلم الفرائض، وغيرها من المجالات العلمية والأدبية، ويعتمد الطلبة على حفظ متن الحديث أو النص، ويتم التحليل بعد ذلك بمداولة الرأي حسب مدلول النص ويختم الكلام عند ذلك بجملة.. والله أعلم، ولطلبة العلم في

هذه احلقات مسابقات ومبارزات، في حفظ متون تلك النصوص والأحاديث والقواعد، والحكم فيها للشيخ المشرف على هذه الحلقة، ويتخرج طالب العلم من هذه المدرسة غير الرسمية ملمًا بكثير من الأمور الدينية والدنيوية فتراهم يتخرجون قضاة، أئمة مساجد، خطباء، كتاباً، على قدر كبير من معرفة قواعد اللغة العربية ومشتقاتها النحو والصرف، ملمًا بعلم الفرائض والأنساب، والآداب والشعر، والفلك، وفوق هذا تجلله الهيبة والوقار، محترماً من الجميع، لما يحمله بين جوانحه من علم، كلمته مسموعة أوامره مطاعة، ومن هؤلاء من يتولون تصريف شؤون البلد كما أسلفنا ومنهم من يواصل دراسته على مشائخ في الأقطار المجاورة أو البعيدة للحصول على مستوى علمي أرفع مما وصل إليه، ليصبح بعد ذلك عالماً يشار إليه بالبنان.

وهناك نوع من حلقات الذكر تعقد بعد صلاة الفجر مباشرة يتم افتتاحها بآي من الذكر الحكيم، ثم يليه اختيار أحاديث معينة تتطرق لموضوع بذاته يتم تفسيره وتحليله للاستفادة من مضمونه، وتعقد هذه الحلقات لدى القاضي أو الأمير ومن اجتمع حوله، أو يبت أحد الأعضاء بالتناوب.

وهكذا نرى هذا المجتمع رغم حرمانه من التعليم المنظم إلا أنه استعاض عنه في تعليم آخر يفي بأدنى احتياج البلد في هذا المجال لكن نسبته ضئيلة إذا ما قيس في الوقت الحاضر لكنه أثبت وجوده خلال تلك العصور المظلمة تحت كابوس الحكم التركي.

□ نسخ الكتب:

ولما كانت الطباعة لم تنتشر آنذاك فإن «طلبة العلم» بالاضافة إلى ما يقومون به من أعمال أثناء الدراسة فإنهم يقومون بنسخ الكتب سواء ما كانوا بحاجة إليه أو من كتب التراب في مختلف المجالات، ويتم ذلك بعد الحصول على النسخة الأصلية أو النسخة المنقولة ثم يبدأ بنسخ محتواها على ورق أبيض ضارباً إلى الصفرة خشن السطح قليلاً، وأحياناً يكون أبيضاً صقيلاً يسمى «الكاغد»

ويستعمل الكاتب الحبر المصنوع محلياً من مختلف الأصباغ التي سبقت الإشارة إليها في فصل مدرسة الكتاتيب، ويجد الكاتب ويثابر على نسخ الكتاب في أقصر مدة ممكنة لينسخة الكاتب الثاني والثالث بحيث يصبح هناك عدد من النسخ في مدة وجيزة ثم يتم تجليد هذه النسخة وحبكها لتبقى مدة طويلة تتناولها الأيدي دونما أحداث أي تلف بها، ويولي الكاتب عناية فائقة في نسخ الكتاب وتبويبه وترقيمه ووضع الحركات على الحروف بلون يغاير لون الكتابة، والكاتب شديد العناية بكتبه، شديد الحرص لزيادتها، ويتطرق الكاتب إلى أنواع الكتب التي يتسفيد منها في دراسته، وربما اهتم بكتب غيرها، ويلاقي المشاق في الحصول على الورق، وفي صنع الحبر كما جرت الإشارة إليه آنفاً كما يلاقي مشقة في الحصول على الأقلام التي تتكون من أغصان الأشجار ذات الغصون الصلبة، أو أن تكون من أعواد القصب «القصبا» التي تجلب من البلاد التي تتوفر بها الأنهار، وتحتاج هذه الأقلام إلى بري رؤسها كلما كلت بسكين حادة، وإذا نظرنا إلى ما يعانيه الكاتب من هذه المشاغل الجانبية أدركنا قوة صبره وجلده وتحمله بالاضافة إلى ما يعانيه من مشكلة الاضاءة للعمل ليلاً، ذلك أن أدوات الاضاءة التي يستعملها تتكون من ذبالة بسيطة، تضاء بالشحم أو النفط «القاز» أو شمعة خافتة، تلعب الريح بضوئها يمنه ويسرة، وأحياناً يطفيها، فتوجد مشكلة إضاءتها من جديد بقدح الزناد أشعالها بأعواد الثقاب، وأحياناً أخرى إذا كان من ميسوري الحال يضيء بذبالة أو مصباح على النفط «القاز» قد ينتهي الوقود منه أو تتآكل فتيلته فتولد للكاتب ثغرة جانبية هو في غنى عنها، هذه المشاكل الخلفية تضيف إليه أعباء جديدة تشطح بتفكيره، وتفت من عزيمته إلا أنه رغم ذلك يأخذ لكل طارىء حسابه ويجهز كل شيء، ويسهر الليالي الطوال بالاضافة إلى ساعات النهار، بكل عزيمة وتصميم وجد على انهاء نسخ من هذا الكتاب، أو قراءة كتاب جديد أخذه لتوه من أحد زملائه، ثم يبدأ بنسخة من جديد، وهكذا يجاهد أولئك الصابرون، يكابدون المتاعب والمشاق في الأسفار ومصارعة الظروف في سبيل العلم والمعرفة وبذلك أبقوا لنا شعلة مضيئة، من العلم والعرفان، درجنا على ضوئها خطوات وئيدة، حتى انبلج نور العلم وتيسرت سبله.

◻ تدوين الحوادث والوثائق:

يتخصص بعض الذين أنهوا دراستهم من طلبة العلم بتدوين الحوادث والأخبار ومختلف الفنون، وغالباً ما يكون أسلوبهم في الكتابة على نمط الأسلوب السائد آنذاك في أواخر العهد العباسي والعهد التركي بما فيه من المحسنات اللغوية، كالسجع والطباق وغيره من فنون صناعة الكلام، ذلك لأن الكتب الموجودة تحت أيديهم كلها بنفس الاسلوب، فلا يعدو أسلوبهم تقليدياً لما تحويه هذه الكتب، أما فيما يختص بالحوادث والأخبار فإن أسلوب الاختصار الشديد يكاد يفقد الحادثة أو الخبر فائدته حيث يذكر الحادثة، دون أن يذكر أسبابها ومسبباتها والنتائج المترتبة عليها ووقت حدوثها باليوم والشهر والسنة بل يكتفي بقوله «في سنة كذا حدث كذا وكذا» دون استكمال عناصر الحادثة من المسببات وسير الحادثة ونتائجها والزمان والمكان، وبذلك تكون الحوادث التي دونوها محدودة الفائدة إلا ما ندر، أما الوثائق والصكوك، فيكون فيها من الاختصار أيضاً ما يفقدها جزءاً كبيراً من فائدتها إذ تنص على الموضوع رأساً، دون مقدمة أو ديباجة تعطي للموضوع رونقه، وغالباً تكون كتابة الوثائق والصكوك على النحو التالي بعد البسملة: «يعلم به من يراه بأن فلان الفلاني باع.. أعطى.. فلان الفلاني كذا وكذا بقيمة كذا وقبض القيمة نقداً أو على آجال معينة بشهادة فلان وكاتبه فلان والله خير الشاهدين». أو بصيغة أخرى بعد البسملة: «موجب تحريره أن فلان..» بحيث لا تتعدى الوثيقة سطرين أو ثلاثة، وربما صار ذلك شرحاً على طرة الوثيقة السابقة، وتسمى تلك الوثائق أو المكاتبات «حفائظ» وعادة تطوي الوثيقة وتلف على بعضها وتحفظ في علب معينة لتستقر فيها مدة طويلة محتفظة بجدتها، وأكثر ما يهتم هؤلاء بتدوين الوثائق بدرجة رئيسية، وذلك لكثرة تداول الناس بها من مداولات تجارية ومداينات ووصايا، ومكاتبات ورسائل، لذلك تجد الذين يرشحون لهذا النوع من الكتابة خاصة كتابة الوثائق وتدوين الحوادث ممن تتوفر فيهم مجموعة من الشروط، منها القيام بالواجبات الدينية، والاعتدال، ورجاجة العقل، والذكاء، والرزانة وغيرها، لذلك نجدهم نسبة معينة من بين فئة الكتاب في ذلك الوقت،

وبذلك حفظت لنا تلك الفئة ما استطاعوا تدوينه من الحوادث التي وقعت في هذه البلاد خلال تلك الحقبة من الزمن.

□ الحسابات الفلكية:

لم يقتصر العلماء آنذاك على تدوين الحوادث والوثائق التاريخية، فقد طرقوا شتى أنواع العلوم كما أسلفنا، ومنها علم الفلك والحسابات الفلكية المتعلقة بشؤون حياتهم، كالزراعة والرعي، ورغم أنه لا يوجد لديهم مراصد علمية كما هو موجود في دول العالم اليوم، إلا أنهم وصلوا إلى درجة دقيقة في الحسابات الفلكية، من واقع التجربة، والمراقبة الدقيقة للظواهر الطبيعية، وحركة النجوم والكواكب، وذلك بإقامة المراصد البدائية حسب استطاعتهم، إلا أن هذه المراصد رغم بدايتها إلا أن العاملين بها، يثابرون بكل إصرار وتصميم للحصول على أدق المعلومات فيما يتعلق بشؤون حياتهم الزراعية والرعوية، ودخول الفصول على مدار السنة، وطلوع النجوم والكواكب، غير أنهم يستعملون أسماء للفصول شائعة في هذه البقعة على مدار السنة، وقد تشمل التسمية أكثر من نجم من النجوم المعروفة في علم الفلك، فمثلاً يسمون نجم سعد الأخبية، والمقدم، والمؤخر، ومدتها ٣٩ يوماً «بالسماك» ويسمون نجم الرشا، والشرطان، والبطين، ومدتها ٣٩ يوماً «بالصيف» ويسمون «نجم الثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، ومدتها ٣٩ يوماً بالقيظ منها الثريا، والدبران، والهقعة، ومدتها ٣٩ يوماً «أربعمائية القيظ» ويسمونها بالثريا، و «التوبيع»، والجوزاء، والشعراء ــ المرزم، والكليبين، كما يسمون نجم الطرف ــ سهيل، الجبهة، الزبرة، الصرفة، ومدتها ٥٣ يوماً «بسهيل» ويسمون نجم العوَّا، والسماك، والغفر، والزبانا، وأيامها ٥٢ يوماً «بالوسم» ويسمون نجم الأكليل، والقلب، والشولة، وأيامها ٣٩ يوماً «بالمربعانية» ويسمون نجم النعايم، والبلدة، ومدتها ٢٦ يوماً «بالشبط» ويسمون نجم سعد الذابح، وسعد بُلَعْ وسعد السعود ومدتها ٣٩ يوماً «بالعقارب» وهي على التوالي عقرب السم، وعقرب الدم، وعقرب الدسم، وقد رتبها اثنان من أبناء هذه البيئة أحدهما في القرن الحادي عشر الهجري وهو راشد الخلاوي في قصيدة طويلة مطلعها:

١٦٣ ــ متى ما الثريا مع سنا الصبح وايقت
على كل خضرا ودعت بالسنايد[١]

١٦٤ ــ من عقبها نجم كما فرخ مثلي
على الشوف يتليها بمشية يعاود

(راشد الخلاوي)

إلى آخر القصيدة مبيناً لكل نجم صفاته المميزة فيما يتعلق بالزرع والرعي وتقلبات الجو من حر وقر، كما وصفها شاعر ثان من شعراء القرن الثالث عشر الهجري هو محمد العبد الله القاضي بقصيدة تتكون من ٥٤ بيتاً بين لكل نجم خصائصه ومميزاته وما هو متبع في فصله من الزراعة والرعي وغيرها من التقلبات المناخية وقد أجاد الوصف بالقصيدة لهذه النجوم ومطلعها:

١٦٥ ــ سبك لك نجوم الدهر بالفكر حاذق
حوى واختصر مضمونها بأمر خالق[٢]

١٦٦ ــ ترى أول نجوم القيظ سبع رصايف
كما جيب وضحى ضيع الدرك دالق

(محمد العبد الله القاضي)

إلى آخر القصيدة وقد برز كذلك من الفلكيين ممن لم يدرسوا في مدارس الكتاتيب، إنما اتخذوها هواية، وثابروا عليها، بعد معرفة أصولها ومع الزمن تمكنوا من الوصول إلى نتائج طيبة بتحديد المواعيد الدقيقة لمواسم الزرع والحصاد، وغيرها منهم الشيخ ابراهيم الشبرمي «بسميراء» وغيره كثيرون منتشرون في مختلف أصقاع هذه البقعة الطيبة التي أنبتت الكثير من العناصر الفعالة.

---

(١) راشد الخلاوي ٣٠٤.
(٢) راشد الخلاوي ٣٤٣.

وقد سموا الشهور بأسماء ربما كان لها أصولاً قديمة أو تكون نابعة من نفس البيئة فمحرم يسمى عاشور، وصفر على اسمه وربيع أول وربيع الثاني تسمى التوم الأول وجمادى الأولى وجمادى الثاني تسمى التـوم الثـاني ورجب الغراء وشعبان يسمى «قصير» ورمضان على اسمه وشـوال الفطر الأول وذي القعدة يسمى الفطر الثاني وذي الحجة الضحية.

□ □ □

الفصل الثاني عشر :

الناحية الأدبية

◘ الشعـــر :

أصيب الشعر العربي كغيره من فروع اللغة العربية بنكسة عنيفة في عهد الانحطاط الذي خيّم على البلاد العربية من أقصاها إلى أدناها مدة تزيد على أربعة قرون، ولا يخفى على أحد ما لهذه الفترة من أثر بالغ في اللغة العربية وآدابها، حيث دبّت فيها اللهجة العاميـة واللحن شيئاً فشيئـاً حتى تفشّت بجسمها، وبطبيعة الحال فقد تأثّر الشعر بهذه الظاهرة، أول ما بدأت ثم غطّته بالكامل في الفترة التي نحن بصددها، عدا النزر اليسير ممن احتفظوا بهذا الفن، ورغم أن البقعة التي نتكلّم عنها لم تدنسها أقدام الأجنبي الغريب إلا لماماً، غير أنها تأثّرت بما حولها فأصبحت اللهجة العامية شعراً ونثراً ومحادثة هي السائدة إلا ما تدوّنه وتتداوله تلك الفئة المتخرّجة من مدارس الكتاتيب من نثر وشعر ومحادثة فإنه يتم باللغة العربية الفصحى، وبعبارة أخرى اللغة الرسمية للمقاطعة كما هو متعارف عليه في الوقت الحاضر، وبذلك فقد غاب الشعر العربي الفصيح من هذه البقعة فترة من الزمن إلا من خلال الفئة المشار إليها، والذين تأثّر شِعرهم بالصبغة الدينية وفي اعتقادهم أن قرض الشعر يعتبر خروجاً عن الخط الذي التزموا به، وساروا عليه، ويظنّون أن مجتمعهم سيلفظهم إن هم جنحوا عن هذا الطريق، لـذا اقتصر شِعـرهم على الإبتهـاولات، والإخوانيـات، والنصائح وما في حكمها. وما عداها من أبواب الشعر تركوه جانباً مما أتاح الفرصة للشِعر العامّي أن ينتشر، وإذا نظرنا إلى العوامل والمؤثّرات التي غيّرت

مجرى الشِعر العربي وأدخلت إليه اللهجة العامّيـة كتغيير بعض التسميـات وتصريف بعض الأفعال وتصحيف وتبديل بعض الكلمات، أما الكلمات والتسميات الرئيسية فقد احتفظت بمكانتها في البيت الشعري إلى حدّ ما رغم كونه باللهجة العامّية، ولذلك نجد الشعر الشعبي في بدايته يحتفظ بكثير من الكلمات الفصيحة، وإذا نظرنا بإنصاف وتمعّن إلى الشعر الشعبي وجدنا له من الخصائص الفنية من قوة في السبك، والتزام القافية، وصدق التعبير، ودقّة الوصف، وعمق المعنى، وحيوية الصورة، والتأثير على السامع، والموسيقى الشعرية، وغيرها ما للشعر العربي، ولا يدرك هذه الخصائص إلا مَن يتذوّق هذا النوع من الشعر ويفهمه، بالإضافة إلى ذلك فقد تطرّق الشعر الشعبي لمختلف الأغراض التي خاضها الشعر الفصيح، ودلالة على ذلك، إليك أبياتاً على سبيل المثال لا الحصر:

قوة السبك:

١٦٧ ــ يـالجوهر النـاريـزي بالعـطر يـالطيب
يالصعد يالصهال يـاحصان الاطـلاب[1]

١٦٨ ــ يـالمزيّـر يالـزحار يـالنمر يـالـذيب
يـالليث يالـلايوث يـالشبـل يـالـداب
(خضير الصعليك)

التزام القافية:

١٦٩ ــ يا قلب وإن كانت علومك صدوقـة
بينــك وبـين الــدار عهــد وميثــاق

١٧٠ ــ تسمع ندا زجـر الملك في صفوفـه
قضى القضـا والتفت الساق بـالسـاق
(محمد بن لعبون)

---

(١) آدابنا الشعبية ص ٢٦٢.

صدق التعبير:

١٧١ ـ وأهـل دمع من عيـوني ذواريف
تـاليـه غثـرب وأول الـدمـع صـافي[١]
(سويلم العلي)

دقّة الوصف:

١٧٢ ـ تشـوفه كقلب الـذيب يلعج بنـوره
مـويق عـلى غـرات حـدب الجـرايـد[٢]

١٧٣ ـ سـرى كـانـتـفـاض الـفـرخ في حـنـدس الدجى
يفـوج سنـاه الليـل مثـل الشعـايـل
(راشد الخلاوي)

عمق المعنى:

١٧٤ ـ الاجهـاد عدّا الـلايمـات عن الفتى
والأرزاق مـا تـأتي الفتى بـالغصـايب
(أبو زيد الهلالي)

١٧٥ ـ يالعبد لا يوريك في نفسـك التزوّد
تـراك مـثـل الفـي عجـل زوالـه

١٧٦ ـ دنيـاك لـو تعـطي مـواثيق واعهـود
بـواقـة مـا يـامن العبـد جـالـه
(مشعان بن هزال)

---

(١) ديوان سويلم العلي ص ٣٣.
(٢) الشوارد ص ١٧٢.

١٧٧ ــ أحد تذعذع له على روس الاقذال
واحد يعيش من الوزا عيشة الذيب
(محمد السديري)

حيوية الصورة:

١٧٨ ــ أصفر عفر خده تقل فيه شعشاع
تذهيل تنويش ايتشاعل شعاعه

١٧٩ ــ وذوابيه من فوق الارداف شراع
دراعين قالوا قاسها في ذراعه
(سويلم العلي)

الموسيقى الشعرية:

١٨٠ ــ من لا يدوس الراي من قبل ما ديس
عليه داسوه العيال القرومي[٢]

١٨١ ــ ومن لا يقلط شذرة السيف والكيس
يبدي عليه من الليالي ثلومي
((تركي بن حميد)

التأثير على السامع:

١٨٢ ــ جان الطبيب ومسني وافتكر بي
وغير الشهادة مالقى بي مثابي

١٨٣ ــ وعضيت بالانجاد مما اصتقر بي
ليا ماغطس بين اشفتي راس نابي
( )

١٨٤ ـ أنـا اليـوم يـا حمـاد ربعي تفـرّقـوا
كـمـا ملح أمسـى بـالغـديـر وذاب
(سرور الأطرش[١])

◻ النثـــر:

النثر صنو الشعر وأحد فروع اللغة العربية الذي أصابه التفكّك والخمول أيضاً، ودخلت فيه اللهجة العامّية رويداً رويداً حتى غطّته بالكامل كأخيه الشعر، إلا في نطاق ضيّق على مستوى المكاتبات الإخوانية، والمناظرات الأدبية التي قد نهج بها منظّموها منهج التقليد للأسلوب الشائع في أواخر العهد العباسي وعهد الدولة العثمانية، والذي يعتمد على الكثير من كلمات التعظيم والتبجيل والحشو بصفّ المترادفات اللغوية ذات المعنى الواحد، وتفخيم الأشخاص لدرجة يمجها الذوق السليم، مع تغليفها بالغلاف الديني، وإغراقها بالأدعية والتوسّلات، التي تبعدها عن الموضوع المقصود، وينحصر نشاط هذه الفئة بالمدن والقرى الكبيرة، أما الأرياف والبادية فقد عمّت فيها اللهجة العامّية، وتميّزت كل قبيلة بلهجة خاصة بها، تعرّف بها عن غيرها، كنطق بعض الحروف بطريقة مغايرة للقبيلة الأخرى، وأغلب ما يكون النثر بالطريقة الشفهية والمناظرات الكلامية، وهي بطبيعة الحال أقل انتشاراً من الشعر الذي تعقد له الحلقات وتجتمع له الأندية، وقد انعكست الآية تماماً، ففي بداية العصر الإسلامي كان الناس يوجّهون أبناءهم من المدن إلى البادية ليكتسبوا اللغة العربية الفصحى، أما في الفترة المشار إليها فقد أضحى الناس يرسلون أبناءهم من البادية إلى المدن والقرى، لمدارس الكتاتيب ليتعلّموا القراءة والكتابة واللغة العربية الفصحى، وهذا لا يعني أن الفصحى قد زالت من البادية تماماً، حيث بقيت المسمّيات ومعظم الكلمات عربية قح، وإنما صار العيب في تصريف الأفعال وهي باقية حتى الوقت الحاضر مغلّفة باللهجة العامّية، ولذلك لجأ ذوو اليسار من أبناء البادية إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس الكتاتيب لتعلّم اللغة العربية والقراءة والكتابة، ومن الطرائف التي تروى بهذه المناسبة «أن إعرابياً

(١) آدابنا، ٢٢٥.

أحضر ابنه إلى أحد الكتاتيب وقال له: هذا ابني أريد منك أن تعلّمه القراءة والكتابة، وأجرك سأعطيك إيّاه في الحال، وسأعود إليك بعض قضاء حوائجي من حوانيت المدينة، لأجد ابني قد تعلّم القراءة والكتابة!! فقال له المعلم: كيف يمكنني تعليم ابنك القراءة والكتابة خلال سويعات؟! فردّ عليه الإعرابي: وأنا لا أعرف كيف ذلك!! لأن هذا عملك؟! أما أنا فليس لي إلا ولد يكتب ويقرأ!!!، فذهب قوله مثلاً سائراً في هذه المنطقة.

ونعود لموضوعنا، النثر، فنجده كما أسلفنا قد أصيب بالشلل إلا في فئة خرّيجي مدارس الكتاتيب ولم يبلغ درجة يشار إليها.

□ الخطـــابة:

تتمثّل الخطابة في ذلك العصر بما يلقيه خطباء المساجد أيام الجمع والأعياد تمشّياً مع نصوص السنّة الشريفة، وإيفاء بالغرض الأساسي للخطبة من تذكير للناس في أمور دينهم ودنياهم، ومعالجة مشكلة من المشاكل التي يعاني منها المجتمع أو إرشاد الناس إلى الصالح العام في أمور دينهم ودنياهم أو الحثّ على موقف من المواقف التي يتطلّبها الوضع الراهن، هذا في الخطبة الأولى، أما الخطبة الثانية فتحتوي على الأدعية والإيتهالات والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلّم، وبما أن خطبة الجمعة تتكرّر ثمانياً وأربعين مرة خلال العام، وهي من حيث العدد والوقت والموضوع كافية لأن يبرز فيها أشخاص في هذه الناحية في معالجة مشاكل المجتمع وتوجيهه إلى الوجهة السليمة إلا أن كابوس عهد الانحطاط ما كان يترك ذلك يتم كما هو مقرّر، بل كتم هذا النفس النشيط ووجّهه إلى الغاية التي يريدها حتى ضعفت هذه الناحية، وأجدبت الأفكار، وزيادة على ذلك فقد تمّ تأليف كتب معيّنة تختصّ بخطب الجمعة في «الأستانة» العاصمة التركية، ووزّعت على الأقطار الرازحة تحت السلطة التركية، وهذه الكتب توزّع خطب الجمعة على مدار السنة ولكل خطبة موضوع تذكير في الأمور الدينية فقط والدعاء للسلطة بالبقاء والدوام، وتتكرّر قراءة هذه الخطب على مدار السنة حتى يحفظها خطباء المساجد عن ظهر قلب، أما الأمور الأخرى

والمشاكل التي يئنّ تحت وطأتها المجتمع فلا تتعرّض لها الخطب من قريب ولا من بعيد، ومع أن البقعة المشار إليها لم ترزح تحت السيطرة العثمانية بالمعنى الصحيح إلا أن تأثير الوضع العام المحيط بها قد نال منها، بحيث لجأ بعض الخطباء إلى الاستعانة بمثل هذه الكتب الصفراء المنتشرة في الأقطار المجاورة كما استعان البعض الآخر في كتب من خطب ابن نباتة التي تمّ تأليفها في ظل الدولة الحمدانية في القرن الرابع الهجري ٣٤١ـ٣٦٥، ومع أن خطب ابن نباتة تحتوي على مواضيع ممتازة في وقتها إلا أنها لا تصلح بحذافيرها في الوقت المشار إليه لما طرأ على المفاهيم والخارطة الجغرافية من تغيير، ولجوء الخطباء إلى الاستعانة بهذه الخطب المكتوبة دليل على الجدب الفكري في ميدان الخطابة، نتيجة الحظر المفروض على الخطباء في بداية الأمر، حتى تبلّدت لديهم القرائح عن الإنتاج وأصبحوا يتعلّقون بقشّة الغريق.

□ القصّـــة:

لم تراوح القصة مكانها منذ عهد طويل، بل زاد عليها سوءاً غمرها باللهجة العامّية، التي غطب الناحية الأدبية بكاملها، وانصرف الكتاتيب عن تدوينها ونسخها، واختلطت القصة الواقعية بالقصة الخيالية، التي انصرف السواد الأعظم عن قراءتها أو تناقلها، باعتبارها من نسج الخيال، ولم تحدث فعلاً، وقد رمي من كتبوها أو نقلوها بتهمة الكذب والاختلاق، وقد اقتصرت القصة في هذا الوقت تدويناً ورواية على القصص الحقيقي، الذي حدث فعلاً وتمّ تناقله من خلال الرواة والقصّاصين الذين احتفظوا بعدد كبير من القصص الواقعية، والتي جرت أحداثها فعلاً فوق أرضية ذلك المجتمع أو بجواره وتناقلتها السنة الرواة، وحسب حذق الراوي وخصوبة خياله أصبح يطفح بالخيال أحياناً ليضيف إلى القصة الواقعية والتي تكوّن عادة بأسلوب جدّي، ليضيف إليها بعض التحسينات الجذّابة، أو يستعين بذوقه ليصنع بعض المقبّلات والمشهّيات للمستمع للدخول عبرها إلى صلب القصة، كما يستعين القاصّ بالمثيرات التي تحفز المستمع إلى معرفة نتيجة ما حصل في القصة من كافة

جوانبها، ويختار الكلمات الرنّانة ذات الوقع المؤثّر على السامع، وفي الحقيقة أن هذا النوع من القصص الواقعي المزخرفة حواشيه ببعض اللقطات واللمسات الخيالية، من أكثر الآداب التي انتشرت بهذه البقعة على مختلف فئات السكان لدرجة أنك تجد هؤلاء القصّاصين من مختلف المستويات وحواليهم مستمعوهم يتمتّعون بكل اشتياق إلى ما يروى على مسامعهم. ويعتمد القاصّ على مدى حفظه لمتن القصة ومدى سعة خياله لإضافة ما يمكن إضافته للقصة من محسّنات، وحذقه الهندسي في إضافة الفقرات إلى هيكل القصة الواقعية دون أن يفطن أحد إلى موضع التحامها بالجسم الرئيسي، وقد يتطرّق للقصة الواحدة قاصّان على مستويين مختلفين فترى البون ساشعاً بينهما وربما وصل هذا الفرق إلى صلب القصة، وقد انتشرت القصة بشكل واسع وخاصة لدى كبار السن ممّن يملكون قوة الذاكرة وخصب الخيال، ويتجمّع الرجال حول القصّاصين من المسنّين وهؤلاء تكون قصصهم على مستوى معينّ ومواضيع تتعلّق بالكرم والشجاعة، والبطولة، والوفاء... إلخ، أما النساء والصغار فيجتمعون حول العجائز، ليقصصن عليهم من هذه القصص التي يجدون فيها متعة عظيمة وإرواء لبعض تعطّشهم إلى معرفة ما يدور حولهم، وتسمّى هذه القصص «حكايات السعالوى» أو «البحونات» وهي بطبيعة الحال باللهجة العامّية، ولكنها رغم ذلك فإن الصغار يتوسع خيالهم وإشباع بعض غرائزهم، وملء أذهانهم بقصص البطولة، والمغامرة، وتعويدهم آداب الإصغاء، وغرس العادات الحميدة في نفوسهم والتي تجري أحداثها في ثنايا القصص، وتعويدهم على الحفظ، وإذا أمعنّا النظر في هذه القصص وجدناها واقعية في الأساس، لكن مع مرور الأجيال عليها، واختزانها بصدور الرجال لفترات متفاوتة، وطريقة روايتها على الستة الرواة، بالإضافة إلى ما علّق بها من الخيال في هذه المراحل السابقة، اكتسبت صورة مشوّشة، أوجدت فيها ثغرة للطعن بعدم صحتها من قِبَل بعض المعترضين أو الذين لا يدركون أسرار هذا المجتمع، وجعلها في مصاف الأساطير. أما موضوعها، فإنها من المواضيع التي تحدث في هذا المجتمع لكن ما يحفظ منها هي المواضيع الشيّقة أو المثيرة كالمغامرات البطولية، والمغامرات العاطفية، والبطولات التي تحدث في مواقف حرجة، والاتصالات التي تحصل

بعد الهزيمة مباشرة لتقلب موازين القوى بين الخصمين، والمواقف الإنسانية لإنقاذ شخص أو مجموعة أشخاص من مأزق معينّ وقعوا فيه، وما شابه هذه المواضيع، ويصحب القصة في الغالب القصيدة تحكي تفاصيل ما جرى أو تشير إلى ما حدث في القصة ويكون قائلها بطل القصة أو قيلت على لسانه، وهي المصدر الوحيد الذي يحتفظ بجوهر الأحداث ومجرياتها، دون أن يستطيع خيال القصّاصين أن يبدّل فيها شيئاً، أو يضيف إليها جديداً إلا ما ندر، أما أوقات الاستمتاع بسماع هذه القصص فغالباً يكون في أوقات الفراغ بعد تأدية الناس لأعمالهم أي من أول الليل حتى وقت النوم، في المنتديات والمجالس والمقاهي، التي تعقد فيها تلك الحلقات، أو خارج البيوت تحت أديم السماء الأزرق المرصّع باللآلىء البرّاقة أو في الليالي المقمرة، على ضوء القمر الفضي الهادىء، وهكذا نرى أن مجال القصة من أنشط النواحي الثقافية في ذلك المجتمع.

□ □ □

الفصل الثالث عشر:

الفنون الشعبية

◻ العرضة النجدية:

العرضة النجدية هي أحدى الفنون الشعبية المنتشرة في هذه البقعة مدار البحث، وهي رقصة الحرب، وتُلعب في الحرب والسلم على حدّ سواء، وقد نشأت هذه اللعبة في الأساس بمعسكرات المحاربين منذ زمن بعيد في أعماق التاريخ، غير أنها تطوّرت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت كما هي عليه في الوقت الحاضر، وقد نشأت لعدة أغراض منها:

١ ــ الظهور أمام العدو بأعداد كثيفة.

٢ ــ الظهور أمام العدو بعدم المبالاة به وبقوّته.

٣ ــ إرهاب العدو بأصوات الطبول التي تقرع أثناء تأدية العرضة أو الطلقات النارية التي تطلق أثناء العرضة وبعدها.

٤ ــ رفع الروح المعنوية للمحاربين، وشحذ روح الاستبسال فيهم بالقصائد التي تردّد في العرضة.

٥ ــ الاحتفاظ باليقظة داخل المعسكر أثناء الليل حتى تبقى الحراسة داخل المعسكر وحوله في انتباه تام ودرجة استعداد جيّدة.

٦ ــ التسلية والقضاء على السأم والملل في نفوس المحاربين أثناء بقائهم في المعسكرات لمدة طويلة بعيدين عن أهلهم وذويهم.

٧ ــ حثّ المحاربين على الاستشهاد بخوض غمار المعارك بكل إصرار وعناد، وذلك في القصائد التي تسبق المعركة.

٨ ــ وصف ما جرى في المعركة من بطولات وتضحيات ومغامرات قتالية وذلك في القصائد التي تتم بعد الفراغ من المعركة.

٩ ــ التغنيّ بالانتصارات التي أحرزها من يحاربون تحت لوائه والافتخار بنتائج هذه الانتصارات.

١٠ ــ مدح السلطة التي يحاربون تحت رايتها وتعداد فضائلها وأمجادها وغير ذلك من الأغراض.

أما في وقت السلم فتقام العرضة بالمناسبات كالأعياد وغيرها وهي شبيهة بما تقام في زمن الحرب، إلا أن تسليح المشتركين فيها يكون أقل، ودرجة الاهتمام بالمظهر العام كنظافة الملابس واختيار الملابس الزاهية يكون أكثر منه في وقت الحرب. وصفتها أن يقف صفّان متقابلان من الرجال الذين تمنطقوا بأحزمتهم سواء أكانت أحزمة السيوف أو أحزمة البنادق المرصوصة بأمشاط من طلقات الذخيرة يتوسّط هذا الحزام فوة السرق الخناجر اللامعة وأحياناً تكون ذهبية لعلية القوم، وعلى أجنابهم المسدسات، وبأيديهم السيوف المجرّدة من أغمادها، أو البنادق المعبّأة بالذخيرة، ويبدأ هذان الصفّان بالاستعداد لبدء الاستعراض، وذلك بتراص الصف بعضه إلى بعض بالقدر الذي يسمح للأفراد بأداء الحركات اللازمة، وبين هذين الصفّين مسافة تطول أو تقصر بما لا يقل عن عشرة أمتار، وبين هذين الصفّين يقف قارعو الطبول صفاً واحداً، وأحياناً ينقسمون إلى صفّين صغيرين كل صف يضعون وجوههم مقابل الصف المحاذي لهم ويكون قارعو الطبول سواء «المخمرون الذين يضربون الدقّتين الناعمتين السريعتين» أو «الثّلاّث» وهو صاحب الضربة المنفردة البطيئة الشديدة، ويقف

الشاعر أو الملقّن وربما أكثر من واحد في الوسط، ويقول الشطر الأول من البيت دون أن تحرّك الطبول، فيبدأ أحد الصفّين ثم يردّ الصف الثاني نفس الشطر ويُردّد على مرّتين من كل صف، ثم يكمل الشاعر البيت وعندها تقرع الطبول، ويبدأ الملقن أو الملقّنان في التنقّل بين الصفوف لترديد الشطر مع هذا الصف، أو تلقين الشطر الثاني من البيت أثناء سكوتهم وارتفاع صوت رفاقهم، وأول ما تبدأ الإيقاعات هادئة ثم تسخن شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ذروتها في نهاية العرضة، وتستمر على هذا المنوال، ويصاحب أبيات القصيدة وعلى إيقاع الطبول حركات جذّابة، حيث تتشابك عضود الرجال من خلف المرافق، وترتفع سواعدهم إلى أعلى قابضة على السيوف اللامعة المتراقصة في الهواء، المرتعشة بقبضات الرجال، تتموّج أجسام الرجال يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً، مع انحناءة خاطفة خفيفة، وتمثّل هذه الأجسام كتلة متراصّة، تتحرّك بمرونة فائقة وتشكيل بديع على إيقاعات الطبول، أما قارعو الطبول فيمارسون تموّجاتهم وقفزاتهم تفاعلاً مع الإيقاعات، فترى الراقصين من قارعي الطبول يتلوّى الواحد منهم بجسمه اللدن وكأنه الأفعوان، منسجمًا ومتلاحماً مع إيقاعات الطبول وأبيات القصيدة، ويوجد في هذه الحلبة الراقصون من الرجال بين الصفّين وربما كانوا من عليّة القوم، كل واحد منهم ممتشّق سيفه يتمايل يميناً وشمالاً، يردّد مع الصف الذي يليه نفس الأبيات التي يقولها، فيرفع سيفه اللامع إلى أعلى رأسه يهزّه بحيث يرتعش في كفّه وكأنه البرق الخاطف، وتارة يعرضه على منكبيه ماسكاً مقبضه وطرفه في يده يتهزّع يميناً وشمالاً ويتراقص في هذا الجو المفعم بالحيوية والنشوة، وتنساب الكلمات الشعرية المتدفّقة بالحيوية والحماسية من حناجر الرجال تردّد تلك الأبيات الممتزجة مع الإيقاع والتي تطفح بهم إلى نشوة غامرة تنقلهم إلى الأجواء التي رسمها الشاعر في قصيدته، تشنف آذانهم نقرات الطبول على الإيقاع المحبّب إلى نفوسهم، ويصل الزهو بهم مداه عند نهاية القصيدة حينما يرد الملقّن «ليازمى العايل زمينا» عندها تجتمع هذه الصفوف في شبه حلقة راقصة تلتف حول قارعي الطبول الذين يرفعونها بدورهم ويشدّدون الضرب عليها بسرعة فائقة، تردّد نفس الجملة رافعة السيوف إلى أعلى حدّ تهزّها هزّاً وإن كانت بنادق أفرغوا ما في بطونها في الهواء، وفي الغالب يشترك القائد

أو الأمير في معظم هذه العرضات، وعادة يكون لأبيات القصيدة أثر فعّال في درجة حماس اللاعبين وانسجامهم ونشوتهم كما أن لتوزيع إيقاع الطبول التي تقرع معاً في وقت واحد وبضربة واحدة متوافقة بحيث تبدو وكأنها طبل واحد، وتكوّن دقتين خفيفتين تسمّى «التخمير» تليها دقّة ثالثة أشد منها وأبطأ وتسمّى «التثليث»، وتكون أبيات القصيدة من مختلف البحور الشعرية ولكل بحر الإيقاع الخاص به، وعادة لا تطول القصيدة كثيراً لأنها تردّد من كل صف ثلاث مرات، لكن كلماتها تكون مزكرة تعتني بالموقف أو المناسبة المقامة العرضة من أجلها ومن أمثلة القصائد التي يتم ترديدها:

١٨٥ ــ هذي العنيزة ما نبيعه بالزهيد
ليا فرعن البيض نحمي جالها

١٨٦ ــ الرجل مثلك ما يحايد من بعيد
يقلط على الديرة يهد اجدارها
(. . . . . .)

وآخر يقول:

١٨٧ ــ راكب حر كما الربدا خبيبه
مثل سبق الطير خرجه لياعدا به[1]

١٨٨ ــ نصّه ابن اسعود شباب الحربية
راية أهل الدين دون اللي لجابه

١٨٩ ــ شيخ جهال يبوجون الضريبة
من مناشيهم يشبون الحرابه
(. . . . . .)

(١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب ص ٣٠٥.

وآخر:

١٩٠ ــ روّح الرايح من ديرة العوجا يخيلونه
يـارقة لايـح وبله كما درج يصبـونـه

صـافي الجوهـر عادة الضـربين يـرونه
من تـولينـا مـاعـود واربعـة يشيلونـه
(. . . . . .)

١٩١ ــ يـا هل الـديـرة الـلي طـال مبنـاهـا
مـا بـلاد حمـاهـا طـول حـاميهـا

١٩٢ ــ المبـاني تهـاوي كـل من جـاهـا
يـا يـفـك المبـاني غـير أهـاليهـا

١٩٣ ــ كـان مـا تفـزع ليمنى ليسـراهـا
فـاعـرف الـلي وطـاهـا ذيك واطيهـا
(عبد الرحمن البواردي)

ويعتني أصحاب الطبول بتجهيزها وتتكوّن من الطار الملبّس بجلد البعير النيىء، ويتم زخرفتها وتزيينها بمختلف النقوش والعثاكيل من الخيوط الملوّنة، بحيث تضفي ألوانها الجذّابة طابعاً مميّزاً على جو العرضة، وإذا كانت العرضة في أوقات السلم يلبس اللاعبون الملابس البيضاء الفضفاضة ذات الأدان الطويلة وربما يلبسون فوقها الجبب المزركشة والموشاة بخيوط الذهب، وتقام العرضة في الميادين الواسعة بالنهار وربما بالليل، كذلك تقام خارج البيوت بحيث تتمكّن الجماهير الغفيرة من المشاهدين والمشاركين ومن محبّي هذا النوع من الفنون الشعبية، كباراً وصغاراً من الرجال والشباب والصبيان والصبايا، ويشارك النساء بمشاهدة العرضة من على شرفات المنازل، وربما أتيحت لهن الفرصة لمشاهدتها عن بعد معقول دون الاختلاط بالرجال وذلك ربما يحدث في بعض الأحيان، هذا النوع من الفن الشعبي المحبوب لدى كافة طبقات المجتمع قديماً وحديثاً وله مكانته المرموقة.

□ السامري:

السامري أحد الفنون الشعبية التي تقام في ليال السمر، وهي نوع قديم متطور من الفنون الشعبية التي تعقد أيام السلم بالمناسبات وفي الليالي التي يحلو لمجموعة من الشباب أن يقضوا جزءاً من الليل في مسامرات ممتعة، وهي أقل حجمًا من العرضة، وهدفها الترويح عن النفس وقضاء وقت منعش مع مجموعة من الشباب، يجلو عن النفس الأكدار العالقة بها من جراء التعب، وتعقد غالباً في الليل في الميادين الفسيحة، أو في مكان خارج البيوت، وفي مكان مستوى مغطى بالجرعا «البطحاء» في بطن أحد الأودية وتعقد بالنهار تحت ظلال الأشجار، إذا كانت مجموعة من الشباب خارجة لنزهة في ضواحي المدينة أو القرية. وصفتها أن يجلس صفان متقابلان متراصان من الشباب جاثين على الركب ومع كل صف مجموعة من قارعي الطبول، المزخرفة والمزينة بعثاكيل من الخيوط الصوفية أو القطنية الملونة، يتولى بعض اللاعبين قرعها بأنفسهم، بالاضافة إلى ترديد الأغاني، وتكون المسافة بين الصفين ما لا يزيد عن ثلاثة أمتار، يقف الملقن أو الشاعر وهو الذي يعرف القصيدة فيما بين الصفين، يلقن هذا الصف الشطر الأول للبيت، ويغني معهم، ثم ينتقل إلى الصف الثاني ليعلمهم نفس شطر البيت، ويرفع صوته معهم، وأحياناً يكون الملقن في أحد الصفين، ويبدأ غناء الشطر الأول من البيت، ويردده الصفان مرتين ثم يكمل الملقن مع أحد الصفين البيت، وعندها تقرع الطبول، وهي دقتان خفيفتان، ودقة ثالثة أقوى منهما، تبعاً للايقاعات الملائمة للقصيدة حيث أن كل قصيدة الايقاع الخاص بها والملائم لوزن أبياتها ويصاحب ايقاعات اللحن المتمشية مع أبيات القصيدة حركات من اللاعبين من غير قارعي الطبول حيث تلتف سواعدهم وتتشابك أيديهم ثم ينهضون قليلاً وهم جلوس على ركبهم بحيث يتمايلون يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً بتموجات بديعة رائعة أما قارعوا الطبول فإنهم لا يقلون روعة بحركاتهم عن زملائهم، وقد اتخذوا من طبولهم حركة تواكب حركة رؤوس اللاعبين، غير أنها تتميز عنها في بعض القصائد بحيث تأخذ هذه الطبول حسب اصطلاحات معروفة تتحكم فيها جرة اللحن وإيقاعات الطبول بحيث تتمايل مع بعضها بحركة واحدة يميناً وشمالاً وترتفع

قليلاً ثم تستقر على الأرض، لتتلقفها الأيدي عند نقرة معينة، وتبدأ حركاتها من جديد هذه الحركات تضفي جواً ممتعاً على هذه اللعبة، ويوجد في الميدان بين هذين الصفين عدد من الراقصين الذين يتمايلون مع إيقاعات اللحن وأصوات المغنين، ومن أمثلة القصائد التي يجري غناؤها في السامري ولكل منها إيقاعها الخاص بها ويسمى «شيلة» فمثلاً القصيدة التي من أبياتها:

١٩٤ ـ يا عل يا سدرة الغرمول يسقيك
من مزنة هلت الما عقربية

١٩٥ ـ باغ ليا جيت سار من حواليك
عجل واخاف القمر يظهر علية

(محمد أبو قارى القرزعي)

يختلف إيقاعها عن القصيدة التي من أبياتها:

١٩٦ ـ يا حمام على الغابة بتوحي
ساجع بالطرب لا واهنية

١٩٧ ـ جعل زمل تبي سلمي تروحي
تنكسر في شعيب الحامرية

(موسى زيد السويداء)

يختلف إيقاعها عن اقصيدة التي من أبياتها:

١٩٨ ـ يا عيسى باحي
صبري وامزاحي
يا عيسى كنه
من حور الجنة

وتردد رباعية بحيث يردد الشطر الأول ثلاث مرات ويكمل الشطر الثاني مرة واحدة، يختلف إيقاعها القصيدة التي من أبياتها:

١٩٩ ـ يا علي صحت بالصوت الرفيع
يا مرة لاتذبين القناع[1]

٢٠٠ ـ شاقني راعي الصفرا الصنيع
سنها يا علي وقم الرباع

٢٠١ ـ اشتري منه كان انه يبيع
بالعمر مار ما ظني يباع

٢٠٢ ـ يوم أهلنا وأهل مي جميع
نازلين على حد الرفاع

٢٠٣ ـ شيتبني وأنا توى رضيع
جاهل توفي سن الرضاع

(محمد بن لعبون)

يختلف إيقاعها عن القصيدة التي من أبياتها:

٢٠٤ ـ نطيب رجم واثار الليل ممسيني
بديار غرب لعل السيل ماجاها

٢٠٥ ـ اضحك مع اللي ضحك والهم طاويني
طويت اشنون العرب لا قطر واماها

٢٠٦ ـ وراك ما تزعجيني الدمع يا عيني
على هنوف جديد اللبس يزهاها

(.....)

يختلف إيقاعها عن القصيدة التي من أبياتها:

---

(١) المجموعة البهية، ص١٢٢.

٢٠٧ ــ سرى البارق اللي له زمانين ما سرى
حقوق اخيالـه بارقـه يطرب السـاري

٢٠٨ ــ عـلى فرعـة الـوادي وسيله تحـدرا
تغني اطيـور الما عـلي الحايـر الجاري

(. . . . . .)

ويشبه السامري نوع يعتبر أطول منه في النغمة وأبطأ في الايقاع ويسمى الحوطي ويشبه السامري في جميع ترتيباته غير أنه أبطأ منه في الايقاع، وأمثال القصيدة التي ترد فيه:

٢٠٩ ــ واو جودي وجد من ورد الاجلالي
قـريتـه بـواهـج القيض مـطويـة

٢١٠ ــ طاب كيفي يا عـلي وانسمح بـالي
يـوم ابن مـرشـود جـاب الخبـر ليـة

(. . . . . .)

□ المراد ــ المساجلات الشعرية:

المراد أو المساجلات الشعرية هي أحد الفنون الشعبية التي برزت في الآونة الأخيرة، وان كان لها جذور عميقة في الماضي إنما كانت على نطاق ضيق ثم توسعت بعد ذلك، وتعقد في الأمسيات الشعرية وليالي السمر، والغرض منها الترويح عن النفس وقضاء وقت ممتع، وقوامها شاعران يتقابلان على الحلبة وهما قطبا اللعبة ومع كل منهما مجموعة من الرجال يرددون البيت الذي يقوله ويقفون صفاً متراصاً متماسكي الأيدي والشاعر واقف أمامهم، ويبدأ الشاعر بالبيت الأول موجهاً كلامه للشاعر الثاني، كأن يثني عليه في بداية الأمر ثم يدخل للموضوع ربما كان على أساس المداعبة ينعته ببعض النعوت ويردد ومن معه نفس البيت مرة أو مرتين أو أكثر، ثم يرد الشاعر الثاني ورفاقه البيت مرة

أو مرتين أو أكثر، ثم يرد الشاعر الثاني ببيت من نفس القافية والبحر، يرد فيه على ثناء الشاعر الأول أو يفند ما زعمه فيه من مقالب، وعادة تكون من التشبيهات المبهمة على سبيل الدعابة ويستمر رفاق هذا بترديد ما جاء به شاعرهم ويرد عليهم الشاعر الأول ورفاقه وهكذا يستمر الوضع حتى يعجز أحد الشاعرين عن الرد على صاحبه، أو يأتي أحدهما ببيت يعتبر الضربة القاضية على الخصم بحكم الحضور، والمساجلات الشعرية هي رياضة ذهنية للشاعر، تبين قوة الذكاء، وسرعة البديهة، وإيجاد سبك البيت، واختبار أقوى المعاني التي توقف الشاعر الخصم، وهي كذلك مجال فسيح لأن يدخل فيه من يرى في نفسه الكفاءة والمقدرة على مقارعة الخصم، وهي مكان للتجارب للناشئين والراغبين في ارتياد هذا النوع من الفن الشعبي، وتعقد حلقات هذا اللعب في المناسبات كالأفراح والأعياد وغيرها ويتم في الميادين الفسيحة، أو خارج المنازل وربما في النزهات خارج المدن والقرى، متى توفر العدد الكافي من الجمهور والشعراء، ولا يوجد في هذه اللعبة طبول وإنما يستعاض عنها بالتصفيق على إيقاع أبيات القصيدة وعادة تكون القصيدة من الايقاع السحوب ذات المواقف الحادة وعلى هذه المواقف يتم تصفيق الأكف بايقاع واحد، ويصاحب الايقاع تمايل للصفتين المتقابلين يميناً وشمالاً وتثني الركب قليلاً ثم اعتدالها مع تصفيق الأكف المتوافق مع إيقاعات الأبيات التي تتدفق بها الحناجر بكل حيوية وتحفز إلى معرفة رد الشاعر الخصم على هذا البيت الذي يجري التغني به الآن وتطول الصنوف كثيراً من الجمهور الغفير الموجود في الميدان سواء من المتفرجين أو المشاركين في حين يقف كل شاعر في صفه وهو يعصر مخه ويستجمع أفكاره، لاحضار الرد المناسب، وسبك البيت القوي، واختيار المعنى الملائم، ومتى أتم ذلك رفع عقيرته ملقناً أصحابه البيت الذي فرغ من نظمه لتوه، حيث يرفعون أصواتهم، وعندما ينتصر أحد الطرفين على الآخر، سواء بعجز الخصم على الرد أو أنه سد عليه المنافذ، عندها يدوي التصفيق من الجانبين والحضور معاً ثم تعلن نهاية القصيدة بكل روح رياضية ويدخل الميدان عبر هذين الشاعرين، أو يبرز شاعر ثانٍ يبارز الشاعر المنتصر حتى يغلب أحدهما الآخر، ومن الأبيات التي جرت في حلقة من حلقات المراد:

الأول:

٢١١ ـ سلام يالـلي تستحقون السلام
أموجهن لكبارها واصغارها)
(طلال السعيد)

الثاني:

٢١٢ ـ يا مرحبا بالـلي بدا حلو الكلام
عند الطروق الأوله وادوارها

(سليمان)

الأول:

٢١٣ ـ قالو لي أنك تجتلد شرق وشام
عسى الذهيبة ما لقى دوارها

(طلال)

الثاني:

٢١٤ ـ ودي يجي طلعك على قد المقام
وتختار يوم الله عطاك اخيارها

(سليمان)

الأول:

٤١٥ ـ عساك ما تلقي ويتبعك المحام
ويعودن احرارنا لأوكارها

(طلال)

الثاني:

٢١٦ ـ بعض السلع لو هي تجلب ما تسام
والغالية تخطب وهي بديارها

(سليمان)

الأول:

٢١٧ ــ سلام يالشاعر اللي كل ما شفته صقرني
مثـل الحبارى اللي ليـا شافت الصـارم صقرها

(ابن دويرج)

الثاني:

٢١٨ ــ تعيش يالشاعر اللي عند حقيم حقرني
انا لك ارنـب سـلف واعـيونها اللي حجرها

(الغرمول)

الأول:

٢١٩ ــ لا تحسبني اجريف كل من جا طمرني
تراى غبة بحر ما كل من جا عبرها

(ابن دويرج)

الثاني:

٢٢٠ ــ والله لخاطر بنفسي وان عجزت الله عذرني
كـللِّشْ ولا قولة الغرمول عــود عن خطرها

(الغرمول)

□ الغناء على الربابة:

الربابة هي الآلة البسيطة القديمة التي صاحبت الإنسان العربي وآنسته منذ العصور الضارية في القدم، وهي رفيقته منذ تلك الحقب البعيدة وقد اتخذ منها

أنيساً يشاركه أشجانه، وأحزانه، يتفاعل معها، تمتزج مع أحاسيسه، يذوب مع نغمات أوتارها، يلجأ إليها ساعات المحن، يبث إليها الشكوى ويفتح لها صندوق أسراره ليسر إليها بالنجوى يطفح مع أنغامها ليلامس النجوم، ينساب مع صدى أنغامها ليبترد في الجداول المتدفقة الدافئة، يجتاز في رحلته المساحات البعيدة وتطوى له الأرض طياً بصحبة لغة أوتارها تتطامن الجبال مع هذا اللحن الشجي، ليبصر من يحاكيه كحبيب يوده وكأنه يعيش إلى جواره، تمتص أنغامها الكبت الذي يعانيه، وإذا عدنا قريباً إلى القرن الخامس الهجري أي قبل حوالي ألف سنة وجدنا الانطباع عن هذه الآلة قائمًا على هذا الاعتبار «إن الربابة هي الآلة الموسيقية التي اختص بها العرب القدماء، وبخاصة شبه الجزيرة العربية، وقد ذكر المنصور بن زين المتوفي سنة ٤٤٠ هـ، وهو أحد تلامذة ابن سينا بأن الربابة هي أكثر من غيرها محاكاة للحن، وتساوقاً معه[1]». وتتكون هذه الآلة من الهيكل وهو إطار إما أن يكون مستطيلاً نصف طوله يساوي عرضه أو دائرياً بيضاوياً، ويكسى هذا الاطار بالجلد غير المدبوغ المنظف من الشعر ويشد على هذا الاطار وهو رطب حتى إذا يبس أصبح صلباً ويفضل جلد الابل وأفضلها من جلد الذيب وهناك مثل يبين درجة هذا التفضيل يقول «جر السبيب على السبيب واللي يعوي جلد الذيب» ويخترق هذا الاطار القلب وهو عصا بقدر قبضة اليد أو أرفع يربط به الوتر من طرفيه، ليمر من فوق الجسم يرفعه عنه عودان قصيران مربوطان إلى بعضهما من الطرفين يرتكزان على جلد الجسم ويشدان الوتر يسميان «الحجش» والوتر المربوط في طرفي القلب يتكون من شعر ذيل الخيول «السبيب» وفي الوقت الحاضر يتكون من خيوط النايلون، يشهد هذا الوتر بدرجة جيدة، وهناك القوس وهو عود لدن محنى طرفاه ومربوط بهما شعر مثل الوتر ومشدود أيضاً بدرجة جيدة، وأحياناً يمسح العازف وتر الربابة والقوس بمادة «الجاوني» لتنظيف الأوتار بها ولتخشوشن نسبياً حتى إذا جر عليها القوس يحصل بينهما التفاعل المطلوب.

---

(١) السماع عند العرب ج ٣ ص ٩٠.

والعزف على الربابة من الفنون الشعبية المحبوبة التي يعشقها جمهور كبير من الناس، ويتعلق بهذا الفن المغرمون به لدرجة لا يستطيعون، الصبر عنه، ويتم العزف في حلقات تعقد لهذا الغرض في المناسبات، وفي ليالي السمر، ويلتف حول العازف مجموعة من المستمعين الذين يصغون للعزف بكل حواسهم، ويستمعون إلى القصيدة التي يرددها لعازف بكل انسجام ومشاركة وجدانية، وربما انفرد العازف وحده بلعب على أوتار ربابته في الهزيع الأخير من الليل يناجي أصدقاءه أو يشكي همومه، أو يبث آلامه يتوجد على أحبابه، يبوح بأسراره، يرسل تأوهاته، يتألم مما أصابه، ومن الألحان المشهورة التي تعزف على الربابة المسحوب: وهو ما يجر بعض كلمات القصيدة بنغمة طويلة تخرج من لأعماق ويسحب قوس الربابة تبعاً لذلك ليواكب كلمات القصيدة وهذا النوع دائمًا يختص بمواضيع الشكوى، والوجد، والحزن.

الهجيني: وهو اللحن الراقص على الربابة ويشبه صوت الهجيني الذي يغني على ظهور الإبل وهو ما يعبر عن الوصف، والوجد، وهذا اللحن خفيف الإيقاع راقص النغمة يتمشى مع أبيات القصيدة ذات الأبيات القصيرة، ويوحي هذا اللحن بالفرح.

الردادي: وهذا اللحن أطول من الهجيني وأقصر من المسحوب وهو من الألحان الشجية المؤثرة يتمازج من أبيات القصيدة وهو سريع الايقاع ويعبر عن الابتهاج والفرح أيضاً وهناك ألحان أخرى يتقنها كل عازف كالناعمي، والردادي، وغيرها.

كما أن العازفين يمتازون بالتفنن على تشكيل الألحان تبعاً لايقاع أبيات القصيدة ومن أمثلة القصيدة لنوع المسحوب التي من أبياتها:

٢٢١ ـ اللي وسم حالي خفي على الناس
وسم المحوص بجال خطو الركية

٢٢٢ ـ تعـاطن المعبـار من عنـد دواس
وأنـا عـلى الخـابـور مـالي مـطيـة

٢٢٣ ـ وكـل تذكـر عزوة لـه مع النـاس
وأنـا أتـذكـر عـزوتي شـمـريـة

(عبد الله بن رشيد)

والقصيدة من الهجيني التي من أبياتها:

٢٢٤ ـ يـا غصن لـونـك خضـر مملوح
لـو تـاخـذ الـروح مسمـوحي

٢٥٥ ـ خـذيـت روحي بـلا مـصلوح
يـا عـزوتي لـيـه وش نـوحـي

(.....)

والقصيدة من الردادي التي من أبياتها:

٢٢٦ ـ صـار مطراشي مـع البدو ذالـوفي
وابعـدا بي وانتحو عنـك يـا هـلالـه

٢٢٧ عـينهـا جمـة غـديـر يـقـفـقـو في
بمحـاجـر فيضـه عقب مـا سـالـه

٢٢٨ ـ والجـدايـل كـالقيـاطـين مصفـوفي
مثـل شرطـان الـذهب عنـد عمـالـه

(.....)

□ الغناء على السمسمية:

والسمسمية تشبه الربابة في كل شيء من حيث الأغراض والميزات وكل ما يتعلق بها إلا أنها تختلف عنها في نقطتين رئيسيين هما تعدد الأوتار فالربابة لها وتر واحد ويلعب عليها بالقوس أما السمسمية فلها عدة أوتار من ٣ ـ ٥

ويلعب عليها بمداعبة هذه الأوتار بأصابع اليد أو بريشة صغيرة تشبه في ذلك العزف على القيثار كما أن الألحان تختلف تبعاً ذلك وتعتبر بالمرتبة الثانية بالنسبة للربابة إنما تعتبر نوعاً آخر له أهميته وله محبوه، ويشكل العازف ألحانه على السمسمية بمهارة فائقة كما يشاء ويمكن أن يخضع كثير من الأبيات لألحانه، وأنغامها شجية مطربة راقصة، ومن أمثلة القصيدة التي تغني عليها القصيدة التي من أبياتها:

٢٢٩ ـ لا تجي بيت العنود ولا تمره
الحذر يالي على عمرك اتداري

٢٣٠ ـ العنود السهيل والبيض المجره
فرقهن مثل الفتيل عن السواري

(.....)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٣١ ـ واوجودي عليها وجد من فاطر له
غره القيد منها في أفروع المضامي

٢٣٢ ـ الموارد بعيدة والدحل ما يدله
وأصبحت جرة الفاطر غشاها عسامي

٢٣٣ ـ عين خشف يقود الصيد دقة وجله
غذبت ناقل البندق سريع الولامي

(.....)

□ الغناء مع محال السواني:

السواني هي الابل التي تنزف الماء من البئر بالدلاء، والمحال هي البكرة الكبيرة المركبة على البير، «يمكن الرجوع إلى الباب الأول من الفصل

الثاني من هذا الكتاب» والمحال يتم تركيبها على البيئر بوضع محورها على حصوتين في المفـرض المخصص لها على «الجنبوع» بطريقة فنية موسيقية، وينتج الصوت عن احتكاك المحالة بمحورها الخشبي المحكم «بقبها» ويتحكم بها السائق الماهر بحسه المرهف ليخرج منها مجموعة من النغمات الرفيعة، الوسط، الحادة، الجشة، الرخيمة، ليركب من هذه النغمات النغم الذي يريده، بما يتلاءم وحالته النفسية، بحيث تعزف له لحناً طرباً، أو شجياً، أو حزيناً، وعادة تكون المحال من ٢ ــ ٣ فإن كانت ثلاثاً فهو أفضل، كما أن لطريقة سياق الابل وسيرها في «المنحاة» أثراً كبيراً في تكوين هذه الألحان، فمتى كانت الابل «تنهز» الولاء «نهزاً» أصبح في اللحن إيقاع خاص يضفي عليه رونقاً مؤثراً.

والحقيقة أن الذي لم يسمع تلك الألحان ويتذوقها لا يصدق ما أقول أما من سمعها وعرفها فإنه يعتبرني مقصراً فيما أوردت عنها، وهذه الموسيقى التي تبدأ في الهزيع الأخير من الليل على تلك الآبار المتقاربة وربما المتبعدة أحياناً، وكل سائق قد وزن ألحان محاله وأتقنها، وانسياب هذه الألحان العذبة من هنا وهناك في هذا الوقت من الليل يذكر السامع بالبيت القائل:

٢٣٤ ــ غـدو بـه الــلي يتعبـون المحــال
مثـل العسـاكـر لجتـه بـالضبط فـوق

مع ما يصاحب هذا الوقت من الهدوء التام، والأجواء الصافية والخالية من الضجيج، يترك في النفس أثراً عميقاً، ولاسيما عندما ينهض سائق السواني ليشارك محاله ألحانها، وليتفاعل معها بحيث يمتزج الصوتان معاً ليكونا ألحاناً عذبة تطرب المستمع تحت سكون تلك القبة الزرقاء الصافية المرصعة باللالىء اللامعة، وتنطلق تلك الحناجر بأغانيها المصاحبـة لأنغام المحال في ذلك الوقت المتأخر من الليل وعلى طول النهار حتى حلول المساء الثاني بين الحين والآخر فكلما أحس السائق بالتعب والسأم، نفثه من حنجرته بتلك الأنغام، ويتحاشون الغناء في وقت الأذان والصلاة أما ما عداها فلهم حرية ذلك ويختلف مكان الغناء من المنحاة، فحينما نجد البعض يغني والابل في بداية المنحجاة «المستوى»

عندما تكون الدلاء في الماء بباطن البئر نجد البعض الآخر يغني عندما تكون الابل في نهاية المنحاة «المرفع» والدلاء تسكب الماء، وذلك ممن يؤمنون بالنتائج عملاً بالقول السائر «الغناء على الصبة». والغناء على ألحان محال السواني يكون من المسحوب الطويل بحيث يغني البيت من القصيدة «في التصويرة الواحدة» يليه البيت الثاني في «التصويرة الثانية» وهكذا يستمر حتى نهاية القصيدة والقصائد التي تعني بهذه المناسبة القصيدة التي من أبياتها:

٢٣٥ ـ واونتي منها الصغير يشيبي
كبر الجبل والنير واخشوم سنجار

٢٣٦ ـ ونت عليل ما لقواله طبيبي
والاكسير غادي عظمه انثار

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٣٧ ـ نطيت بالمرقاب لين القمر غاب
لين الثريا والنجوم ادبحني

٢٣٨ ـ لا واهنيك يا لنجوم المدابيح
اللي على جال البحر شرعني

(. . . . . .)

وغير ذلك من القصائد المماثلة لها.

□ الغناء وقت البناء:

يقوم العامل العربي بهذه البقعة ببناء القصور والقلاع والبيوت وحيطان البساتين والتحصينات، ويباشر عمله من بزوغ الشمس وحتى غروبها لا يتوقف إلا أثناء تأدية الصلاة أو تناول وجبة الغذاء، وأثناء تأديته لعمله الشاق المضني،

يشعر بالإرهاق والتعب، فلا يجد متنفساً لنفث هذا الاجهاد إلا بالغناء من نفس الموقع، حين نقل الطين أو اللبن، أو الحجارة وغيرها ورفع الأخشاب الغليظة إلى قمة المبنى، وتجريد سعف النخل من خوصه أثناء الليل، ويكون الغناء جماعياً على مجموعتين كل في مكانه، يؤدي عمله وفي نفس الوقت يؤدي دورة في الغناء، وأنسب وقت للغناء في وقت الظهيرة عندما تشتد حرارة الشمس، ويأخذ التعب من العاملين مأخذه، فعند ذلك يلجأون إلى الغناء، لازاحة كابوس السأم والاجهاد عنهم، أو عندما يثقل عليهم حمل الأخشاب الغليظة المحتاجة للرفع إلى سقف المبنى، يستعيون عليها بالغناء ليزيدوا من نشاطهم وقوتهم، أو عندما يريدون تجريد آلاف الجرائد الخضراء من خوص النخيل، بالسكاكين الحادة في ليلة واحدة قبل أن تذبل، لذلك يسهرون عليها ومتى دب النعاس إلى أجفانهم استعانوا عليه بالغناء لطرد النوم عن رؤوسهم، وكما اسلفنا يتم الغناء على مجموعتين وكل يؤدي عمله المعتاد، وربما زادهم الغناء نشاطاً ويتم ترديد البيت من ٢ ــ ٣ مرات لكل مجموعة حتى تنتهي القصيدة وتليها الأخرى، والقصائد التي تغني من بحر واحد هو اللحن الطويل المحرور، بدون استخدام أي نوع من أدوات العزف أو النقر، وإنما يتم الغناء مجرداً من أي شيء ومن أمثلة القصائد التي تغنى بهذه المناسبة القصيدة التي من أبياتها:

٢٣٩ ــ يا فهد ما نلومك لو زعجت الونين
لــو تهيضت بعــالي رفيــع الحمــام

٢٤٠ ــ من يلوم المشقى جعل قلبه حزين
والقلوب الضـوامي ما عليهن مـلام

(.....)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٤١ ــ الاواو جودي وجد من قيل يا مرحوم
تـوفى عسـر من عقب دنيــاه للجنـه

٢٤٢ ـ أنـا صاحبـي شـدوا اهـله مـع رحـيـل اليوم
ولا يـرجعـون الا عـلى بـارق الكنـه

(. . . . .)

□ الغناء على ظهور الإبل «الهجيني»:

الإبل هي رفيقة الانسان العربي منذ الحقب السحيقة في التاريخ، وعلى ظهورها جاب الفيافي والقفار، وطوت به المسافات الطويلة، وفتح الممالك والأمصار، تطفح به تارة، وترقل به أخرى، وتمشي به الهويني متى كلت واحتاجت إلى الراحة، تحمل زاده وتموينه، وهي شريان حياته النابض بالحيوية والنشاط، ولكل مهمة من المهمات نوع من الإبل «فالزمل» هي الذكور من الإبل والرواحل من الاناث كلها معدة لحمل الأثقال، و«المسح»[1] هي النياق المعدة للحلب وتسمى «الخلفاة»، أما «الهجن» فهي الذلول المعدة للركوب وتسمى مطية وأساس التسمية على الأنثى على أنها تطلق على الذكر من باب المجاز، ويختار منها الأنواع المنصوص عليها في الفصل السابع من الباب الخامس من هذا الكتاب، والنوع الذي يغنينا هو الركائب «الهجن» وهي نوع من الذكور الأحرار، والنوق العمانية وربما من الأنواع الأخرى وهي المعدة للركوب كالغزو والسفر، وهي التي تطرب للغناء كما أشارت إلى ذلك الشاعرة «اللامية» بقولها:

٢٤٣ ـ لا وابن عمي كل ما جيت أبا أنساه
ليـا هي تـذكـرني من الهجن حـايـل[2]

---

(١) قلب جزيرة العرب، فؤاد حزة، ١٢٨.
(٢) من أحاديث السمر، ص ٢٣.

٢٤٤ ـ لا وابن عمي تطرب الهجن لغناه
يـا ما زعـج فوقـه بحـامي القـوايـل

(. . . . .)

هذا النوع من الابل تطرب وترتفع أعناقها ممتدة إلى الأمام، تغذ السير، وتنهب الأرض، وتطوي المسافات، عندما يلامس آذانها أصوات المغنين، على ظهورها، الذين يرددون أغانيهم ذات الايقاع القصير الراقص، المتدفق رقة وعذوبة وحيوية، فيزول عنها التعب ويتجدد نشاطها، ويتلاعب «دلال» الخرج بين قوائمها، متراقصاً مع إيقاع اخفافها على الأرض التي لا تكاد تلامسها، بينما راكبها يتمايل طرباً يميناً وشمالاً فوق أريكة الشداد الناعمة وقد لف ساقه على رأس الشداد الأمامي «غـرابة الشداد» كنوع من الراحة أثناء وخد مطيته وقد أمسك الـرسن بيده اليسرى، وأمسك بعصا الخيزران اللين المتغطرف رافعه إلى أعلى بيده اليمنى، يدق جنبه بمرفقه دقات خفيفة تتمشى مع إيقاعات القصيدة التي يرددها، في هذا الجو الطافح بالنشوة، ولاسيما عندما تكون كلمات أبيات القصيدة تلاس شغـاف القلب من الوصف الـدقيق، والتصويـر الشفاف، والتجسيد البارز، والذكريات الحلوة، والأماني الغالية، عندها يهزه الطرب، فتومي رقاب الهجن على إيقاعات أبيات القصيدة، ووقت الغناء على ظهور الإبل عندما يحس الركاب بالملل من طول المسافة، أو عندما يرون مطيهم قد أحست بالكلل في أوقات ارتفاع حرارة الشمس أو طول السرى، فعندهايرددون اللحن الذي يغني على ظهور «الهجن» وهو «الهجيي» وهو من الايقاع الخفيف الراقص، وقصائد «الهجيي» بنفس الوزن وعادة لا تطول أبياتها بحيث تكون من ثلاثة إلى خمسة أبيات وربما أكثر ومن أمثلة أبياتها:

القصائد التي تغني القصيدة التي من أبياتها:

٢٤٥ ـ يـا لهـجـن شـيـلن بـنـا شـلة
يـا شـايـبـات المـحـاقـيـبـي

٢٤٦ ـ واسرن بنا ليلة كله
واردن بنا ما رد الذيبي

(.....)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٤٧ ـ أشرفت انا راس ميقوعي
وطبيت من عرض من طبه[١]

٢٤٨ ـ وغرقت أنا الطعس بدموعي
مثل الهماليل لياصية

٢٤٩ ـ ياللي تريدون منفوعي
حطو على القلب له ضبة

٢٥٠ ـ قلبي فرا الحبيب واضلوعي
والقلب لا فروش طبة

(.....)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٥١ ـ قالت افريحة حمام ناح
يا مال سلال الأرواحي[٢]

٢٥٢ ـ يال لورق عطني هواك وشاح
واعطيك طوقي ومسباحي

٢٥٣ ـ مار انت يالورق ما تنصاح
فأنا على الباب مداحي

---

(١) المعجم الجغرافي، ج ٣، ص ١٢٩٧.
(٢) المجموعة البهية، ص ١٢٥.

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٥٤ ـ يـا راكـب لـلي قـراهـن شـيـب
شـيـب الـنـسـانـيس والـغـارب

٢٥٥ ـ يـلفـن لـبـيـت بـه الـتـرحـيـب
بـيـب لابـن جـابر الـشـايـب

(حماد الحايطي)

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٥٦ ـ أمس الضحى شفـت انـا طفـله
واليـوم مـا شـفـت انـا ريـفـي

٢٥٧ ـ ريـمـيـة هـين جـفـله
مـا يـنـعـرف لـه مـواقـيـفـي

(. . . . .)

□ الغناء على ظهور الخيل:

يختلف الغناء على ظهور الخيل عن أي نوع آخر من الغناء، سواء من حيث الايقاع أو المناسبة أو القصيدة أو الغرض، فحينما نجد الغرض من الغناء هو الطرب أو الترويح عن النفس في الفنون الأخرى، نجده على ظهور الخيل يختص بالافتخار وشحذ الهمم، ودفع الخيل إلى قلب المعركة، كما نجد القصائد التي تقال في الفنون الأخرى طويلة نجد القصيدة هنا تتكون من بيت أو بيتين لتواكب لحظات الحسم القصيرة، كما أن ايقاع القصيدة في الفنون الأخرى من الايقاع الطويل أو الراقص، بينما هي هنا من الايقاع الحاد السريع الذي يتمشى مع وقع حوافر الخيل، لهذا فقد تبين بايضاح، الملامح الرئيسية من الأغنية التي تقال على ظهور الخيل وهي نوع من «الحداء» فعندما يقتحم الفارس غمار

المعركة، ويتحدى خصمة العنيد، يبدأ «بالحداء» على فرسه بكلمات حادة شديدة الوقع على الخصم، تزلزل الأرض من تحته، وعندما تسمع فرسه أو حصانه زمجرة الفارس من فوقها بهذه الكلمات التي تخرج من سويداء قلبه «تشوش» وتطفح عن الأرض واثبة نحو الخصم بسرعة فائقة لتسمع عزف صليل السيوف أو مقارعة الرماح يصاحب هذه الأهازيج المتبادلة بين الفارسين، ومن أمثلة المقطوعات التي تقال على ظهور الخيل:

٢٥٨ ـ يومك تتقى با لعريش
والشُّرْفُ ما فكيتها[1]

٢٥٩ ـ من فعلنا قلبك خريش
والمرجلة خليتها

(الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود)

المقطوعة الثانية:

٢٦٠ ـ يا سابقي عند اللزوم
تاصل وانا خيالها

٢٦١ ـ تقطع سماريت الحزوم
بالمعمعة تجوالها

المقطوعة الثالثة:

٢٦٢ ـ ان كان ما جانا نجيه
فوق النضا والمكرمات

٢٦٣ ـ رد النقامني عليه
قولوه ياهل الموجفات

(الملك عبد العزيز آل سعود)

(١) من شيم الملك عبد العزيز، ص ١١٢، ١١٦.

□ غناء سقي المواشي:

يعتبر الغناء مع متح الماء لسقي المواشي نوعاً من الفنون الشعبية المنتشرة على مضارب البادية وبالذات قرب تواجد المياه ولكل قبيلة نوع من المقطوعات التي يرددها الرعاة عندما يكونون على البئر لسقي مواشيهم غير أنها بصفة عامة لا تعدوا كونها متشابهة في الايقاع والغرض والمدلول، وطول المقطوعة، فالمقطوعة تتكون من بيتين أو ثلاثة يتم ترديدها وقد سبقت الاشارة إلى ذلك «في الفقرة السادسة من الفصل الخامس من هذا الكتاب» وتتكون هذه المقطوعات من الأبيات القصيرة كما أسلفنا ذات الكلمات السهلة التي يحفظها كل إنسان، أما إيقاعها فهو حاد سريع يواكب وقع أكف الرجال على «المحص» الرشا، الشطن، الذي يمتحون به الماء من البئر لسقي مواشيهم، فإذا أحس الرعاة بالتعب من نزف الماء بالدلاء من قاع البئر لجأوا إلى الغناء بما يرددون وذلك للترويح عن النفس وطرد التعب بتردد تلك الأبيات ويتم اختيار الأبيات ذات الكلمات الرقيقة التي تلامس شغاف القلوب من الوصف الشفاف، أو كلمات الحرقة والوجد على المحبوب أو الافتخار وإظهار مفاخر القبيلة ممن يرغب الشباب ترديده لبعث النشوة والنشاط ولاغراء زملائهم في التسابق والامساك بهذه الأشطان ونزف الماء لارواء تلك المواشي العطشى ومن أمثال هذه المقطوعات الواردة في الأبيات ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

□ غناء الدّحة «المصنع»:

عند بعض القبائل العربية يعقد نوع من الاحتفالات بمناسبة الأعياد، والزواج، والختان، ومناسبات أخرى كالعودة من السفر ويقام فيها لعب «يسمى الدَّحَّةْ أو اَلمصْنَعْ»[1] ويشترك في هذا الاحتفال الفتيان والفتيات جنباً إلى جنب، وهذه اللعبة من الألعاب التي تقام في الفترة السابقة، وحيث أن موضوع الاختلاط فيها مخالف لتعاليم الدين الإسلامي السمحة، فقد جرى إلغاؤها تماماً

(١) من شيم العرب، ج ٣، ص ٧٢.

في الوقت الحاضر، غير أنه يجب الاشارة إليها استكمالاً للبحث، وصفتها أن يجتمع الفتيات والفتيات قرب مضارب تلك القبائل، نلبس الفتيان أنظف ملابسم ويتمنطقون بأحزمتهم المحلاة بالخناجر اللامعة وبأيديهم السيوف أو البنادق والمسدسات، بينما تحضر الفتيات والنساء وقد لبسن أزهى ملابسهن، وتحلين بأبهى حليهن، ويجتمع المتفرجون من الرجال والنساء بأحسن هيئتهم ليشاركوا بهذه الاحتفالات، يجتمع الكل على صعيد واحد قرب البيوت بحيث يصطف اللاعبون في صفين متقابلين مختلطين ويتماسكون بالأيدي، وبينهم عدد من اللاعبين: اثنان من الفتيان واثنتان من الفتيات ثم يبدأ واحد من الفتيان مع واحدة من الفتيات باللعب حول بعضهما يدور كل واحد حول صاحبه، يتلامسون بأطراف الأكف، وهي قريبة الشبه من «الدبكة الأردنية» ويبدأ الشاعر يلقن أحد الصفين بيت القصيدة ثم يردده الصف الثاني، وهكذا يتم ترديد أبيات القصيدة، يصاحب إيقاع أبيات القصيدة تصفيق بالأكف من الصفين ثم اشتباك الأكف مرة أخرى مع تمايل إلى اليمين والشمال والأمام والخلف، مع رفع الأقدام قليلاً بالتناوب على إيقاعات القصيدة ويتلوى اللاعبون في الميدان على إيقاعات التصفيق بحركات رشيقة، وأحياناً يصاحبها قارع طبل واحد لدى بعض القبائل وتستمر هذه اللعبة، ويتناوب في الميدان من يحب اللعب من الصفين المشار إليهما حتى نهاية اللعبة، أما القصيدة التي تقال فهي من الأبيات القصيرة كنوع من «الحداء» ذات الايقاع الحاد السريع وعندما يصاحبها تصفيق الأكف يكون لها صوت مؤثر يغمر اللاعبين بنشوته، بحيث يستمر من يلعب في الميدان وقتاً طويلاً لا يحس بما يبذله من جهد جسماني، في حركاته العنفوانية، وتعقد هذه الألعاب غالباً في وقت الأصيل، وربما استمرت إلى منتصف الليل، أما القصائد التي تغنى فيها فمن أمثالها ما يلي:

٢٦٤ ـ جينا على الدحة جينا
ياما احلا صوت منادينا

٢٦٥ ـ نلعب والقمرا تفضحنا
بالظلما يبرق موضينا
(.....)

والمقطوعة الثانية:

٢٦٦ ـ بالمصنع سهرتنا الليلة
يا حليل العندا يا حليله

٢٦٧ ـ تلعب كنه ريم الصحرا
تجفل من لمسه شليله

(.....)

والمقطوعة الثالثة:

٢٦٨ ـ ليا جا بالقمرا صوتنا
على الملعب يا غزلان

(٢٦٩ ـ قولو للعود يجنبنا
يجينا بس الصبيان

(.....)

□ الغناء مع الرحى:

تعاني المرأة العربية في ذلك المجتمع من الجهد الجسماني ما يفوق طاقة الإنسان، ويمكن الاطلاع على ما تقوم به من عمل في الفقرة الثانية من الفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب ومن ضمن الأعمال التي تقوم بها، طحن الحب على الرحي المكونة من قطعتين دائريتين من صخر «الجرانيت» محزوقتين من الوسط السفلى تكون ثابته وبها القطب الذي تدور عليه القطعة العليا التي يوجد بثقبها بكرة القطب ومثبت رأسياً بأحد أطرافها وتد من الخشب يسمى اليد، تمسكه المرأة وتبدأ بادارة القطعة العلوية وتسكب الحب قبضة قبضة في بلعوم الرحى حيث تدخل من بين الطبقتين وأثناء إدارة الطبقة العليا يخرج من بينهما طحين ناعم، وتتحكم المرأة بنعومة الدقيق وخشونته من خلال رفع القطب أو خفضه بالقدر الذي تريد، وبما أن الدقيق مادة رئيسية في الغذاء اليومي والذي

لابد أن يكون قد مر بين فكي الرحى من خلال قبضات اليد المتتالية التي تلهمها المرأة بلعوم الرحى، فإن المرأة والحالة هذه تقضي مقدار ساعة في طحن وجبة اليوم للعائلة المتوسطة، فكيف الحال إذا كانت تريد طحن دقيق لوليمة كبيرة، أو تجهيز زاد للمسافرين، أو الحجاج، أو الغزو وما إلى ذلك؟ فلابد أن تقضي ساعات وهي جاثمة على مركب الرحى لطحن زنابيل الحب، المنقى سلفاً من الشوائب والمزوج بالكمية الكافية من الملح ثم تعبئته في الزنابيل مرة أخرى، وهذا النوع المتوسط من الزنابيل يسمى «المطحان» إذاً والحالة كذلك تنقى الحب وتصفيه ثم تبدأ بطحنه فلابد أنها تكابد هذا التعب الجسماني المرهق لابد لها أن تبحث عن منفس يطرد عنها الارهاق والسأم، فعند ذلك تلجأ إلى الغناء والغنى مع الرحى محبوب عند كثير من النساء، فهو إلى جانب كونه نوعاً من الترويح عن النفس وطرد التعب والسأم ففيه كذلك تنفيس عن الكبت بأنواعه، العاطفي والاجتماعي، وما تعانيه المرأة من المشاكل الاجتماعية وما تريد أن تعبر عنه بطريقة غير مباشرة، وتعتبر الرحى مفتاح أسرار المرأة، فمتى تعبت وأخذ منها الاجهاد مأخذه، وضاقت في عينيها رحابة الكون وهي بجانب هذه الرحى، أدلت بما لديها وكشفت صفحة أسرارها بصوت مرتفع على مسمع من الناس، وكثير من أسرارها تبوح بها من هذا المنبر المرهق، ولغناء النساء مع الرحى شجى، مطرب، ينساب من شفاههن بنغمة مسحوبة خمرية جذابة، وبأوتار رقيقة تتدفق عذوبة وسحراً، يتمشى إيقاع أغانيهن مع دوران الرحى وصليل أطرافها بالحب متفاعلاً مع صوت الحفيف الناتج عن تكسير الحب بين فكي الرحى، وتتلاعب ظفائرها مع مجاذبتها وتر الرحى، وأفضل ما يكون الغناء إذا تقابلت إمرأتان على مراكب الرحى يتجاذبان الوتد، ويطوحان بتلك الأصوات الجميلة بالطريقة المشار إليها، تقول أحداهن شطر البيت، فترده الثانية وهكذا مرتين لكل شطر من البيت، حتى نهاية القصيدة.

والقصيدة التي تغني بهذه المناسبة، من القصائد الطويلة ذات الايقاع المجرور، وربما امتد وقت الغناء لساعات يتم خلالها الغناء بين فترة وأخرى، ويطرب لأصواتهن من يسمعهن داخل البيت أو بقرب المكان، وأفضل الأوقات

للغناء هو وقت الهجير عند اشتداد الحر وزيادة الارهاق، أو في الليل عندما يكون الناس قد أخلدوا إلى الراحة، ومن القصائد التي تغنى بهذه المناسبة، القصيدة التي من أبياتها:

٢٧٠ ـ أمس الضحى نطيت راس المذيريب
من طلعة البيضا لما قيل غابه

٢٧١ ـ وأنا على حسي عوى عاوي الذيب
والقلب ذاب ودمعة العين رابه

٢٧٢ ـ يا سعود قل لامك ترى جاك خطيب
يبغاه مني مار قولي هلابه

(محمد راشد الحمد)

والثانية التي من أبياتها:

٢٧٣ ـ لا وافرير واتمزع ضميري
على عشيري دب الأيام ما انساه

٢٧٤ ـ والله من دمع يهله نظيري
لو هو على واد الحليفة درج ماه

٢٧٥ ـ عليه مزعنا ثويب الحريري
وشوك الهصير بروس الأقدا ناطاه

(زوجة البجادي)

والثالثة التي من أبياتها:

٢٧٦ ـ نطيت بالمرقاب وأوميت بالخمس
واقول يا واد الغضا وين خليٍّ

٢٧٧ ـ كان أمس مثل اليوم واليوم مثل أمس
وان كـان بـاكـر مثلهن زاد غـليٍّ

٢٧٨ ـ خـلي عقد لي عقـدتـين بـلا لمس
وأنـا عقـدت الثـالـثـة مـا تحـليٍّ

(. . . . .)

وما شابه ذلك من القصائد التي تتعلق بالمرأة.

□ الغناء على المهراس:

المهمة الثانية التي تقوم بها المرأة في تجهيز الوجبة الغذائية اليومية هي هرس الحبوب غير القابلة للطحن، مثل القمح الصلب «اللقيمي» أو الدخن بأنواعه، هذه الأنواع غير قابلة للطحن وإنما يتم هرسها حتى تذهب القشرة العليا من الحية وعند ذلك تطبخ على حالها وأحياناً تجرش مرة ثانية، كذلك يحتاج إلى «هبش» نوع من الأرز العراقي «التمن» وذلك لوجود قشور على الحب فيتم هرسه قليلاً ثم ينقى ويصفى تمهيداً لطبخه، والأداة التي تتم بها العملية هي المهراس «المهباش، الميخف» وهو خشبة غليظة بطول المتر تقريباً وقطرها حوالي ٥٠ سم محفور أعلاها بحيث يصبح قطر الحفر ٤٠ كم بعمق حوالي ٤٠ سم، وتختلف الأحجام بالكبر والصغر ويكون له عصا غليظة وربما اثنتان بطول متر ونصف وسماكة قطره حوالي ١٠ سم ويوضع الحب بداخل هذا الحفر ويبلل قليلاً ثم تبدأ النساء بهرسه بهذه العصا الغليظة ومع هذه العملية يبدأ الغناء كما أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:

٢٧٩ ـ طـرابـة الـدنيـا معـاميـل وأفـراش
وصينيـة يـركض بهـا العبـد مسعـود

٢٨٠ ـ وبيض تعاطن اللحن فوق مهباش
واحلوبـين اكفـوفهن قـاسي العـود

(مشعان بن هذال)

وكما هي الحال في الغناء مع الرحى فإن الغناء هنا لغرض الترويح عن النفس، وبعث النشاط والحيوية في هذا الوقت بالذات التي تحتاج فيه المرأة إلى النشاط والقوة لرفع هذا العصا رأسياً ثم إيراده بقوة في قاع المهراس التي يتم هرس الحب بها، ويتقابل اثنتان واقفتان كل واحدة معها عصاها المشار إليه، والمهراس بينهما ويتعاقبن بالهرس بهذا العصا واحدة ترفع والثانية تورد بالتتالي وهكذا حتى يتم هرس الكمية الموجودة في بطن المهراس ثم تفرغ ويوضع غيرها حتى يتم هرس القدر المطلوب، وبطبيعة الحال فإن القصائد التي تقال بهذه المناسبة من الايقاع السريع والحاد المتمشي مع إيقاع العصا في بطن المهراس وهو شبيه «بالحداء» وعندما تقوم النساء بهذا الجهد المضني ويشعرن بالتعب يبدأن بالغناء يتمايلن أماماً وخلفاً رافعات موردات تلك العصي الغليظة يتخاطفن أنفاسهن من التعب يصاحب هذه الأنفاس الأغاني التي تطوح بها واحدة للثانية ومن الأمثلة عليها: هذه الأبيات وما شابهها:

٢٨١ ـ نجم ياللي تلالا صوب ديرة هلي
بشر أمي ترا لمحجول حصلتناه

٢٨٢ ـ صاحبي ينقش الحنا بكف حسين
مثل نقش المطوع بالقلم والدواه

□ الغناء في حفلات الرقص:

كما أن للرجال مناسبات يجتمعون بها ويلعبون بها ويرددون أغانيهم فكذلك لنساء، فإن المناسبات العامة كالأعياد وأفراح الزواج والختان وغيرها، خير مجال لتجمع النساء في مكان منعزل حصين عن الرجال، يقمن بهذا التجمع للرقص والغناء وحدهن، وتقوم الفتيات بنصيب وافر من الرقص أما السيدات فيشارك بعضهن والبعض الآخر يحضرن للتشجيع والمشاركة والتفرج، وحينما تحضر النساء إلى مكان الاحتفال وقد ارتدين أزهى ملابسهن، ولبسن أبهى حليهن، وتعطرن بأزكى أنواع العطور، كل حسب مقدرتها، وتزين بمختلف أنواع الزينة المتاحة آنذاك من الكحل والحناء والمشاط وغيرها، ويكون الرقص

في مكان متسع يصف فيه النساء صفين متقابلين من السيدات وإذا كان الرقص بمناسبة زواج فيكون الرقص بحجرة العروسين أو بالقرب منها وفي وسط الميدان ينزل واحدة أو اثنتان، وقد نقضن جدائل شعورهن، وكيفية الرقص أن ترقص الفتاة منفردة على نغمات الأغنية التي يرددها الصفان والمتمشية مع إيقاع تصفيق الأكف ونقرات الطبل، وتبدأ الراقصة بالتمايل يميناً وشمالاً تلاعب شعرها المتدلي إلى الأرض ثم تأخذ حركات إلى الأمام والخلف تجاذب شعرها مع قفزات خفيفة ثم تبدأ بحركة إضفاء أحد أردان ثوبها الفضفاض الموشى بخيوط الذهب على شعرها وتحجب به وجهها واضعة ذراعها فوق رأسها وهي ترقص بحركات أخف قليلاً لتأخذ قسطاً من الراحة، ثم تزيح الأردان عن شعرها وتبدأ تتمايل ملوحة بيديها وأردانها تلعب بشعرها المتموج ذات اليمين وذات الشمال، والصفان من حولها يتبادلن أبيات القصيدة ويصفقن بإيقاع جميل ترقص الفتاة عليه ويختلف موضوع القصيدة فحيناً تحتوي الأغنية على مديح أخ الفتاة الراقصة أو اباها أو أحد أقاربها وتدخل الملقنة اسم المذكور في بيت اضافي بنفس القافية إلى القصيدة السابقة بحيث يغني مع أبياتها وكأنه جزء منها، وأحياناً تكون القصيدة مستقلة، والغرض من الغناء هو الترويح عن النفس وقضاء وقت ممتع بعيداً عن جو العمل المرهق في هذه المناسبة، والاختلاط ببعض الصديقات اللواتي لم يجتمعن بهن منذ فترة طويلة وهو مجال فسيح للفتيات لممارسة عملية الرقص والتدريب عليه، كما أن هذه المناسبة مجال للتعارف بين النساء والفتيات من بنات الحي الواحد أو القرية أو مضارب البادية، ولهذه الاحتفالات أهمية بالغة لدى كثير من النساء حيث ينتظرنها بفارغ الصبر، ويتم الاعداد لها بوقت كاف، وعادة يكون الرقص في بيت من بيوت الناس الموثوق فيهم بعد خروج الرجال منه ويكون لصاحب هذا البيت هيبة عند الشباب، حتى لا يتجرأ أحد من الشباب بالاقتراب منه ومضايقة النساء، ويستمر الحفل من ساعتين إلى ثلاث وأحياناً يمتد أكثر من ذلك ويعقد عادة في النهار، أما القصائد التي تغنى بهذه المناسبة فهي على نوعين نوع من الأبيات التي تغنى با «لهجيني» لكن إيقاعها يختلف حيث تتخذ ايقاعات سريعة متتابعة حادة راقصة، يرد فيها شط البيت مرتين متتاليين ثم يتم الانتقال إلى الشطر الثاني بنفس الطريقة وتسمى «السوقية»

والنوع الآخر هي القصائد الي تغنى بالسامري، وتختلف كذلك في إيقاعها عن السامري بحيث يردد شطر البيت مرتين بنغمة أطول من سابقتها، وهناك الكثير من القصائد يتم تكييفها وتلحينها لتصبح صالحة للغناء مع الايقاعات التي تناسبها ومن الأمثلة على ذلك ما يلي.

القصيدة التي من أبياتها:

٢٨٣ ـ يا غزيل البكر وش جابك
يا غزيل البكر وش جابك

تجلب بسوق البكيرية
تجلب بسوق البكيرية

٢٨٤ ـ تجلب خفى ما درينا بك
تجلب خفى ما درينا بك

يا تية الخير من يتية
يا تيه الخير من يتيه

ما تشوف حالي من أسبابك
ما تشوف حالي من اسبابك

٢٨٥ ـ مثل العيادين مبرية
مثل العيادين مبرية

والقصيدة التي من أبياتها:

٢٨٦ ـ واونتي ونت مريض عنوبه
واونتي ونة مريض عنوبه

عضيض غلث وشم دم البرازي
عضيض غلث وشم دم البرازي

٢٨٧ ـ على الذي يا خليف ماني بصوبه
عـلى الذي يـا خليف مـاني بصـوبـة

لا هـو ولـد عمي ولا هــو مجـازي
لا هـو ولـد عمي ولا هــو مجـازي

٢٨٨ ـ الخـد قـرطـاس الشـريف اكتــوبـه
الخــد قـرطــاس الشـريف اكتبــوبـه

والعـين عـين الـلي ربت بـالنفــازي
والعـين عـين الـلي ربت بــالنفــازي

(حماد الحايطي)

وغير ذلك من القصائد شائعة الاستعمال في مثل هذه المناسبات.

□ □ □

الفصل الرابع عشر:

الحياة الاجتماعية

□ العادات والتقاليد والأعراف:

العادة فعل معينّ اعتاد الفرد أو المجموعة على عمله بعد أن استمروه وراق لهم، وقد تكون جذورها موروثة قديمة أو بدأت حديثاً واعتادها الناس، أما التقليد فهو كذلك فعل معينّ بدأه أحد الناس قديماً أو حديثاً وغالباً يكون الذي بدأه من المرموقين أو من علية القوم، ورأى الآخرون في هذا الفعل حسناً فقلّدوه وساروا عليه، أما العِرف فهو أيضاً عمل معينّ تعارف الناس على استحسانه واستساغوه واتخّذوه منهجاً يسيرون عليه، وكل من العادات والتقاليد والأعراف لها مسبّباتها التي ارتكزت عليها جذورها البعيدة، كما أن لها نتائجها المترتّبة عليها بعد ذلك، وحيث أن هذا الثالوث لا يوجد له نصوص يرتكز عليها، وإنما يبدؤه شخص معينّ لظروف معيّنة يتمشّى معه ويخدمه وربما بزوال هذا الظرف تقلّ أهمية هذه العادة وربما يكون لها أثر سلبي مؤثّر، وخذ مثلاً على ذلك، هناك عادة الانتهاء من الطعام دفعة واحدة بمجرّد أن يقوم أحدهم ويتنحنح قائلاً «خلّف الله عليكم» يقفز كل مَن على الوليمة حتى ولو كان البعض لا تزال في نفسه رغبة للمزيد من الأكل، وقد نشأت هذه العادة عندما كان الطعام قليلاً لدى الناس مع كثرة الضيوف والزوّار، مما يجعل المضيف يقدّم ما يستطيع تقديمه من الزاد الذي يضعه أمام ضيوفه، وهذا الزاد الموضوع بتلك الصينية ليس لهؤلاء الضيوف والمدعوّين فقط، ولكن هناك بقية ضيوف ومدعوّين آخرين ينتظرون دورهم، وربما أهل البيت أيضاً، حيث لا يوجد زاد

غيره، لذلك عندما يرى كبير القوم أن الدفعة التي معه قد نالت نصيباً من هذا الطعام، وبدافع الإبقاء للآخرين ينهض «مخلّفاً» ويقول: «زادكم الله من واسع فضله» وذلك إيذاناً للآخرين بالقيام وترك المجال لغيرهم، ويعيب الناس على من يتخلّف عن القيام بعد ذلك، وهكذا بقيت هذه العادة مواكبة لذلك الظرف وخادمة له وحينما زال بتوفّر الخيّرات أمر جلالة الملك عبد العزيز بإلغائها فزالت شيئاً فشيئاً. أما التقليد فهو يختصّ بالمظهر العام للناس، وخذ مثلاً على ذلك، اعتاد العربي أن يلبس العباءة «البشت» تحت «الغترة» الطرحة واستمر على ذلك طويلاً حتى بدأت العباءة يوشي جيبها بالخيوط الذهبية منذ ما يزيد على قرن من الزمان، وقد أهديت للحاكم عباءة موشاة بخيوط الذهب فلبسها على الطريقة المعتادة، غير أن أحد حاشيته اقترح عليه أن يلبسها فوق «الغترة» وذلك لإظهار نقش الخيوط الذهبية ففعل، ومنذ أن رأى الناس الأمير قد لبسها على تلك الطريقة الصحيحة قلّدوه، وأصبحت هي لبستها المفضّلة منذ ذلك الوقت، أما العرف فهو في نفس الإطار إلا أن له غرضاً أعم، وخذ مثلاً على ذلك، كان الناس إذا أراد شخص أن يتزوج دعا مجموعة من أقاربه، وأصدقائه وجماعيته لحضور حفل الزواج، وقد تعارف الناس أن كل مدعو عليه أن يحضر للعريس هدية بقدر استطاعته سواء أكانت نقدية أو عينية وذلك انطلاقاً من مبدأ المساعدة للعريس على تكلفة الزواج، كذلك الحال فيمن تدعوهن أم العروسة، فإنهن يساهمن بهداياهن لمساعدة العروسة على تأثيث بيتها والقيام بأودها، هذا العِرف نشأ عندما كانت حالة الناس المادية ضعيفة واستجابة لمبدأ التعاون سار هذا العِرف وساهم مساهمة فعّالة في سدّ عوز الناس. هذه العادات والتقاليد والأعراف تنشأ عند الحاجة إليها أو عندما يتمّ تصحيح وضع معينّ، أو عندما يرى فيها مساعدة للآخرين، والواقع أن لكل جزء من المنطقة موضوع البحث عاداته وتقاليده وأعرافه، ولا أبالغ إذا قلت أن لكل مدينة أو قرية أو قبيلة نمط معينّ من العادات والتقاليد والأعراف تسير عليه، ويصعب حصرها في هذا المجال الضيّق، إنما كلّها تنبع من المصادر التي أشرت إليها وتؤدّي نفس الأغراض الإنسانية التي ذكرتها، وبما أن هذه العادات والتقاليد والأعراف تنشأ لظروف معيّنة كما أشرت فإن هناك إمكانية لتبديلها والاستعاضة عنها بأحسن

منها، وبمعنى آخر هناك مجال لتطويرها تطويراً مستمرّاً يتمشّى مع مفهوم الناس ونظرتهم لتلك الأمور، فقد تكون هذه العادة أو هذا التقليد أو ذاك العِرف، يعتبر الإخلال به معيباً أو شائناً في وقت من الأوقات ثم يصبح بعد ذلك لا غضاضة في فعله حتى يصبح جائزاً عمله، وذلك بتطوّره أو حلول بديل عنه، أو اكتشاف خطأ فيه، وللعادات والتقاليد والأعراف إيجابياتها وسلبياتها، فهي ولا شك تنشأ عن الحاجة، وتفي بالتزامات معيّنة، وتؤدّي خدمة كبيرة لقطاع معينّ من المجتمع لفترة زمنية محدودة، لكنها إلى جانب ذلك تضع بعض القيود والعراقيل أمام انطلاقة الإنسان التائق دائمًا إلى التجديد، ولا سيما عندما يمضي عليها مدة طويلة وتتغيرّ مفاهيم الناس، ويكون القائمون عليها من محدودي التفكير الذين يرون كل خروج عنها خطيئة كبيرة، فعند ذلك يصبح لها آثار عكسية، وتكون حينئذ إزالتها واجبة، أما القابل للتطوّر والتجديد والنابع من مبادىء إنسانية عريقة فهو باق في قطاعات هذا المجتمع منذ وقت طويل وحتى الزمن الحاضر.

□ الأعياد والمناسبات:

لا يوجد في هذه البقعة سوى عيدين فقط هما: عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى السعيد، ومناسبات متفرّقة وغير ثابتة، ويحسب الناس لهذين العيدين كل حساب للاحتفال بهما وإظهار مشاعر الفرح والسرور بقدومهما، فإلى جانب أهدافهما السامية التي نصّ عليها التشريع الإسلامي، وسبقت الإشارة إليها في الفقرة السادسة من الفصل التاسع من هذا الكتاب، يوجد لهما تأثير اجتماعي، يبرز في تفاعل الناس مع فرحة هذا العيد، وانصهارهم في بوتقته، ومدى استعدادهم للمشاركة فيه والحرص على حضوره مع الأهل والأقارب، حيث يحضر البعيد، ويمتنع المسافر، وتعطّل جميع الأعمال، وتؤجّل المشاريع والأفراح إلى ما بعد انتهائه، وتؤجّل الصفقات التجارية، ويلتمّ شمل الناس ويتجمّع تشتّتهم، ومن حكمت عليه ظروفه بالبعد والحرمان من المتعة في أيام العيد فإنه قد يتمثّل ببيت أبي الطيب المتنبّي:

عيد بأيّة حال عدت يا عيد
بما مضى أم لعهد فيك تجديد[1]

أما الأحبّة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيد دونها بيد
(أبو الطيّب المتنبّي)

أو بيت الشاعرة التي تقول:

٢٨٩ ـ العيد لوجان ما همّن
لا عاد ما عايد الغالي
(.....)

وربما بيت الشاعر الذي يقول:

٢٩٠ ـ كل نهار العيد عايد وديده
وأنا نهار العيد عيدي ادموعي[2]
(أبو زويد الشمري)

هذه الأعياد تعتبر من الروابط الاجتماعية التي لها أثر لا يستهان به في تماسك تلك البنية الاجتماعية المتراصّة، ويتمّ الاستعداد له قبل حلوله بوقت كاف، وتولي النساء والصغار والشباب هذه المناسبة ما تستحقّ من صنوف الزينة والبهرج، أما الرجال فإن اهتمامهم ينصبّ على النواحي المعنوية، لذلك نجد المرأة تعدّ أغلى وأفخر أنواع الملابس لترتديها يوم العيد، وتحتفظ بأثمن السلع والحلي لتلبسها ولتزيّن بها عنقها وأطرافها، وتضمخ شعرها بأزكى أنواع الرياحين والورود ضمن المشاط الذي تشبع به شعرها، وتضع«أنوج»أصناف العطور على ملابسها وبشرتها، وتستعمل وسائل التجميل المتاحة آنذاك كالكحل

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي جـ . . . ، ص . . .
(٢) ليالي السمر، ص ١٦٦.

لعينيها، وتستعمل الحناء بكفّيها وربما لأطراف أصبع أقدامها، عندما تتمثّل بيت الشعرة التي تقول:

٢٩١ ــ لا يا خلف يا لفغم واين أنت عنّا
ليتك ضحى العيد عندي تشوفي

٢٩٢ ــ حطّيت لك باطراف الأصابع حنّا
وخضبت لك حتى مثاني كفوفي

أما الصغار من صبية وصبايا فإن أهلهم يعتنون بلباسهم ونظافتهم وذلك بتجهيزهم بأزهى ألوان الملابس للمشاركة بهذه المناسبة السعيدة، وكذلك الشباب يستعدّون للعيد باقتناء أحسن الملابس وأغلى الأسلحة والأحزمة، أما الرجال فمع اهتمامهم بالمظهر العام إلا أن جُلّ اهتمامهم ينصبّ على الناحية المعنوية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في فصل سابق ويهمّنا الآن الآثار الاجتماعية المترتّبة على هذه المناسبة من التجمّع من مكان بعيد للمشاركة فيه. والتسامح الذي يحصل بين من يوجد بينهم خلافات، وتطهير النفوس من الحزازات النفسية، وإصلاح ذات البين، وتبادل الآراء حول مواضيع معيّنة، ومناقشة بعض المشاكل وإيجاد الحلو لها، وبحث الحالة المادّية لبعض المعوزين ومساعدتهم بقدر الإمكان، والتعرّف على الفتيات البالغات لسن الزواج من قِبَل الأمهات لأبنائهن، والخطوبة التي تتمّ في هذا الوقت الذي يعدّ وقت فراغ لكل الناس ومجالاً للمداولات واستطلاع الآراء، وربما تحدث زيجات بعد العيد مباشرة تجمع آراء واقتباسات الوافدين من أماكن مختلفة وانتقاء الصالح منها الذي يتلاءم مع مفاهيم الناس، كل هذه التأثيرات تحدث في تجمّعات الأعياد وهي ولا شك لها أثرها الفعّال لتجديد حيوية هذا المجتمع وزيادة تفاعلاته مع نفسه ومع مَن حوله، ودرجة تأثّره وتأثيره في الآخرين.

□ مناسبات الزواج:

مناسبات الزواج بهذه البقعة في غاية البساطة، وأقصى درجات التعاطف، وأقل التكاليف، ومنتهى الصراحة، وأصدق الصدق، وذلك في حالة

الموافقة على الزواج، وذلك لما يتمتّع به أفراد هذا المجتمع من السمات الحميدة، مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية موافقة العروسة، وأحياناً بدون موافقتها إذا كان وليّها رأى ما لا تراه في العريس، وقد يسافر الرجل وليس عنده نيّة للزواج، ويشاء الله وتتواءم الظروف وتتظافر الجهود فيصبح عريساً في ليلة واحدة إذا كان الرجل كفؤاً وتتم الترتيبات كالوليمة وغيرها بعد إتمام الزواج، وقد يتردّد الخطيب مراراً وتكراراً ويرسل المراسيل ويجهد نفسه دون أن يحصل على ما يريد، وقد يخدم الرجل عند أهل البنت دون أن يكشف مركزه عند قومه وذلك لغرض رؤيتها، ويتحينّ الفرصة التي يثبّت لمضيفه بالفعل أنه كفؤ للزواج من إبنته، وقد يمهر عروسه بريال واحد «ريال وشيمة رجال»، وقد يمهرها بعدد من الخيل والإبل، أو بعدد من النخيل أو بستان، أو بالسلاح كالسيوف والبنادق، أو بمئات من النقود والحلي، وهذا المهر مرتفع جداً، إنما هذه الأشياء نسبتها ضئيلة بحيث لا تتجاوز ٥ ٪، أما الغالبية العظمى من الفتيات فهنّ من النوع البسيط تمشّياً مع أحاديث الرسول صلىّ الله عليه وسلّم «أعظم النساء بركة أيسرهنّ مؤونة»[1]، «وزوّجوهن وأعينوا عليهن» ومن الآباء من يشترط المهر لابنته والغالبية يترك ذلك للعريس وعادة هناك أشياء ثابتة وأخرى ثانوية، ففي بيئة الفلاحين يشترط للعروسة نخلة من النوع الجيد تبقى لها جذعاً وثمرة ما دامت بذمّة الزوج، ويختار البعض النخلة التي تتحمّل العطش «كالقسبة» وربما أكثر من نخلة واحدة بالإضافة إلى ما يؤمّنه العريس من المصاغ والملابس، أما في بيئة العرب الرحّل فيشترط لها جملاً من خيار الإبل وربما أكثر من واحد يبقى لها ما دامت بذمّة الزوج، ويشترط كذلك قطعة من القطيفة «زل» وأحياناً بندقية بالإضافة إلى ما يأتي به الزوج من المصاغ والملابس، أما في بيئة التجّار وأصحاب المهن فيشترط لها نوعاً ثميناً من المصاغ بالإضافة إلى ما يحضره العريس من بقية المصاغ والملابس، وعادة يزيّن للعروسين غرفة في بيت أهل العروسة، أو خيمة أو بيت شعر صغير قرب بيوت أهلها وذلك في مضارب البادية، وتزيّن هذه الغرفة وتفرش بالفرش الوثيرة وتزيّن جدرانها بالتحف

---

(١) منهاج مسلم، ص ٣٨٤.

والمرايا والبسط المزركشة، وتُرشّ بمختلف أنواع العطور، وتُضاء بالإضاءة الكافية، حسب وسائل الإضاءة المتوفّرة آنذاك، وهي الذبالات، والمصابيح، والسرج، ويحرق بهذه الغرفة من البخور «العود» أو «المعمول» ما يجعلها تفوح برائحة زكية، وتختلف طريقة ترتيب الزواج من مكان إلى آخر حسب أحكام التقاليد والأعراف، وإذا سلّطنا الضوء على جزء من هذه الأجزاء وجدنا الطريقة تتمّ كالآتي: يتّفق على الميعاد للزواج بعد الخطبة في يوم معلوم ويفضّلون ليلة الخميس أو ليلة الإثنين وقبل ليلة الزفاف بليلة واحدة، يرسل العريس ما يريد إرساله لعروسه وأهلها من أنواع الثياب والمتاع والذبائح والخراف وربما الإبل وغيرها إلى أهل العروسة ويسمّى «الدّفَاع» وفي الليلة المعلومة يتجمّع لدى أهل العريس أقاربه وأصدقاؤه وجيرانه في بيته ويسمّى هذا التجمّع «السَّفَارَة» وإذا كانت حالة العريس المادية رقيقة فإنه يلقى العون المادي من الأقارب والجيران والمعارف كلّ بحسب قدرته وبعد أن يتكاملوا يتناولون القهوة والشاي والطيب ثم ينتقلون معاً بمعيّة العريس مشياً على الأقدام ومعهم المصابيح أو السرج إلى بيت أهل العروسة، ويتلقّاهم الناس الذين تقع منازلهم بطريقهم سواء أكان ذلك بالشارع أو القرية أو مضرب البادية ويقدّمون لهم القهوة العربية والشاي والطيب وربما الفاكهة والخضار واللبن في مواسمها، فتمرّ «السفارة» على هذه البيوت بيتاً بيتاً، ويكون الناس جميعاً قد لبسوا أجمل ملابسهم، وعادة تبدأ المسيرة بعد صلاة العشاء مباشرة، حتى إذا وصلوا إلى بيت أهل العروسة وجدوهم على الباب يملأ وجوههم البشر والترحاب ومعهم المصابيح والسرج، ثم استقبلوا السفارة بغرفة القهوة وقد تناولوا القهوة والشاي وربما الخضار والفاكهة واللبن إذا توفّر ثم انتقل العريس وذووه وعليّة القوم إلى غرفة العرس «الحجرة» فيدخلون هناك وبقية السفارة بما حول الحجرة ثم تدار القهوة مرة ثانية وتدار كذلك زجاجات العطور بمختلف أنواعها والبخور «العود القماري» على مختلف درجاته، ويدعو والد العروس أو أخوها الحاضرين لتناول طعام العشاء بعد صلاة العصر مباشرة من يوم غد بكلام يوجّهه للجميع قائلاً: «الله يحيكم تفضّلوا على العشاء بعد صلاة العصر يوم غد» ثم يقرأ القارىء آي من الذكر الحكيم ويختمها بقوله: «بارك الله لك وعليك» مؤذناً «للسّفارة»

بالانصراف، ويلبث المأذون مع العريس ووالده إن لم يكن تمّ عقد القران، وإن كان الموضوع قد انتهى فيغادر الجميع الحجرة ولا يبقى فيها سوى العريس ووالده وبعض أقاربه الذين يبارحون المكان بعد فترة وجيزة يودّعون العريس مردّدين «بارك الله لك وعليك» ويدعون له بالدعاء المأثور، وبعد قليل تزفّ العروس إلى عريسها من قِبَل اثنتين من قريباتها ومعهن والدتها أو مَن ينوب عنها، وتجسيداً لفكرة تمنّع الفتاة العربية عن التزلف والارتماء في أحضان الرجل الغريب عليها، فإن العروسة تتمنّع من الدخول على زوجها وتزفّ إليه زفّاً بشيء من التمنّع والدلال، وتتمنّع عنه في حجرته مبدئياً بدافع الحياء من الرجل الغريب وهذا الابتعاد مما يحبّبها لزوجها، ومتى زفّت عروسه إليه نثر على من زفّها الدراهم وأعطاهن ما تيسّر، وتبقى بجانب العروس والدتها أو مَن ينوب عنها حتى يهدأ روعها برهة ثم تغادر المكان داعية لهم بالبركة وبالتوفيق والرفاه والبنين، ويعقد بعض الأحيان حلقة غناء بقرب حجرة العرس، فإذا أصبح الصباح أعطى العريس عروسه ما أحضر لها من مصاغ وتسمّى «الصبحة» ويتناولان معاً القهوة وطعام الإفطار، ويقضي العريس والعروس أسبوعاً كاملاً محل الحفاوة والتكريم من الأهل والأصدقاء إذا كانت عروسه بكراً، إما إذا كانت ثيباً فالمدة ثلاثة أيام، وعادة يدعو جيران أهل العروسة العريس لتناول طعام الغداء ويدعون على شرفه الجيران طيلة المدة المتعارف عليها، يعملون له الولائم المناسبة ويأخذه الجيران واحداً بعد الآخر وربما يمتنع عن ذلك مراعاة لظروف الجيران المادية، وبعد أسبوع أو ثلاثة أيام تنتقل العروس إلى بيت زوجها ويحضر معها حشد من نسائها تحمل كل واحدة منهن شيئاً من أثاثها ويسمّى هذا الموكب «الرحالات» ويرافق هذا الموكب الصبية والصبايا يصفّقون ويزغردون حتى إذا وصلوا إلى بيت العريس وجدن من يستقبلهن بالترحيب والكلمات المتدفّقة بالبشر والحيوية، ويقدّم لهن القهوة والشاي مع وليمة تسمّى «النزالة» وأحياناً يكتفي ببعض الفاكهة والمشروبات، أما وليمة العرس فتعدّ في اليوم الثاني للزفاف وقد تُنحر جزور أو جزر أو مجموعة من الخراف تُطبخ وتُقدّم مع الزاد على صوان كبيرة من النحاس سيأتي ذكرها في الأثاث المنزلي، ويلبّي النـاس الدعوة لتناول طعام العشاء بعد صلاة العصر مباشرة، ويحضر المدعوّون

من الأقارب والأصدقاء والجيران وأهل الشارع وربما أهل القرية أو مضرب البادية بكاملهم، وأحياناً تقتصر وليمة الزواج على نفر قليل من أقارب العروسين والأصدقاء وتعتبر هذه الطريقة المثلى لدى الغالبية العظمى من الناس.

أما إذا كان أهل العروس من بلد وأهل العريس من بلد آخر، فإنه يتمّ انتقال «السّفارة» بطرق المواصلات المناسبة ويتمّ اختصار بعض الترتيبات من حيث الوليمة ربما تكون بنفس اليوم وترحيل العروس في اليوم الثاني مراعاة لظروف الوافدين، ومناسبات الزواج هي نوع من الرباط الأسري الذي يتعدّى تأثيره العروسين إلى المجتمع الصغير الذي يعيشان فيه، وهو على بساطته وقلّة تكاليفه له ذكريات لا تنسى، لأن العريس ينتهي من عملية الزواج خالياً من الالتزامات المادية المرهقة التي نراها في الوقت الحاضر، يئنّ تحت وطأتها العريس وقتاً طويلاً.

□ حلقات التجمّع الليلي:

لم يكن آنذاك أي وسيلة للتسلية وقضاء الوقت كما هي عليه في الوقت الحاضر، ولذلك يلجأ الناس بعد أداء عمل يوم كامل إلى قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات من أول الليل في حلقات تجمّع على مختلف المستويات، فالرجال مع الرجال، والشباب مع أقرانهم، والصبية وحدهم بقرب الشباب، والنساء إلى جانب النساء، والشابّات والصبايا بقرب العجائز يقصصن عليهن من أحاجيهن، فالرجال تجدهم في موسم الصيف بالساحات الكبيرة خارج البيوت وبقربها أو في قرنة أحد الشوارع مستندين إلى حائط البيت، وربما على عقم أو حفاد قديم يجلسون في شبه حلقة دائرية على الأرض مباشرة، وربما اتّكأ من يحسّ بالتعب منهم على كومة من الرمل بمثابة وسادة، وقد يستلقي البعض منهم على ظهورهم على وسادة من الرمل، أو ينبطح بعضهم على الأرض اللّينة النظيفة وهي مكان جلوسهم متوسّداً ذراعه، فيتجاذبون خلالها أطراف الحديث في شتى المواضيع وكلّ يقصّ ما جرى عليه في يومه، أو ما شاهده أو ما ينوي أن يفعله غداً، ويتبادلون الرأي فيما يتعلّق بحياتهم اليومية ويذهبون بالحديث كل

مذهب، بينما يجلس الشباب حول بعضهم بنفس الطريقة إنما يبتعدون عن الكبار قليلاً، ويقصّ كل واحد منهم ما جرى له في يومه وربما تناول الحديث بعض المغامرات البطولية والعاطفية التي جرت على كل منهم، وقد يركب بعضهم خياله في تصوير مثل هذه المغامرات، ويجلس بقربهم الصبية، للاستفادة مما يسمعون، بينما تجلس النساء داخل البيوت، في بيت إحداهن، وربما إذا وجد مكان متوسّط بين البيوت بعيد عن طرق الرجال اجتمعن فيه وأحياناً بقرب مبارك الإبل في بيئة الفلاحين، حيث تتولىّ النساء إطعام الإبل علفها وبعد الانتهاء من ذلك يتجمّعن ويتبادلن الحديث ويستعرضن أخبار المجتمع من كل جوانبه، ونجد الصبايا والأطفال قد تحلّقوا حول العجائز يقصصن عليهم من أحاجيهن ما يتمتّعون به حتى يحين وقت النوم، ولهذه القصص لدى الأطفال وقع محبّب إلى نفوسهم، أما في بيئة العرب الرحّل فكذلك تجد نفس هذه التجمّعات قرب مضارب البيوت وعلى نفس الترتيب، وتستمرّ هذه التجمّعات من بعد صلاة المغرب وحتى بعد صلاة العشاء الأخير بحوالي ساعة، بعد ذلك يخلد الجميع إلى الراحة بالنوم كلّ في بيته، وربما نام الشباب العزاب في مكان تجمّعهم خاصة في فصل الصيف حتى يحين موعد قيامهم لأعمالهم الذي قد يحين في منتصف الليل ولا يتعدّى أذان الفجر، أما التجمّعات المذكورة في الشتاء فتحدث في المقاهي. وقد لا ينام الشباب ويتّفقون على تجهيز أكلة على حسابهم جميعاً تسمّى «جواداً» وهي كلمة في الأصل مشتقّة من الجود، والجواد أن يجود كل شخص بعنصر معينّ من عناصر الأكلة، كأن يحضر أحدهم السمن، والثاني الطحين، وهكذا، أما الذبيحة فمن حساب الجميع، ويشترون الذبيحة ويطبخوها ويحضّرون معها ما تيسّر من الطحين ليعملوه خبزاً أو غير ذلك، وربما أكلوا مع الذبيحة من الرطب الجني مع الأرتشاف من مرق الذبيحة، ويكملون سهرتهم إلى آخر الليل وربما كان الجواد من لحم الطيور، أو الأرانب، وقد يكون ثريداً أو حنينياً أو ما تيسّر، ولذكريات الجواد بصمات حيّة تنبض بالحيوية لدى من جرّب تلك التجمّعات والسهرات، والأنس والضحكات التي جرت بين الأصحاب والأحباب من الشباب، وقد أضفى الزمن عليها ستاره منذ ذلك الحين، ولهذه الحلقات والتجمّعات ذكريات لا تُنسى لدى من جرّبوها

وعاشوها، لما تتّسم به من البساطة والهدوء والديمقراطية في إبداء الرأي، كما أن لها الأثر الكبير في تقوية الوشائج الأخوية والروابط الاجتماعية بين أفراد ذلك المجتمع المتماسك، كما لا يخفى أثرها في سرعة انتشار الخبر والعلم به من جميع الناس، ومعرفة ما يدور بهذه البيئة أو حولها، كذلك يدور في هذه التجمّعات كثير من القصص، وتتلى القصائد القديمة والحديثة، فهي بمثابة ناد أدبي إلى جانب تأثيراتها الاجتماعية.

□ المقاهي «القهاوي»:

المقاهي جمع قهوة والتسمية مجازة من إطلاق اسم الجزء على الكل، وهي الغرفة المخصّصة لعمل القهوة وتناولها، وتُعتبر المقاهي بمثابة المنتديات الشعبية، ففي كل بيت يوجد غرفة كبيرة ذات سقف مرتفع، وفي مكان منعزل عن البيت الداخلي وربما يوجد لها ملاحق إضافية، هذا في بيئة الحضر أما في بيئة العرب الرحّل فمكان القهوة في «رفة» البيت وهو الجزء المخصّص لمجلس الرجال، ففي هذه المقاهي يجتمع القوم من مختلف الأعمار ويتصدّر كبار السن وعليّة القوم هذه المقاهي التي يجلسون فيها على فرش مناسبة متّكئين على أرائك وثيرة وقد تكون مناسبة، ويبدأ صاحب القهوة، بشبّ النار وإيقادها وتحميص حَبّ القهوة عليها بالمحماسة الخاصة بها، ثم يبرّدها بالمبرادة حتى تبرد ومن ثم يدقّها «بالنجر» الهاون ثم يلقّم الدلة بمسحوق القهوة ويغليها قليلاً ثم يصفّيها ويدق بهارها وهو من حَبّ الهال «هيل» والقرنفل وربما الزعفران ويضعه في دلة أصغر منها تسمّى «المبهارة»، ثم يزل عليها القهوة ويقرّبها من النار قليلاً حتى تغلي ثم يصبّها للقوم، وعادة ينبري واحد من الشباب ويتولىّ إدارة القهوة على الحاضرين، وتقدّم قبل القهوة صينية مليئة بالتمر أو الرطب في حينه وربما الأقط «البقل» والزبد أو السمن في بيئة العرب الرحّل، ليتناول الحاضرون منه ما تيسّر ثم تدار القهوة وبعدها تدار كؤوس الشاي، ويقدّم بعدها الفاكهة الموسمية أو الخضار الموجودة في وقتها أو اللبن في وقته. وأثناء هذه الجلسة يجري بحث مختلف شؤون الحياة ويتبادل الجميع الرأي والمناقشة حول موضوع معينّ حتى

يصلوا إلى حلّ مناسب، كما يجري بهذه المقاهي المطارحات الشعرية وقصص البطولات، «وعلوم الرجال» كما يجري فيها استقبال الضيوف الذين يغدون إلى هذا المكان من الأماكن المجاورة، فالضيف يتنقّل من قهوة إلى قهوة، ومعه المدعوّون مما يقضي فيه ساعات من الوقت يتمتّع خلالها بالتعرّف على وجوه جديدة، ويأخذ الناس منه الأخبار التي جاء بها من المكان القادم منه، كما أن تنقّل الضيف من مكان إلى آخر يعطي المضيف الأساسي فرصة لتجهيز الوليمة اللازمة له، ووقت التجمّع بالقهوة ليس محدوداً، فهي تستمر طول النهار لكبار السن ومَن لا عمل لهم، ولا ينتهي وقتها حتى موعد النوم بعد صلاة العشاء الأخير بساعتين تقريباً، وبهذه المقاهي نوع من الترابط العضوي بين أفراد هذا المجتمع، ففيها يرى بعضهم بعضاً، ويتبادلون الرأي، ويتشاركون في خدمة الضيف القادم إليهم ويسلّونه، ويتعرّفون على الضيوف الذين يفدون إليهم، ويعرفون أخبار ما يدور حولهم، ويحمّلون ضيوفهم أخبارهم وانطباعاتهم، وهي مجال أيضاً للمعوزين الذين لا يجدون طعاماً إلا الأكل من هذه المقاهي مما يقدّم لروّادها بالمجان، كما أنها مكان للتجمّع غير المقصود فيما لو طرأ طارىء يكون وجودهم بمكان واحد يتحرّكون منه دفعة واحدة، كما أنها مكان للتعاون الذي يحتاجه الفرد، فإذا كان لديه عمل يحتاج لأكثر من شخص بطريقة مستعجلة، فزعوا معه وساعدوه على إنجازه، وبذلك نرى أن هذه المقاهي لها فوائد كثيرة متعدّدة، كما سبقت الإشارة إليها، وقد أدّت دوراً فعّالاً في وقتها.

□ □ □

الفصل الخامس عشر:

المأكولات اليومية

المأكولات اليومية هي ما يتناوله الناس في هذه المنطقة خلال يومهم وليلتهم وتتكون من وجبتين رئيسيتين هما الغذاء والعشـاء. أما الفطور، فيتناول ما تيسر منه وكذلك وجبة «الهجور» وهو وجبة خفيفة يتم تناولها بعد صلاة الظهر مباشرة، وتفصيل ذلك مر بنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وتتكون الوجبات الغذائية من العناصر الآتية: الحبوب، التمور، الألبان ومشتقاتها، اللحوم، الفواكه، الخضار، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فيما مضى ويهمنا الآن معرفة الوجبات المطبوخة، ويرتكز بصفة أساسية على الحبوب، سواء ما كان منها مهروساً أو مطحوناً أو مجروشاً، ومن الحبوب التي يجري هرسها عادة القمح الصلب «اللقيمي» ونوع من الشعير يسمى «السلت» لخلوه من القشور، والدخن بأنواعه، أما الحبوب التي يجري طحنها فالقمح الطري الحنطة، والشعير والذر ونوع من الدخن «لشامية» وحبوب أخرى أما الحبوب المجروشة فهي هريسة القمح الصلب والذرة والشعير، ويؤسفني أن أعين المقادير لكل طبخة من أي نوع من هذه الأنواع، وذلك لكونها آنذاك تطبخ بكميات كبيرة وبأوان واسعة يصعب معها تحديد كمية الماء والمواد، إنما يعود ذلك لخبرة المرأة من واقع تجاربها في هذا المجال، والأكلات الشعبية المشهورة في ذلك الوقت وبعضها موجود حتى الوقت الحاضر وان اختلفت التسمية لبعضها من مكان إلى آخر إنما هي تعنى نفس الشيء ومنها:

١ ــ **اَلْهَرِيْسَة**: وهي القمح المهروس النظيف الخالي من القشرة وتطبخ حباً

ويستغرق طبخها وقتاً طويلاً، قد يصل إلى ثلاث ساعات، يضاف إليها البهارات والملح والشحم أو السمن، وفصوص من البصل وقطع من اللحم وربما اللبن الحامض، أو حريسة الأقسط حتى إذا استوى بانتفاخ تلك الحبوب بعد تشربها بالماء وما يخالطه، تحرك بالمسواط وهو عصا غليظة بمقدار قبضة اليد، وبعد أن يتم سوطها حتى تتلاءم الحبوب مع بعضها وتمتزج بطعم المواد المطبوخة معها يتم غرفها، في الصواني والأوعية التي تقدم بها، ثم يضاف إلى سطحها، سمن مقلي معه شيء من الفلافل والبهارات يسمى «بروقاً» وتقدم للأكل ويفضل أكلها ساخنة، غير أنها إذا بردت فهي لذيذة ولا تفقد شيئاً من قيمتها الغذائية ومن أحسن جزء منها هي «الحكاكة» وهي قرارة القدر اللاصقة بأسفله والهريسة مادة غذائية ممتازة إذ قد تكفي الوجبة منها عن وجبتين، وهي وجبة شعبية محبوبة لدى كثير من الناس وتقدم في الغالب عشاء وربما غذاء.

٢ ـ **الْجَرِيْشَهْ**: هي من نفس القمح المهروس ويتم جرشها برحى مخصصة لذلك تسمى «المجراشة» مثل الرحى تماماً إلا أنها أخف منها بحيث تكتفي بتكسير الحب دون طحنه، وأحياناً تكون من جريشة الذرة أو من جريشة نوع من الشعير الخالي من القشور يسمى «السلت» وطبخها أخف من طبخ الهريسة إذ يستغرق وقت طبخها حوالي ساعة يضاف إليها المواد التي تضاف للهريسة، وتحتاج إلى سوط خفيف، وتقدم للأكل كما تقدم سابقتها، ويفضل أكلها ساخنة، غير أنها إذا بردت فمذاقها لذيذ ولا تفقد أي شيء من قيمتها الغذائية، وتعتبر أكلة شعبية يحبها كثير من الناس خاصة جريشة «اللقيمي» أما جريشة الذرة والشعير فلا تطبخ إلا في وقت الحاجة والعوز، وهي غذاء للطبقة الفقيرة وتقدم في الغالب عشاء وربما غذاء.

٣ ـ **اَلْهَبِيْشَهْ**: هي من الدخن المهروس سواء الدخن العادي أو «المليسا» «الحصنية» ويتم هرسها حتى تطير فشرتها ثم تطبخ بالماء مضافاً إليها الفلافل والملح والبهارات واللبن الحامض أو مريس الأقيط والشحم

أو السمن وقطع اللحم ويستغرق طبخها حوالي ساعة ومتى تشربت حبيباتها بالمواد المخلوطة مع الماء انتفخ الحب وسيطت ثم غرفت في أواني التقديم، ويدهن سطحها بالسمن المقلي مع الفلافل، وتؤكل ساخنة وكلما بردت صارت أحسن، وإذا باتت بالشتاء تصبح لذيذة المذاق وتقدم هذه الأكلة عند الحاجة وهي غذاء للطبقة الفقيرة.

٤ ــ **اَلثَّرِيْدَةُ**: والثريدة من عجينة دقيق البر، ويعمل بأقراص كبيرة ثخينة، بعدة طرق إما أن تشوي بجمر النار، أو أن تشوى على الصاج، أو تطبخ في مرق اللحم، وأفضلها ماتشوىعلى الجمر حيث تدفن داخل الجمر حتى تنضج وتحتاج إلى عناية وخبرة وانتبهاه حتى لا تحترق أو تبقى نيئة، وبعد أن تنضج تكسر إلى قطع صغيرة، ويضاف إليها السمن البري بقدر مناسب أو الزبدة الطازجة مع قطع من البصل ثم تتردد وتفرك حتى تختلط بالسمن والبصل بشكل جيد ثم تؤكل بنفس أنائها، وهي زاد للمسافر، سهلة التجهيز، قليلة التكلفة وبنفس الوقت غذاء ممتاز، ويعملها من يخرجون للرحلات والنزهات، وتعمل في البيوت، وتؤكل ساخنة وهو الأفضل، ولها قيمة غذائية جيدة، وتؤكل غذاءً وعشاءً وفطوراً.

٥ ــ **اَلْحُنْيِنِيَّة**: والحنينية هي من نفس مادة الثريدة وتعمل بنفس الطريقة غير أنه يستبدل البصل بالتمر بكمية مناسبة يساوي التمر فيها ٢٥٪ وان عدم التمر فيوضع بدله الدبس أو العسل ويختار لها التمر الفاخر أمثال الحلوة وغيرها ويدعك خبز البر السابق ذكره مع السمن البري أو الزبدة الطازجة ويفرك ويقلب حتى يصبح قريباً من العجينة ثم تقدم للأكل ساخنة ويفضل أن تكون حارة، وهي مادة غذائية متكاملة تعطي آكلها مزيداً من السعرات الحرارية وتكفي الوجبة منها عن وجبتين، وتعمل في أيام البرد الشديد لدى ذوي اليسار وبالمناسبة أرى من الأفضل ايراد ملحة تقول: في أحد الأيام الباردة طلب ابن رجل من الطبقة الغنية من أحد أترابه من الطبقة الفقيرة أن يلعب معه، فقال له الطفل الفقير أنا لا أستطيع اللعب

معك لأنني بردان وجائع وعارٍ. فقال له ابن الغني: بسيطة إدخل إلى بيتكم وكل من الحنينية وألبس جوختك وتعال نلعب سوياً!! فتنهد زميله الفقير بصوت حزين وقال: ولكن من أين لي ما ذكرت؟؟ فذهبت مثلاً سائراً في نجد يضرب للمقارنة بين أمرين متضادين. وتصلح الحنينية كذلك طعاماً في معسكرات المحاربين ولاسيما في الأيام التي تكون المرابطة مستمرة لأن الوجبة منها تكفي لمدة أربع وعشرين ساعة.

٦ ــ **الصَّبِيْب**: أو القرصان أو القرص، أو الهفتان» كل هذه المترادفات تعني شيئاً واحداً وهو رغيف من عجينة البر الرخوة مضافاً إليها الخميرة تصب على صاح خاص ويكون الرغيف على قدر الصاج، وهو شفاف رقيق حتى أنك ترى الصاج من خلاله، وتتولى المرأة عمل هذه الأرغفة، كلما نضج واحد قشعته من الصاج بطرف السكين وصيت الثاني بدله، وهكذا حتى تنتهي من الكمية التي تريدها، وتنزع الرغيف أشقر ناضجاً وهو لذيذ المذاق والنكهة عندما يكون طرياً ساخناً وتجمع هذه الأرغفة في طبق كبير. وفي نفس المكان تكون المرأة قد طبخت في الماء الذي سيبلل الصبيب به بعض الخضروات، كالقرع والباذنجان مع قطع من اللحم أو الشحم حسب المتوفر، وأعدت طبخه ثالثة من حب اللوبا المخلوط بقطع البصل ومجموعة من البهارات والأفاوية، ثم تبدأ تغط بهذا المرق رغيفين وتفرشهما في الاناء، ثم تذر فوقهما شيء من حب اللوبا وتوابعه ثم تضع طبقة ثانية من ارغفة وهكذا حتى تنتهي من كامل الكمية، ثم ترشه ببقية المرق وتتوجه ببقية اللوبا وتضع فوقه قطع اللحم، وربما الذبيحة وبعض الناس يغطي الذبيحة بأرغفة مبلولة فوق الصينية، وهذه الأكلة من الأكلات المشهورة والمحبوبة لدى كثير من الناس، ولها قيمتها الغذائية، وتعتبر من أفخر الأكلات، ولا يجيد عملها إلا السيدات ذوات الخبرة، وتقدم وجبة للغذاء والعشاء، وربما الأفطار.

٧ ــ **اَلْمَقْشُوْشْ**: يعمل المقشوش من عجينة دقيق الحنطة الرخوة قليلاً مضاف

إليها الخميرة وهو عبارة عن أرغفة صغيرة سميكة بمقدار اللقمة الواحدة، ويعمل على صاج خاص مقعر يوضع على نار الفحم وتنقط المرأة العجينة على سطح الصاج المقعر حتى يمتلىء ثم تتركه مركب على النار بينما تشد الأرغفة في الصاج ثم تقلب الصاج بحيث تكون الأرغفة في الجهة السفلى مما يلي النار، حتى تصبح تلك الأرغفة شقراء ناضجة ثم تقلب الصاج إلى أعلى لتنزعها بذباب السكين وتقشها وتضعها في ماعون بجانب النار فيه سمن أو زبدة طازجة مع السكر أو العسل أو دبس التمر، وتترك هذه الأرغفة تتشرب من هذا الخليط، وتصف دفعة ثانية وثالثة حتى تنتهي ثم تقلب هذه الأرغفة حتى تتبلغ بالسمن والسكر وتقدم ساخنة للآكلين، وهي أكلة محبوبة ومفضلة لدى كثير من الناس ولا تتوفر إلا عند ذوي اليسار والثروة وأكثر ما تقدم كطعام للأفطار وربما العشاء وفطوراً للضيوف الوافدين وهي وجبة غذائية ممتازة.

٨ ــ **الرَّغَيِّفَاتْ**: أو «النديلات» وهي تصغير رغيف من عجينة طحين البر الرخوة مضافاً إليها الخميرة وهي بنفس حجم أرغفة «المقشوش» غير أنها يختلف صفها عن سابقتها، بحيث توضع على صاج مدبب قليلاً وتصب على ظهر الصاج المركب على نار الحطب وهي أسرع صفاً من سابقتها وتصب واحداً واحداً ومتى نضج الوجه اللاصق على الصاج يتم قشعه ويقلب على الوجه الآخر حتى ينضج ثم ينزع ويوضع في اناء بقرب النار حتى لا يبرد، ثم يضاف إليها السمن البري أو الزبدة الطازجة مع قطع البصل ويُقَلِّب فيه حتى يبلغ بالسمن ويقدم للأكل، كوجبه أفطار وربما عشاء وهو وجبة دسمة ممتازة.

٩ ــ **اَلْمَرَاصِيْعِ**: «أرغفة القلابة» وهي راغفة من عجينة دقيق البر ويفضل أن يضاف إليها الخميرة وتعمل على ظهر الصاج بحجم أكبر من سابقتها بحيث يكون قطر الرغيف من ٥ ــ ١٠ سم وبسماكة حوالي سنتمر وتصب المرأة العجينة الرخوة على الصاج الحامي رغيفاً بجانب الآخر

وتتركها فترة على الصاج ومتى نضجت جهتها السفلى قشعتها المرأة وقلبها على الجهة الثانية حتى تنضج ثم تجمع في وعاء وتقطع إلى قطع صغيرة وبعضهم يضيف اليها السمن البري أو الزبدة الطازجة والبصل المقطع أو الكمأة في وقتها وفي حالة اضافة المأة فيكتفي بها مع السمن أو الزبدة بدون بصل، والبعض الآخر يعمل لهذه الأرغفة مرقاً ممزوجاً بالفلافل والبهارات والبصل المقطع والسمن يسمى «المواصة» يصب هذا المرق على الأرغفة المقطعة فيصبح وجبة لذيذة، ذات مادة غذائية جيدة، وتقدم كغذاء وخاصة في مواسم العمل لمستمر وبالذات تكثر في موسم تصفية زرع الشتاء وتسمى «مراصيع الصايرة».

١٠ ـ **المَرْقُوْقْ**: وهو من عجينة دقيق القمح القاسية وتقطع إلى قطع متساوية تسمى «تمثالة» ثم تفرد وترق بطريقتين إحداهما تفرد على سطح صلب ويفرش تحتها شيء من الطحين حتى لا تلصق على السطح وتغطى بالطحين أيضاً حتى لا تلتصق بالعود ثم تفرد بعود من الخشب يسمى «المرقاق» حتى تصبح رقيقة جداً، وإذا القدر قد وضع فيه قطع من اللحم والسمن والفلافل والبهارات والخضار المقطعة كالقرع والباذنجان وحب اللوبا وما يماثلها والكمأة في موسمها ثم تؤخذ الرقاقة وتفرش على سطح الماء الفائر ثم تمزق مزقاً لتغوص في الماء وتطبخ بينما المرأة تجهز الرقاقة الثانية وهكذا.

أما الطريقة الثانية فهي أن تفرد المرأة قطعة العجين بكفيها وتقلبها على ذراعيها وتمددها حتى تصبح رقيقة وتضعها بالقدر المشار إليه، لكن الطريقة الأولى تعتبر أسهل، وأرهف رقاقاً وبعد أن يطبخ بالقدر حتى ينضج، يكون قد شرب جزء من الماء وتبخر الجزء الآخر وبقي فيه شيء من المرق للارتشاف، وربما لا يبقى إلا ما يكفي لطراوة المرقوق، وبعد أن ينضج بغزف إما بصينية أو صحن ويقدم كوجبة عشاء في الغالب وهو وجبة غذائية جيدة وربما أضيف إلى المرقوق كمية قليلة من الجريش

أو الأزر أو التمن وفي هذه الحالة يسمى «مرقوقاً مثقلاً» وهناك نوع شبيه بالمرقوق يسمى «مردوداً» وهو من نفس مواد وطريقة المرقوق غير أن رقائقه تعمل بطريقة ثانية وهي وضعها على الصاج بشكل أرغفة الصبيب حتى تنضج وبعد أن تجف قليلاً، تكسر وتطبخ بنفس طريقة المرقوق، فيصبح له نكهة وطعم ممتاز قد تفوق طعم المرقوق.

١١ ــ **الَمطَازِيْزَ**: و«المطازيز أو القريصات» هي شيء واحد وتعمل من عجينة دقيق القمح ويفضل أن تضاف إليها الخميرة وتقطع إلى قطع صغيرة بمقدار حجم البيضة ثم تفرد بين أصابع اليد، وأحياناً يفرد قطع كبير وترق كطريقة عمل الرقاق ثم تقطع بحافة دائرية كفوهة علبة من العلب الصغيرة، ويكون القدر يغلي بالماء ومحتوياته من قطع اللحم، والكمأة والسمن وقطع الخضار كالقرع والباذنجان، وحب اللوبا، والبهارات، والفلافل، ثم يرمى بهذه الأقراص واحدة واحدة، حتى تنتهي الكمية ثم تترك تطبخ حتى تنضج، ثم تغرف في اناء أو صينية، وتقدم كوجبة عشاء في الغالب أو غذاء وهو وجبة مفضلة لدى كثير من الناس ذات قيمة غذائية جيدة. والواقع أنني أذكر دائمًا عجينة دقيق القمح في هذه الوجبات على أساس أنه الأصل وهو الأفضل ويقول المثل الشعبي «الحنطة مسامير الركب» غير أنه في بعض الأحيان تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فيخلط حب الحنطة بالشعير أو غيره من الحبوب بما يسمى «بغيثاً» ويطحن وتعمل منه الوجبات المشار إليها غير أنها تكون أقل جودة من الحنطة الصافية.

١٢ ــ **عَصِيْدَةُ**: وتعمل العصيدة من طحين القمح أو الذرة أو نوع من الدخن تسمى «الشامية» وتجهز المرأة للعصيدة الماء المغلي بالقدر ويحتوي الماء على السمن وقطع البصل وأحياناً قطع من الخضار كالقرع والباذنجان بالاضافة إلى الفلافل والتوابل ثم يذر الطحين في الماء الفائر وتحركه بعود خشبي يسمى «المسواط» وتستمر حتى تنتهي كملة الدقيق وعندها تصبح

غليظة تتركها تغلي حتى تنضج ثم تغرف في اناء وصينية، وتترك لتبرد قليلاً ويدهن سطحها بالسمن البري أو الزبدة والعسل أو الدبس ويوضع في وسطها سمن أو خليط من السمن والدبس وربما في اللبن وربما وضعوا «جورة» في وسطها بحيث يأخذ الآكل اللقمة ويغمسها في «الادم» ويأكلها وهي لذيذة الطعم محبوبة لدى بعض الناس، وأكثر ما تقدم للأفطار وخاصة في فصل الشتاء، ولها قيمة غذائية جيدة، وهي سهلة التجهيز، ولا يلجأ اليها لوجبة العشاء أو الغذاء إلا في أوقات الشدة والحاجة، وفي هذه الحالة قد تصبح الغذاء الرئيسي للطبقة الفقيرة، وهناك نوع من العصيدة أخف منها ولا يوضع لها أدام تسمى «المويسة» وهي قريبة من شربة العدس، وترتشف ارتشافاً، أو تلحس لحساً.

١٣ ـ **الأرز**: والأرز لم يتوفر كما هو عليه الآن إلا في الآونة الأخيرة غير أن الموجود قبل ذلك هو «التمن» وهو الرز العراقي بأنواعه «العنبر، الخضيراوي، المهبَّشْ، الأحمر» وطريقة طبخه سهلة وذلك بوضع مستلزمات الطبخ من قطع اللحم والخضار المقطع، والبصل والسمن والفلافل والبهارات، وينظف من القشور والشوائب وذلك «بهرسه قليلاً ثم تنقيته ويغسل قليلاً ثم يسكب في القدر الفائر ويسقى بالماء الحار أو مرق اللحم شيئاً فشيئاً حتى ينضج ثم يغرف بالصحون أو الصواني ويوضع فوقه اللحم وربما الذبيحة ثم يقدم للأكل ويفضل تقديمه للضيوف، كما أشار إليه الشاعر.

٢٩٣ ـ يذبح لهم من كل كبش مُقَرنٌ
وعيش العراقي بالصحون افراش[1]

(راشد الخلاوي)

وهو مادة غذائية جيدة، وفاخرة.

---

(١) راشد الخلاوي، ص ٣٠٩.

١٤ ــ **الْكُلَيْجَا**: هي نوع من الفطائر اللذيذة وتعمل من جريش القمح الناعم أو الطحين الخشن مضافاً اليها بعض البهارات، وتبس بالسمن البري مع السكر أو العسل أو الدبس ثم يضاف إليها قليل من الماء حتى تصبح عجينة صلبة ثم تقطع بقوالب معينة وتوضع هذه القطع على نار جمر خفيفة حتى تستوي من الجهتين، وتوضع طرية جيدة المذاق وتؤكل في وجبات خفيفة، ولا تتوفر إلا لدى الطبقة الغنية وتتخذ زاداً للمسافرين والحجاج لأنها جاهزة للأكل في أي وقت وهي مادة غذائية جيدة.

١٥ ــ **الشَّعْثَاء**: هي نوع من الفطائر اللذيذة وهي عبارة عن خليط من الأقط «البقل» المجروش بنسبة ٢ ــ ٣ ومعها تمر معبوك خال من النوى بنسبة ١ ــ ٣ ثم يخلطان معاً ويضاف إليهما قليل من السمن البري وبعض الأفاوية التي تعطيها نكهة جيدة ومتى أصبحت عجينة غليظة قطعت بقالب معين ونشرت في الظل حتى تجف قليلاً وهي وجبة طيبة تتخذ زاداً للمسافرين والحجاج وتؤكل كوجبة إضافية خفيفة مثلها مثل سابقتها تتوفر لدى الطبقة الغنية.

١٦ ــ **البَسِيْسَةُ**: هي عبارة عن دقيق حب الشعير المحموس، وعادة يقطفون سنابل الشعير المستوية ثم يخرطون تلك السنابل وهي رطبة وتحمس في صاج كبير وبعد الحمس تنشف ثم تطحن بالرحى وينخل الصحين ثم يكون هناك مريسة من التمر مع قليل من السمن يضاف إليها الدقيق وتبس فيها فتصبح حلوة المذاق طيبة النكهة فاخرة الرائحة وهي أكلة شعبية موسمية في وقت الحصاد من كل عام.

١٧ ــ **اللحوم**: واللحوم المتوفرة آنذاك هي لحوم الغنم، والإبل والبقر، والماعز، والغزلان، والوعول، والأرانب البرية والضبان، والطيور المحلية والبرية الوافدة، ونظراً لعدم وجود الوسائل التي يحفظ بها اللحم

لمدة معينة فيضطر الناس إلى طبخ اللحوم في يومها أو اليوم الذي يليه في الفصول الباردة والمعتدلة لذلك نجد البعض إذا توفرت عنده كمية من اللحم لا يستطيع أكلها يلجأ إلى تشريحها إلى سيور ويغمرها أو يخلطها بالملح ثم ينشفها بالظل وتسمى قديداً أو شريحاً أو وشيـقاً أو «قُفْراً» ويمكن الاحتفاظ بهذا اللحم مدة طويلة يطبخ بعدها ولا يفقد كثيراً من قيمته الغذائية وهو لذيذ الطعم طيب النكهة إذا أجيد بالملح ويطبخ مع أي نوع من الطعام ويفضل أن يكون مع المرقوق أو «المطازيز» أما الشحوم فيجري اذابتها و«خلعها» واخراج الودك منها الذي يتخذ قفراً بمثابة السمن في سني الشدة وكذلك يتخذ هنا للجلود ومثاله «الخليع» يوضع قليل منه مع الطعام ويؤكل، وهناك فئة في جزء من هذه البقعة تخزن شيئاً من الشحم في كرش الشاة بعد تنظيفها جيداً ثم تُسَدُّ منافذها بأحكام جيد وتعلق بالسقف حتى يذوب الشحم بداخلها بفعل العوامل الجوية ويتآكل مع بعضه البعض ليصبح بعد ذلك مركزاً بدرجة كبيرة له رائحة نفاذة يسمى «المحزر» ويكفي النزر اليسير منه للوجبة الواحدة، وأكثر ما يستعمل مع الجريشة والعصيدة وهو مفضل عند كثير من سكان الجزء المشار إليه.

١٨ ــ **السَّمْح، والدَّعَاعْ، والفِوَيْغِـرَهْ**: تلك أنواع من حبوب الأعشاب التي تنبت بالربيع ويحبها الناس، وقد جرت الاشارة إليها في الفقرة السادسة من الفصل الثالث من هذا الكتاب، ويهمنا الآن الوجبات التي تتخذ من هذه الحبوب وتقتصر على نوعين:

(أ) الأرغفة بمختلف أحجامها.
(ب) العصيدة.

وأرغفة الدعام وعصيدته تعمل بنفس طريقة مثيلاتها من القمح السابق ذكرها وهذه الأرغفة سمراء داكنة غير أنها في وقت الحاجة يجعلها الجوع لذيذة، أما السمح والفريغرة فأرغفتهما وعصيدتهما على نفس

المنوال إلا أن لونها بني وألذ طعمًا من الدعاع بحكم الحاجة كفانا الله شر وقعها وقد عاشت على هذه الحبوب مجموعات من الناس ردحاً من الزمن لا أعاده الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

١٩ ـ **الأعشاب «البروق، الحنبازى، الحماض، الحمصيص»**: وغيرها وقد سبقت الإشارة إليها في الفقرة السادسة من الفصل الثالث من هذا الكتاب ويهمنا الآن الوجبة التي تقدم منها يلجأ الناس في سني الجوع أعاذنا الله منها ومن عودتها وابعادها عنا وأتم علينا نعمته انه سميع مجيب، إلى جنى هذه الأعشاب، وتقطيع فصوص الحنباز أو الأعشاب الأخرى بكاملها ثم تجري طبخها قليلاً وخلطها بشيء قليل من الجريش أو الطحين وربما وحدها مع بعض البهارات والفلافل والملح وتغرف في اناء يأكله الناس وجبة عشاء في الغالب أو غذاء أحياناً ليسدوا به رمقهم مع أن قيمته الغذائية لا تذكر، غير أنهم عاشوا عليه شهوراً في سني المسغبة، كذلك أكل الناس نوى التمر المحروق أعاذنا الله من تلك الأوقات العصيبة.

□ □ □

الفصل السادس عشر:

المشروبات

□ القهوة العربية:

القهوة من المشروبات الرئيسية، التي تتمتع بمكانة مرموقة في هذا الجزء، منذ ما ينوف على ثلاثة قرون تقريباً، وقد بقيت منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر مقياساً من مقاييس الرجولة، ومعياراً من معايير الكرم، وأصبح الرجل المرموق بين قومه من يتمتع بعدة خصال منها ما يقدمه من القهوة لقاصديه كما أصبحت أحد الخلال التي يفتخر بها الرجال، ويكنى البعض بأن دلالة لا تبرد، أو «نجره» لا يسكت، أو قهوته والمكان، لا يخلو من القاصدين، وأصبح الرجال البارزين يضعون فثال القهوة بعد طبخها في كومة أمام المجلس وذلك في بيوت الشعر، أو عند باب غرفة القهوة كنوع من الافتخار في إبراز ما تم حمسه وطبخه من القهوة العربية، وعندما سئلت فتاة عن رأسمال أبيها المدفون تحت الأرض قادتهم إلى كومة من قثال القهوة عند الباب قائلة: «هذا رأسمال أبي!!»[1] تقول ذلك وهي رافعة الرأس مفتخرة بهذا الرسمال الذي لم يدفن بالأرض وإنما قدمه أبوها الكريم لضيوفه وقاصديه والقهوة مشروب الرجال الرئيسي ولها عدة أسماء منها «الكيف» و«المعنى» و«الفنجال» و«مؤنسة» و«الطبخة» وغير ذلك وتحتل القهوة البرية اليمنية درجة عالية من المكانة بين

(١) الفتاة هي مليحة بنت ناصر اللحيدان بالوسيطا حائل جرى ذلك عام ١٣٣٢ هـ.

الأنواع الأخرى وهي مؤنسة الرجال في المجال وسميرتهم في الأمسيات، يتسلى الرجال بعملها وكأن لسان حال أحدهم يقول:

٢٩٤ ــ ليا ضاق صدري قمت أحوف المعاميل
وازين الفنجال بكر ولا اثنيه

(. . . . .)

يقصدها من كثرت همومه لتشاركه في التنفيس عما في أعماقه وليبوح لها ببعض ما يجيش بصدره، وليرتشف منها ما يحس بأنه البلسم الشافي لمعاناته وكأن لسان حاله يقول:

٢٩٥ ــ مزيت من بكره ثلاثة فناجيل
وكيس الشقيري فاتحين مصرة

(خضري الصعليك)

وقد تغنى الشعراء بهذه الحبوب الخضراء الضارية للصفرة والتي تلبسها النار حلة شقراء ذهبية، وتضفي عليها وشاحاً أسمرا ليصبح لونها بين الشقرة والسمرة، يطفو عليها من حباب عرقها الفواح ما يزيدها لمعاناً، ويكللها رونقاً متراقصاً جذاباً. ويصعب حصر القصائد التي قيلت في القهوة لكن نورد مثالاً على ذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر:

٢٩٦ ــ دنيت محماسي وكفى خذاميل
بريه من سوق صنعا مقره

٢٩٧ ــ يا ما حلا صبه برقط الفناجيل
دولابه دلة بسلكه تجره

(خضيري الصعليك)

وتعمل القهوة بنفس المقهى، كما سبقت الاشارة إلى ذلك آنفاً ونرى الشاعر يوصي من يتولى حمس القهوة ودقها وتجهيزها في قصيدة طويلة نورد منها هذه الأبيات المليئة بالصور الحية الناطقة بأوصاف القهوة وكيفية صنعها إذ يقول:

٢٩٨ ـ دنيت لي من غـالي البـن مـالاق
بـالكف نـاقيهـا عن العـذف منسـوق[1]

٢٩٩ ـ احمس ثلاث يا نـديمي على سـاق
ريحه على جمر الفضى يفضح السـوق

٣٠٠ ـ ايـاك والنيـة وبـالـك والاحـراق
واصحـا تصير بحمسـة البن مطفـوق

٣٠١ ـ ليا اصفر لونه ثم ابشت بالاعراق
صفرا كما اليـاقوت يـطرب لها المـوق

٣٠٢ ـ وعـطت بريـح فاضـح فاخـر فـاق
ريحـه كـما العنبـر بـالأنفـاس منشـوق

٣٠٣ ـ دقـه ينجـر بسمعـه كـل مشتـاق
راع الهـوى يـطرب ليـادق بخفـوق

(محمد العبد الله القاضي)

ويرغب الشاعر الثاني في أن يكون من يعمل القهوة من المرحين الذين يداعبون مشاعر من حولهم بالمزاح والملح والنكات أثناء عملهم للقهوة إذ يقول:

٣٠٤ ـ ليا صرت للطبخة بالايمـان قضاب
فـاعـزم وزم وكب عنـك التحـاسيب

(١) أشعار النبط، ص ١٣٢.

٣٠٥ ـ خله يسويها من الربع عجاب
وخله يزين حمسته بالتعاجيب

٣٠٦ ـ كبه ليا من العرق فوقها ذاب
كالورد من فوق الزمرد ليا ذيب

٣٠٧ ـ النجر عقبه تقل مدلوك بخضاب
حنا صبغ بكفوف زين الرعابيب

(ابراهيم البخناني)

وبحث الشاعر الآخر على شبة النار والاسراع بعمل القهوة للضيوف الوافدين وقاصدي مكان القهوة لارتشافها حيث يقول:

٣٠٨ ـ يا كليب شب النار يا كليب شبه
عليك شبه والحطب لك ايجابي

٣٠٩ ـ وعلي أنا يا كليب هيله وحبه
وعليك تفليط الدلال العذابي

(دغيم الظلماوي)

وقال الآخر:

٣١٠ ـ قم سو فنجال من البن مقصور
أوجد ابهار الهيل حتى يزينا

٣١١ ـ واحرص على لاشف ما قبل مدمور
ولا يقال بحمسته مخملينا

٣٢٢ ـ ليا صار صاف ماه والتول منثور
ومنزهات عن دنس كل شينا

٣٢٣ ـ فنجا لهن بالكاس ما ذم بهجور
الله يقوينا عليهن سنينا

٣٢٤ ـ وليا انقطع من مذلقه تقل حيمور
أو دم جوف لا نقطع من وتينا

(سلطان عبد الله الجلعود)

ويوصي الشاعر الثاني بشبة النار في وقت الأصيل ليهتدي إلى نارها الضيوف القادمين من أماكن بعيدة أو قاصدي المقاهي من المقيمين حيث يقول:

٣٢٥ ـ يا علي شب النار يا علي شبه
ليا مال فَيَ امشمرخات الهضابي

٣٢٦ ـ وادغث لها يا علي من جزل خبه
وقلط لها اللي مثل لون الغرابي

٢٣٧ ـ حنكية ما تنجلي لو نربه
بلغودها تلقى سنا النار هابي

(علي القبالي)

ويصر الآخر على تجهيز القهوة بصفة دائمة حيث يقول:

٣٢٨ ـ بمنومس لقم على بكر صافي
عليه من شغل ابن سكران توليف

٣٢٩ ـ وأحمس ولقم بالعجل يالسنافي
بشامية طرف لها الجمر تطريف

---

(١) الأزهار النادية، ج ٣ ص ٩٢ ـ ٩٣.

٣٣٠ ـ حماسها قرم من الغوش شافي
دايم بقلبها حريص على الكيف

٣٣١ ـ وزله وصفه عن سريب المصافي
من خوفة أحد قال بالكيف يا حيف

٣٣٢ ـ وابهارها من يمة الهند لافي
في مركب يقداه زجر العواصيف

٣٣٣ ـ فنجالها لاشف بين الأشافي
ليا تقل يجذب من شفا شاربه شيف

(زيد الخشيم)

وهي شراب الكيف الذي يستأنس بقربه الرجال، ومع تناوله يقضون أطيب الأوقات مع الأقارب والرفاق والأصدقاء كما أشار إليه الشاعر بقوله:

٣٣٤ ـ الله على الفنجان مع سيحة البال
في مجلس مابه نفوس ثقيله

٣٣٥ ـ هذا ولدعم وهذا ولد خال
وهذا رفيق ما ندور بديله

(راكان بن حثلين)

كما يشتاق إليها من تعود لشربها، وخاصة وقت القيلولة أو في الصباح الباكر، أو في المساء كما أشار إليه الشاعر بقوله:

٣٣٦ ـ الله على الفنجال لاجا محله
بدلال خطو الغشمري حومة الطير

٣٣٧ ـ يـوقـد بجـرم مـا يـوقـد بجله
والـزعفـران أبهـارهـا خـالـطة هيـل

(سودان بن سعِّيد الشمري)

ويبذل الرجال المال الكثير في سبيل توفير القهوة لشاربيها، وتصب القهوة لعلية القوم، الشجعان الكرماء، ومن لهم مكانتهم وذلك في المقام الأول ثم تدار على بقية الجالسين كما أشار إلى ذلك الشاعر:

٣٣٨ ـ صُبَّـه لمن يـثني خـلاف المـقـافي
يـوم الفـرنـج يقـذف الملح تقـذيف

٣٣٩ ـ الـلي ليـا غليت شـراهـا جـزافي
مـار طله عنـد الـدلاليـل بنصيف

٣٤٠ ـ ونفـل بهـا الـلي بـالمـروات وافي
مـا دور التجـرات بـه والمصـاريف

(زيد الخشيم)

ولا يبالي الرجل فيما يخسره من المال في سبيل تأمين القهوة حتى ولو غليت قيمتها، ما دام هؤلاء الكرماء موجودين فسوف يشترونها بأي ثمن وقد يستوعبون جميع المعروض بالسوق منها وقد أشار إلى ذلك الشاعر في قوله:

٣٤١ ـ ما راخص من مَيْ صنعـا بضاعـة
وابن الحيـدان عـلى جـاهـد القـاع

٣٤٢ ـ مـا نفـدت يمنـاه من البن سـاعـة
يكفي شهـر للزوم ثـلاث الأصبـاع

(خضيري الصعليك)

وكما أشرنا فهي مؤنسة الرجال كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

٣٤٣ ـ ليا ضاق صدري جبت نجر ومحماس
وادلال بيض غالي مشتراها[1]

٣٤٤ ـ قم سَوَّ فنجال على خمسة أجناس
إحذر تجي حرقه وبالك نياها

٣٤٥ ـ خلك لها عن كل عذر وب حساس
قيس لها الطبخة على قدماها

٣٤٦ ـ حتى يجي فنجالها يجلى الأعماس
عقب الصلف والسهر ما اكبر غلاها

٣٤٧ ـ خصص مشاكيل على النار جلاس
حبوس الرجال اللي بعيد مداها

(مشاري بن ربيعان الروقي)

وتجلو القهوة صدأ النفوس وتصقلها وتلمعها كما تبين ذلك مما يلي:

٣٤٨ ـ يجلي صدا قلبي ضبيح المهاريس
لا قام شرَّاب القهاوي يعومي

٣٤٩ ـ بادلال فوق النار دايم مجاليس
اكرامهن حق علينا لزومي

(تركي بن حميد)

وأحياناً تعدم هذه السلعة المحبوبة أو تقل من الأسواق ومع الحاجة يلجأ البعض إلى طبخ القهوة أربع مرات في الطبخة الواحدة فالمرة الأولى تسمى

(١) أشعارنا الشعبية، ص ١٨٤.

«بِكْر» وهي أفضلها ثم يضاف إليها الماء وتطبخ ثانية وتسمى «ثَنْوَةْ» ثم يضاف إليها الماء وتغلى للمرة الثالثة وتسمى «عَشْرَةْ»، ثم يضاف إليها الماء وتطبخ للمرة الرابعة وتسمى «تَنْخِيرَةْ»، وخلاصة القول أن القهوة من المشروبات الشعبية ذات الأهمية الكبيرة منذ القدم وحتى الوقت الحاضر لا يخلو بيت في نجد من القهوة وأوانيها وتقدم للضيوف والقاصدين في أي وقت من الأوقات.

□ الشاهي:

الشاي هو أحد المشروبات الشعبية الرئيسية التي انتشرت في هذه البقعة في الآونة الأخيرة حيث لا يتجاوز عمره بضع عشرات من السنين وكان في البداية مخصصاً للنساء إلا أن الرجال استساغوه وأصبحوا يتناولونه إلى جانب القهوة، لكنه أقل شأناً منها وأدنى مكانة ولم ينتشر بدرجة إلا مؤخراً، ويتكون من ورق الشاي الأخضر والمحمص مع السكر بمقادير معينة، ويفضله كثير من الناس خفيفاً ويضاف إليه أحياناً النعناع، والحبق، والزنجبيل والزعفران حسب حالة المناخ ويعمل بأباريق من الصاج المدهون أو المعدن أو الصيني أو البلاتين، ويسكب ويدار بكؤوس مختلفة الأشكال والأحجام، ويشرب في أغلب الأوقات.

□ حليب الإبل:

حليب الإبل هو أحد المشروبات الغذائية التي يتوق الكثير من الناس إلى شربه ويتمنى البعض منهم لو تكون وجباتهم الرئيسية من حليب الابل، وخاصة البكار الصغيرة التي يعتبر حليبها مادة غذائية متكاملة يعيش عليها الناس، ويمتاز الشخص المداوم على شرب حليب الابل بصحة الجسم والنشاط والقوة وخفة الحركة خاصة إذا كان الحليب ساخناً من ضرع الناقة به مادة صحية جيدة تقضي على كثير من الأمراض والجراثيم في الجهاز الهضمي، ومن امتلأت أضلاعه من حليب الابل لا يزال يحن إلى التضلع منه مرة بعد أخرى، ورعاة الابل يعيشون عليه ولا يتناولون غيره لعدة شهور، وعندما يفد على راعي الإبل

ضيف فإنه يحلب له إحدى النياق ويسقيه من حليبها الطازج برغوته الواقفة قدر شبر فوق الاناء كضيافة له، والإبل سخية بحليبها الكثير اللذيذ وقد وصف أحد الشعراء ريق حبيبته بحليب النوق حيث يقول:

٣٢٠ ـ ريق الحبيب حليب النوق
من مشة الزور لا جاني

(.....)

وإذا وجد حليب الإبل يفضله الكثيرون على الألبان الأخرى وبالطبع فالحليب لا يتوفر بدرجة كافية إلا في مضارب البادية عند أهل الابل، أما ما عداهم فيعتبر عندهم قليلاً ويتفكهون بوجوده وكلما كان الحليب ساخناً كان أفضل، ومتى برد أو راب قلت قيمته ورغبة الشاربين فيه، وقد تغنى به الشعراء وتطمعوا في مذاقه من خلال قصائدهم كقول أحدهم:

٢٥٠ ـ والذ من در المباكير بالشتاء
لباحث من بعض الرياض تحاش[1]

(راشد الخلاوي)

وأشار الشاعر الثاني بقصيدة منها قوله:

٣٥١ ـ حلو حديثه كن ذوب العسل فيه
والايشادي در عرب مباهيل

(شامان العصيمي)

كما أشار الثالث بتقديم الحليب للضيوف بقوله:

٣٥٢ ـ ترعى بها واضحا من الذود معطار
غبوقة الخطار عجل عطيفه[1]

(مقحم الصقري)

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ١٧٦.

□ لبن المخيض:

ويعتبر اللبن غذاء رئيسياً متكاملاً يفي باحتياج قطاع كبير من السكان لفصل الربيع. وقطاع العرب الرحل يكتفون به غذاء لهم طيلة فصل الربيع، وقد يتناولون معه شيئاً من التمر، أما بعض الحضر فإذا توفر اللبن مع التمر فإنهم يفضلونه على أي نوع من أنواع الأغذية الأخرى، واللبن يحلب من الغنم والماعز بدرجة رئيسية ثم البقر بدرجة ثانية أما الابل فيشرب لبنها حليباً كما أسلفنا ويجمع الحليب في أوعية كبيرة تسمى «المِروَبْ» حتى يروب ومتى راب يمخض بوعاء يسمى «الصميل» وقد جرت الإشارة إلى ذلك في موضوع آخر من هذا الكتاب، وبعد ذلك تعزل منه الزبدة ويصبح اللبن جاهزاً للشرب، ولا يكاد ينقطع العرب الرحل من اللبن وخاصة في فصل الربيع إلا في فترة قصيرة من أيام الصيف، ومتى حل فصل الشتاء، وبدءوا بشرب اللبن ظهرت آثار ذلك على وجوههم، وانصرفوا عن أكل أي طعام سواه، أما الحضر فيعتبرونه مادة غذائية مكملة للتمر أو الأطعمة الأخرى، وبصفة عامة فإن اللبن الطازج قبل أن يصبح حامضاً شراب شعبي ممتاز، يشربه الناس في الصباح ويسمى «صَبُوْحاً» ويشرب في المساء ويسمى «غَبُوْقاً» وبالمناسبة فهناك قصة يقول موجزها: إن هناك ابنة أحد أمراء القبائل اسمها «ليلى» ولها خطيب اسمه «جَرِيْ» يعيش بنفس النزل التي تقيم فيه، ويؤتى لها بصبوحها وغبوقها من أجود اللبن وألذه فتبقيه عندها حتى ينصرف من أتى به ثم ترسله إلى خطيبها مع خادمتها فجاء الخادم الذي يحضر اللبن اليومي فسألته الخادمة عما معه فقال: «صبوح ليلى» فقالت: «الإسْمُ لِلَيْلَى والصَّبُوْحُ لِجَرِيْ» فذهب قولها مثلاً سائراً في نجد حتى الوقت الحاضر.

واللبن العادي هو الطبيعي بدون خلطه بالماء، فإذا مزج بالماء يسمى «شنينة» ويضاف إلى اللبن حينما يكون قليلاً والشاربون كُثرُ، فعند ذلك تتوفر الكمية اللازمة لتغطية الاحتياج، وبعض القبائل اعتادت أن تمزج اللبن بالماء، واللبن في أول الربيع يكون ممتازاً تظهر فيه حلاوة طبيعية أما إذا انصرف فصل الربيع وتغيرت حرارة الجو فإن اللبن يصبح حامضاً في الغالب إلا بعد مخضه

مباشرة، أما البان الأبقار فتستمر على مدار السنة إذا توفرت لها الأعلاف اللازمة، وتوجد الأبقار عند الحضر أما البادية فلا يعتنون بها وتعتبر ألبانها غذاء مكملاً في هذه البيئة ولا يستغنى عنه كثير من الناس.

أما الحليب فإنه يفضل من حليب الماعز حيث يغلي قليلاً ومتى فار أضيف إليه شيء من السكر ليصبح ذا مذاق ممتاز ونكهة منعشة، ويتم تناوله مع الأفطار، وربما يكفي يعن وجبة الفطور، ويضاف إليه أحياناً بدلاً من السكر قليل من الملح وأحياناً أخرى يضاف إليه قليل من الزنجبيل والفلفل الأسود، أو الزعفران حسب أمزجة شاربيه. وهناك نوع آخر من الشراب من مشتقات الألبان هو «الـمَرِيْسَةُ» وهي عبارة عن مرس كمية من الأقط «البقل» وهو اللبن المجفف الذي سبقت الاشارة إليه من وضـع هذا الأقط بالماء لفترة وجيزة ثم يبدأ فركه ومرسه وتحريكه بأيد نظيفة حتى يصبح مزيجاً من الشراب الأبيض الضارب إلى الصفرة شبيهاً باللبن لذيذ المذاق يحتوي على قليل من الحموضة، فأحياناً يضاف إليه قليل من الملح، وأحياناً أخرى يمرس معه قليل من التمر أو السكر ليصبح بعد ذلك مريساً محلي يفضله كثير من الناس ويستعمل المريس عندما يقل اللبن الطازج وأكثر ما يستعمل في فصلي الصيف والخريف لاسيما عندما يتوفر الرطب.

□ □ □

الفصل السابع عشر:

الصيـــد

□ صيد الظباء، والوعول، والمها، وحمر الوحش:

الصيد من الهوايات العريقة التي يتمتّع بها العربي بصفة عامة، وأهل هذه البقعة بصفة خاصة، ويمارس هواية الصيد عدد كبير من الناس كلّ حسب مستواه، لغرض الاستفادة من لحومه، والنزهـة، والتسلية، وقضـاء أطيب الأوقات بممارسة هذه الهواية المحبّبة إلى نفوسهم، ويتحمّلون المشاق والمتاعب في هذا السبيل بكل متعة وسرور، ومنذ الأحقاب البعيدة من السنين والعربي يشبع غريزته بممارسة هذه الهواية، وعندما نطلّ على حامل لواء الشعر العربي وأميره امرىء القيس بن حجر نجده على ظهر جواده يترنّم بهذه الأبيات:

وقـد اغتـدى والـطير في وكنـاتهـا
بمـنجـرد قـيـد الأوابد هـيـكـل[1]

فعـادي عـداء بـين ثـور ونعجـة
دراكـا ولم ينضـج بمـاء فـيغسـل

فـظلّ طهـاة الحي مـا بـين منضـج
صفيف شـواء أو قـديـد معجـل
(أمرؤ القيس)

---

(١) ديوان امرؤ القيس ١٥٦.

ويصف أنواع الصيد الذي يعود به إلى الحي بقوله:

إذا مـا ركبنـا قـال ولـدان أهلنـا
تعـالـوا إلى أن يـأتي الصيـد نحـطب[1]

فـيـومـاً عـلى سـرب نقى جلوده
ويـومـاً عـلى بيـدانـة أم تـولب

فـآنست سـربـاً من بعيـد كـأنـه
رواهـب عـيـد في مـلاء مـهـذب
(أمرؤ القيس)

ويتم الصيد آنذاك بطرده على ظهور الخيل، وعند الاقتراب منه يتمّ رميه بالرمح أو النبال وعمل الشرك والكمائن له، ثم الإلمام بالصيد من كل جانب، وعمل المعوقات، كالحبال الطويلة التي يمسكها اثنان من الصيادين ويختفون بالكمين، بينما الثالث يُنَفِّر أو يحد عليهم فرق الظباء أو ألمها أو حمر الوحش، وربما الوعول، وكان الصيد متوفّراً بأعداد كبيرة في ذلك الوقت، نظراً للخصب المتواصل الذي تتمتّع به المنطقة ولعدم وصول الإنسان إلى بعض البقع الغدراء منها والتي يلجأ إليها الصيد عندما يضايقه الصيّادون، كما أن السلاح الذي يتمّ الصيد به سلاح بدائي لا ينال البعيد منه، وبالتالي لا يقضي على الأعداد الهائلة من الصيد، كما أن الإنسان بطبيعته في ذلك الوقت قنوع بما يصيده لقوت يومه فقط، أو لممارسة هوايته وربما اكتفى بصيدة واحدة ويترك الباقي من الفريق ليذهب إلى البرية، علمًا بأن باستطاعته أن يصيد أكثر من ذلك، لكن حبّه لبقاء هذا الصيد وعدم إفنائه جعله يكتفي بواحدة أو اثنتين كما أن تنوّع الصيد يعطي الصياد حرية تشكيل الصيد من الحيوانات بأنواعها، والطيور بأشكالها المختلفة، كما أن للقطع المحمية من قِبَل السلطة الحاكمة والتي يتوفّر فيها أعداد كثيرة من الصيد مكان يلوذ به، وقد شاهدت ذلك بنفسي عندما كنت صغيراً.

---

(١) ديوان امرؤ القيس ٥٤.

ومما سبق يتّضح لنا أن عدة عوامل قد تضافرت مسبّبة توفّر الصيد وقد سبقت الإشارة إليها، وعلى عكسها عوامل قلّلت من عدد الصيد منها الجدب الذي حصل في هذه البقعة، وظهور السلاح الناري الحديث واستخدام السيارة لطرد الصيد والبندقية لرميه، كما أن شره الإنسان بصيد أكبر عدد ممكن منه بما يفوق حاجته اليومية، كل هذه العوامل تسبّبت في القضاء عليه وبالتالي في انقراضه، ويتمّ الصيد كما أسلفنا بطرده على ظهور الخيل وطعنه بالرماح ورشقه بالسهام وصيده بالشراك، والاستعانة بكلاب الصيد «السلق» التي أشار إليها الشاعر الذي يمدح كلبة صيده بقوله:

٣٥٣ ـ سخا بالعضيبا جروة حضرمية
أطارف بنانيها من الدم خاضب[1]

٣٥٤ ـ ترى ثوب راعيها شلوح وحبلها
كثير العقد من كثر ما هي تجاذب

٣٥٥ ـ تحطّ الجوازي راس ذا عند رجل ذا
كما الودع واني بينهن نظم كاعب
(راشد الخلاوي)

وجرى الصيد بهذه الطريقة إلى أن اتخذت بدلاً عن ذلك البندقية على مختلف درجاتها، فيذهب الصياد للقنص حاملاً سلاحه قاصداً المكان الذي يعتقد بوجود الصيد فيه، وقد يتردّد على هذا المكان أكثر من مرة وكأن لسان حاله يقول:

٣٥٦ ـ من كثر الردّات للصيد ربما
يأتي بغراته ويجي منه صايد[2]

---

(١) راشد الخلاوي ص ١٠٠.

٣٥٧ ــ ومن قابل المشراق والكن والذرا
يموت ما حاشت يديه الفوايد
(راشد الخلاوي)

وقد يمضّي الساعات الطويلة يترقّب الصيد، وقد يختبىء في مكمنه وينتظر الساعات الطويلة المملّة لكنها عنده تمضي وكأنها سويعات أنس متى رأى الظبي أو المها أو الوعل قد دنفت إليه، وقد يرتقي أصعب الذرا في شماريخ الجبال وكأنها القنن الصغيرة، وذلك للاختباء للوعول النافرة وصيدها، وقد يجري على قدميه المسافات الطويلة وهو يخاتل حمر الوحش ويراوغها ويواجهها، وأثناء ذلك قد تتعرّض الأشواك العاسلة لقدميه وقد تصاب بالجروح العميقة ولكنه لا يشعر بها ولا يأبه بآلامها إطلاقاً متى ظفر بطريدته، وقد يلهث وراء صيدته حتى يقدح حلقه من شدة العطش لكنه يستمر يجري حتى يظفر بها ناسياً العطش والإجهاد، وقد يمضي النهار كله دون أن يتناول الطعام، لا يشعر بالجوع ينهك قواه ما دام هناك أمل في تذوّق شَويّة لذيذة من لحم صيدته، ربما كبدها أو أحد شواياها، وعندما يعود الصياد بصيدته ينسى كل ما واجهه من مشاق ومتاعب، تحدوه نشوة حُبّ القنص، ويهزّه عنفوان إرواء تلك الهواية المحبّبة إلى نفسه، يبتهج بما أحضره من صيد يقدّمه لأهله وجيرانه وأصدقائه وقاصديه وربما أحذى من صادفه بالطريق شيئاً من صيدته، وعادة عندما يصادف أحد الناس صياداً يقول له «الحذية» فإن كان الصياد يريد إعطاءه، ردّ عليه «أبشر بالعطيّة» وأعطاه مما معه، وإن أراد اعتذاره يردّ عليه «ما لك أذية» وهذا نادر الحصول، وعادة يكون مع الصياد ما يحمّل عليه صيدته، أما فرسه أو بعيره، وأحياناً حماره، إما إذا كان قريباً فيحمله على ظهره، وقد اعتاد الصيادون أن يركّزوا على صيد قائد الفريق من الغزلان أو المها لأن الفريق بعد صيد قائده يرتبك ويسهل اصطياده وربما صاد أكثر من ذلك، لنستمع إلى أحدهم يتغنّى ببندقيته بقوله:

٣٥٨ ــ لي بندق ما صنعها الصانع التالي
من صنعه الهند نحال مقاضبها

٣٥٩ ـ اليـالفـونـا من المقنـاص زعـالي
أحـد مدح بنـدقـه وأحـد يعـذر بهـا

٣٦٠ ـ بشـرتهم بـالعشـامن عقب مقيـالي
ألقـا يده مـع مدق الكـوع ضـاربهـا
(. . . . . .)

ويتّخذ الملوك والأمراء وعليّة القوم من القنص مجالاً للنزهـة ورحلة للاستجمام، وفترة للراحة، ولا زالت هذه العادة باقية حتى الوقت الحاضر مع قلّة الصيد.

□ صيد الحبارى والسمق والأرانب البرّية:

الحبارى من الطيور البرية التي يُغرم بصيدها كثير من الناس وخاصة الأمراء وعليّة القوم وذلك للمتعة التي تحدث أثناء الصيد، ولطيب مذاق لحمها، والحبارى من الطيور التي لا ترتفع كثيراً عن الأرض عند طيرانها، وهي سريعة الزوغان والاختفاء عندما يداهمها صقر الصياد، كما أن لها وسيلة أخرى تدافع بها عن نفسها ضد الصقر المهاجم وهو «ذرقها الرخو» الذي تسلّطه على عيون الصقر، بحيث تسبّب له العمى الوقتي لفترة تتمكّن خلالها من الإفلات منه والاختفاء عنه، ويستخدم لصيد الحبارى الصقور بأنواعها والشياهين، ويستعان كذلك بكلاب الصيد السلوقي ويعتني الصيادون بانتقاء طيور الصيد الممتازة «كالنادر» والحرص على اختيار الأفضل منها، وهناك عناية خاصة في طيور الصيد منذ الوصول إليها بأوكارها الوعرة بعيدة المنال ثم تغذيتها بأطيب اللحوم وتدريبها وتعليمها للصيد تدريجياً بتدريبات خاصة، وللطيور درجات متفاوتة منها النادر، وهو أعلاها درجة ومن أسمائها، النادر والهليع والحـر والأشقر والقطامى والصيرمي وغيرها، أما أردؤها فهو التبع. . .

وللطير أثناء التدريب إشارات وعلامـات وصيحات تسمّى «النـدب» يتعلّمها أثناء إطلاقه «هده» أو عودته «ترييعة» إلى صاحبه حينما يناديه باسمه

ويرفع له العلامة التي درّبه بالنزول عليها، ومتى أصبح الطير مدرّباً على الصيد بدأ الصياد يقنص به ومعه كلب الصيد، ينطقان معاً فالصقر حينما ينقضّ على الصيدة «يهد» يضربها بمخلبه صفعة تطرحها على الأرض في الوقت الذي يكون السلوقي يجري تحته وقد وصل بقربها ليمسكها بيديه ويعضّها عضّة خفيفة غير مؤثّرة بفمه ويمسكها حتى يأتي الصياد فيذبحها سواء كانت الصيدة من الحبارى أو السمق أو الطيور الأخرى أو الأرانب البرية، وأحياناً يكتفي الصياد بالطير وحده، فهو يضرب الصيدة بمخلبه ضربة مؤثّرة ثم يجثم عليها بكل قواه ليشلّ حركتها، ويعرقلها حتى يحضر صاحبه، وعادة يحصل صراع بين الصقر وفريسته، فإن كانت حبارى بدأ يصفعها على حذر المرة تلو الأخرى حتى تخور قواها ويلقيها على الأرض، هذا إذا كان الطير مدرّباً ومن أصل جيّد، أما إذا كان الطير غير مدرّب أو من درجة ثانية فإن الحبارى قد تتمكّن من الإفلات منه وذلك «برشّه» أي تبخه بذرقها الرخو على وجهه وتعميته لفترة تتمكّن خلالها من الهرب وتختفي، ومثل هذا الصراع يحصل مع الأرانب البرية إلا أن وسيلة الأرنب هي اللجوء إلى أقرب جحر عندها أو الدخول تحت الأشجار الشائكة التي تحميها من الطير وتجعلها تفلت منه، ولهذه المواقف تأتي أهمية وجود السلوقي لضمان عدم إفلات الصيدة لأنه يمسكها ولا يؤثّر فيه وسائلها، ويحتاج الطير إلى غذاء جيّد من اللحم النيىء يومياً، ومن مستلزمات الطير «المركاب» وهو أسطوانة خشبية مغطّاة بنسيج أو جلد ولها قائم خشبي بأسفله مسمار يثبّت بالأرض وتركّز للطير للوقوف عليها، ويحتاج كذلك إلى البرقع وهو من الجلد اللينّ يحزم على رأسه بلطف في أعلى الرقبة يوضع على رأس الطير لوقاية عينيه من الغبار والهواء ومنعه من رؤية بعض الناظر المثيرة له وخاصة منظر اللحم، وهو جزء من تدريب الطير في البداية على رؤية الدم فلا يرفع عنه البرقع إلا لرؤية الدم ثم يبرقع مرة أخرى حتى يتعوّد على رؤيته وبالتالي يألف هذا المنظر ويعشقه وينقضّ على فريسته لإحداثه، كما يوضع للطير قيد في رجليه وهو عبارة عن حلقتين من سير الجلد اللينّ المتين وبطرفها سلسلة مناسبة مربوطة بالمركاب لتعطيه حرية الحركة، بالنزول عن المركاب والرقي عليه، كما يحتاج «الصقّار» إلى وضع قطعة من الجلد على يديه لوقايتها من مخالب الصقر، وعند «هد» الصقر

يطلق قيده ويرفع برقعه، وقد تغنّى الشعراء بالطيور النادرة على مختلف درجاتها بعدد لا يحصى من القصائد، ونعتوها بمختلف النعوت كما وصفوا الأبطال من الرجال وشبّهوهم بالنادر من الطيور في سرعة انقضاضه، وضربته، وسطوته، والتفاؤ ل بهدّته والرجاء بعودته، وإجهازه، وقوّته، وحدّة نظرته، وغير ذلك من الصفات التي تتوفّر بالممتاز النادر من الصقور على مختلف أنواعها، وعلى سبيل المثال الاستشهاد بما تعرّض له الشعراء في هذا المجال نورد الأبيات الآتية:

٣٦١ ــ يا لضاري الهيلع عقاب المراقيب
يا نافل جيله بعيدين واقراب[١]

٣٦٢ ــ الحر يضرب بالكفوف المعاطيب
والتّبع قناصة من الصيد ما جاب

(خضري الصعيليك)

٣٦٣ ــ راح العقاب الصيرمي ذايع الصيت
يا على من عقبه تراعد عظامي[٢]

(سعدون العواجي)

٣٦٤ ــ حلياك حر يغني الصيد ملحوم
متفهق الجنحان حر قطوعي[٣]

٣٦٥ ــ حر علم بالصيد من غير تعلوم
يودع بداد الريش شت مزوعي

(محدى الهبداني)

---

(١) آدابنا الشعبية ص ١٦٢.
(٢) أبطال من الصحراء ص ٩٩.
(٣) أبطال من الصحراء ص ٢٣١.

٣٦٦ ـ حر شلع من راس عال الطويلات
للصيدة اللي حط خمسة وراها[٤]

٣٦٧ ـ غز المخالب بالثنادي السمينات
تل القلوب وبالمخالب فراها
(خلف الأذن)

٣٦٨ ـ حر شلع من مقيله طار
لم مجمع الصيد وأدلى به
(جوزاء الدويش)

٣٦٩ ـ ريعت له تربيع طير لراعيه
لا شاف نسرة واجهزة بان بانه[٥]
(عبد الله بن سبيل)

٣٧٠ ـ طير السعد يا نور عيني شهر بي
لم الثريا والكواكب رقابي

٣٧١ ـ ومع مثل سلك العنكبوت انحدر بي
ياجديع بنقرة حضوضي رما بي
(.....)

٣٧٢ ـ طيور السعد ما تاكل اللي لجباري
ربعي عمى عينك وربعي رمدها
(عبد الرحمن بن معيتق العنزي)

٣٧٣ ـ حنّا كما حر تعلا بمشراف
صيده من الجل الحبارى الجسامي

---

(٤) أبطال من الصحراء ص ٢٦٢.

٣٧٤ ـ جاه اسمر من صايدة سم الأتلاف
طقـه وحط اسبـوق ريشـه هـدامي
(راكان بن حثلين)

٣٧٥ ـ يشبـه لحـر هـد من راس قـاره
صبح المطر لا شـاف جول السمـاقي
(عبد المحسن الهذيلي)

٣٧٦ ـ طـيـري غـدا والـسـلوقي راح
لا واحـلو لاه يـا طـيـري

٣٧٧ ـ وأصـيـح وارفـع لـه المـلواح
واثـريـه نـزّل عـلى غـيـري
(. . . . .)

□ صيد الطيور الموسمية الكبيرة:

والطيور الموسمية الكبيرة التي تتوفر في هذه البقعة هي المالكي، والخضاري، والرهو، والغرنوق، والصفراء، والقميري، والخضري أو «لعيبة المطر» بالإضافة إلى الحمام البري والحجل، والكروان، والمريعي، والدفعة الأولى من هذه الطيور تتوفر في مواسم معينة من العام وتأتي على فرق مهاجرة من مواطنها الأصلية تبعاً لموجات هجرة الطيور من الشمال إلى الجنوب وبالعكس وتمر بهذه المنطقة في طريقها ويتم صيد شيء منها أثناء وجودها، وتمكث في فروع النخيل والأشجار ويجري اقتناصها، أما الفئة الثانية فهي متواجدة على مدار السنة، وكانت في البداية تصاد بالنبل والأقواس المعروفة وكذلك «المجلاد» وهو قوس صلب يثبت أحد أطرافه بوتد ويكون في وسطه وتد ثاني ويحني طرفه على شكل نصف دائرة ويربط بالوتد الثالث بخيط متين رفيع بحيث إذا أفلت هذا الطرف المجذوب انطلق بسرعة وقوة شديدة وضرب ما يوجد بقطره من الطيور فأرداها قتيلة أو مصابة إصابة جيدة أو مكسرة

الأجنحة أو شل حركتها وتحبل الأقواس «المجلاد» بقرب المياه للطيور التي ترد الماء في أي فصل من فصول السنة، وكذلك الشرك وهو عبارة عن عيون من شعر ذيل الإبل أو الخيل ذات لون باهت فلا تؤثر على رؤية الطيور وتعمل بقطر حوالي ٥ سم وتوضع على شكل حلقات متراصة إما في ممر ضيق أو بطريق الماء أو حوله ويوضع بداخلها طعم للطيور من الحب وتوقف على شكل «تركة» وبمجرد أن يدخل خلالها الطير أو يدخل رأسه فيها لالتقاط الحب يرتفع السلك في حلقه فيخنقه ويكون صاحب «الشَّرَكة» بالقرب منها لأخذ صيدته قبل أن تموت إن هي وقعت في شراكه. أما حينما ظهرت البندقية فقد أصبح صيد هذه الأنواع من الطيور متيسراً أكثر من أي وقت مضى، ولا يستعمل لصيد الطيور الذخيرة ذات القصديد الكبير وإنما يستعمل نوع من البنادق التي تسمى «الفتيل» وتعبأ بملح البارود وحصى صغير يسمى «الرَّشْمْ» وهو بقد حبة الحمص بحيث إذا أصابت الطير لا يمزق لحمه ثم جاءت بعد هذه «القبسون» بنفس طريقتها مع اختلاف بجهاز الاطلاق، وجاءت بعدها «الشَّوْزَرْ» ذات الذخيرة الجاهزة والمعبأة بحبوب صغيرة من «القصدير» وهذه تصيد الطيور والغزلان عن قرب والأرانب البرية وما في مستواها ويتعب الصياد في مطاردة الصيد وإن كان سلاحه من الأنواع القديمة «الفتيل» و«القبسون» فتجد في جعبته شيئاً من ملح البارود المعمول لهذا الغرض إلى جانب كمية من الحصى وأعواد الكبريت، وفي الشق الآخر تجد الصيد الذي حصل عليه، ويقضي الصياد الساعات الطويلة في التنقل من مكان إلى آخر ومن بستان إلى ثانٍ وفي غابات الأثل والأشجار الكثيفة. وبين المزارع وفي الأودية والوهاد يخاتل صيدته ويخادعها، ومتى اقترب منها خف مشيه عن الأرض وبدأ يمشي على رؤوس أنامل قدميه وعينه إلى صيدته يراقب حركاتها وسكناتها مخافة عليها أن تطير من بين يديه، ومتى مد بندقيته عليها ورماها فإن أصابها بدا السرور على وجهه، فدنا منها ثم ذبحها بسكين صغيرة معه، وإن اخطأها ارتسم الغبن على محياه ثم عبأ بندقيته وبدأ بالمطاردة مرة ثانية دونما يأس أو ملل.

ويستمر الساعات الطويلة من يومه وربما يومه كله وقد يحضر وجعبته مليئة

بالصيد في خلال وقت قصير، ويعاني صياد الطيور مثل زميله صياد الأرانب البرية والغزلان والوعول من التصب والعطش والجوع الكثير، لكنه ينسى ذلك كله عندما يعود وجعبته مليئة بأصناف الطيور، ويعزو أي فشل يحول دون صيده في يوم من الأيام إلى الحظ والتوفيق من الله، أما من يصيد بالشَّرَك أو المجلاد» فيمكث الساعات الطويلة مختبئاً بقرب احبولته يراقبها وينتظر أن تصيد له من الطيور ما يريد، وأحياناً تتهافت الطيور ويصيد منها ما يشاء في مدة وجيزة، وأكثر ما تنصب الشرك للحمام والحجل، والقطا، والقميري «الكرور» قرب المياه وعند أماكن الحبوب بحيث يوضع داخل هذه الشَّرَكة الطعم وهو الحب، لتأتي تلك الطيور لالتقاطه وبالتالي تقع رقابها في هذه الأشراك المنصوبة لها؛ والصيد يساعد كثيراً من الأسر الفقيرة على تأمين لقمة العيشي خاصة في الأوقات العصيبة، كما يمنح ذوي اليسار على تذوق أنواع مختلفة من لحوم الطيور المتوفرة والوافدة ويحذى الصياد بعض من يصادفه حيث يقول له «الحذية» فعندها يرد عليه «أبشر بالعطية» أو «مالك أذية» ولا يغضب من لم يحذ أو يكون في نفسه شيء على الصياد.

□ صيد الطيور الموسمية الصغيرة:

أما الطيور الصغيرة التي يتم صيدها من قبل الصبية الصغار فمنها الموسمي الوافد ومنها الموجود على مدار السنة، فالطيور الموسمية الوافدة ضمن رحلة موجات الطيور التي تمر بهذه المنطقة خلال فصول السنة ومن هذه الطيور «الصَّعَوْ» بألوانه الزاهية الصفراء، والرمادية، والصعَّو طائر جميل رشيق متناسق يتراقص عند وقوفه، سمين ولحمه لذيذ، له من الألوان، الأصفر الفاتح بكامل جسمه وتسمى «الشُّوَيخة» والصفراء ذات الرأس الأسود وتسمى «سوداء رأس» والخضراء الضارية إلى الزرقة وبها تكحيل أبيض قرب عينها، والرمادية المائلة للخضرة المكحلة بالبياض ويعتقد آنذاك أن الصَّعو يأتي من البحر ولا يبيض ولذلك هناك مثل سائر في نجد يضرب عند استحالة الشيء أو عدم الصدق والوفاء فيقال: «لِيَا بَيَّضْ الصَّعْوَ». أما «الزغبر» فهو كذلك طائر رشيق جميل

يشبه الصعو في كل شيء ويختلف عنه في الألوان فهو بصفه عامة رمادي مكحل بالسواد والبياض وحنجرته نقطة مثلثة سوداء وبطنه أبيض، أما «البزباز» فلونه بني منقط بلون ذهبي وهو بحجم سابقيه غير أنه يتصف بالغباء سهل صيده ويسمى «أخو حمدة» وتعيش هذه الطيور على الحشرات الطائرة التي توجد حول مستنقعات الماء وفي أماكن حصيدة الزرع، وهذه الطيور أجسامها بحجم البيضة أو أكبر قليلاً ويصطادها الصبية، أما الأنواع المستمرة على مدار السنة فهي العصافير ذكورها «الكحالي» وإناثها «السليقا» والقُبَّرَهْ «العقلاء» أم عريف وغيرها ويتم صيد هذه الطيور بالفخاخ التي يحبلها الصبية بالأماكن التي توجد بها هذه الطيور، والفخاخ جمع فخ وهو قطعة من عسيب النخل أو عرجونها محنية على شكل نصف دائرة قطرها حوالي من ٧ ــ ١٠ سم وأكبر أو أصغر ويربط بطرفيه حبل رقيق من شعر ذيل الإبل أو المطاط على بتين، ويدخل من بينهما عصا قصيرة بمقدار طول قطر الفخ بحيث يثبت بالطرف الذي ينطبق على الفخ طوق إما من الأغصان الدقيقة أو من قضبان المعدن اللدن ويربط طرفا الطوق بطرفي الفخ، وبنصف قطره بعصا الفخ ويلوي العصا عدة مرات بحيث يطبق العصا بالطوق على الفخ وبطرف العصا الثاني يوجد سن صغيرة من الخشب بها عدد من الفروض يسمى «المطراف» وبه خيط يلتف على جسم الفخ في حالة نصبه بحيث تلتقي بخيط ثاني يثبت بنفس العصا وبرأسه خرزة صغيرة تمسك بأحد فروض المطراف ويتم حشر رباط الطعم خلف هذه الخرزة، وفي حالة نصب الفخ يفتح فكيه ويثبت خرزة الطعم بالمطراف ثم يحفر للفخ بالأرض قبلاً ويدفن بتراب ناعم خفيف بحيث يغطيه تماماً تغطية حقيقة ولا يبدو من الفخ إلا الطعم الموضح للطير المقصود صيده ويركز خلف الفخ مباشرة أعواد صغيرة تمنع الصيدة من إتيانه من الخلف، ومتى جاءت الصيدة من الأمام ونقرت الطعم قفز الفخ بها وصادها، وللصيادين بحكم التجارب طرق فتية في حبل الفخاخ، بحيث يجعل الفخ يمسك الصيدة أما مع الرقبة أو مع وسط الجسم أو مع الأطراف كالأرجل والأجنحة.

وهذه الطريقة تسمى «حُبْلَةِ ٱلْفَخّ» والحبلات منها «كب» و«تنقيح» و«مدة

عصا» ويفضلون الحبلة التي يصيد فيها الفخ مع الرقبة لضمان عدم إفلات الصيدة، والطعم الذي يوضع بالفخ إما من الحبوب المبللة والمنظومة بسلك أو سنابل القمح، أو الطعوم الأخرى التي تأكلها بعض الطيور، ومتى جاءت الصيدة إلى الفخ من خلفه فإنها تأكل الطعم ولا يصيدها، وبعض الطيور تكون حذرة وتبعد عن الفخاخ وتوعز لرفاقها بالابتعاد عنها، وبعضها يستطيع أن ينهب الطعم ولا يصيده الفخ، ويوجد نوع آخر يسمى «الفَحَّةْ» وهي مؤنث الفخ مع التصحيف في التسمية والفحة من قرون الماعز التي تطابق مقاس الفخ وبها كل عدة الفخ ولها نفس المزايا والطرق والفخاخ لها حكايات وحكايات وقصص لا تحصى لدى الصبية والمراهقين، إذا علمنا أن عدداً كبيراً منهم يمارس هذه الهواية التي قلما تجد أحداً لا يمارسها خاصة إذا علمنا أنه لا يوجد مدارس تشغلهم أو أعمال يقومون بها، وللصبية كثير من الكلمات يرددونها حينما يبدؤون بتوجيه وتدريج تلك الطيور إلى فخاخهم وتسمى هذه العملية «بالدورجة» أو التدريج ويظنون أن هذه الطيور تسير وفق توجيهاتهم لها بتلك الكلمات التي يرددونها بشكل «حداوي» مثل «يا عبوه يا عبوه والطعم تنا هبوه» وغيرها كثير ويتعب الصيادون الصغار كآبائهم الكبار في الصيد حيث يمضون الساعات الطويلة وهم يطاردون هذه الطيور وقد ينهكهم التعب ويؤثر فيهم الجوع والعطش دون أن يشعروا ويلهثون خلف هذه الطيور، وهناك طريقة أخرى لصيد العصافير خاصة التي تكون حذرة بصيدها بالفخاخ الطريقة هي صيدها بالأطباق وعندما ينصب لها الطبق الكبير على عود دقيق ويربط به سلك رفيع وينثر تحت الطبق الحب ويختبىء الصياد بالقرب من الطبق ومتى رأى مجموعة كبيرة من العصافير دخلت تحت الطبق لالتقاط الحب جذب العود المربوط بالسلك بسرعة بحيث يطبق الطبق على العصافير ويسرع لاصطيادها من تحت الطبق.

وهكذا نرى هؤلاء الصبية يجدون متعة في صيد هذه الطيور وشوائها ويتم الحبل «للصعو» و«الزغابر» و«البزابيز» في مكان حصيدة الزرع وقت الحصاد، أما العصافير والقبر «العقلاء» ففي مكان الحصيدة وفي ظلال الأشجار والحيطان

كما انتشرت طريقة الصيد في السنوات الأخيرة «نبالة المطاط» وهي «النباطة» هي فرعان من غصن شجرة يجتمعان معاً في جذع واحد وطول الفرعين حوالي ١٥ سم، ومقبض اليد في القاعدة حوالي ٥ سم ويربط بطرفيهما سيرين من المطاط وبطرفهما قطعة من الجلد اللين توضع بها الحصاة بحجم حبة الحمص ثم تمط بالقدر الكافي ويصوب الحصاة إلى الطير ثم يطلقنها نحوه فيصيبه ويرديه على الأرض أو يخطئه فيطير وهكذا يصيد الصبية هذه الطيور ويتسلون بها.

□ صيد الضبان اليرابيع الجربوع :

الضب هو أحد الزواحف الجازية المتوفرة بهذه المنطقة، ويصاد فيؤكل، أما اليربوع الجربوع فهو كذلك أحد الحيوانات الثديية الصغيرة جميل اللون والمنظر أكبر من حجم الفأر وأصفر من الجرذان وله صفات تميزه عنهما فهو رشيق الجسم، طويل الرجلين، قصير اليدين، بارز العينين طويل الذيل، وبطرف ذيله «حصنه» بيضاء يختلف كذلك في عمله لحجره، ويتم صيده بطرق منها حفر حجره الذي يعمل شتى الوسائل لاخفائه، فحينما يحفر حجره يخفي معالم فم الحجر خوفاً من الأعداء، الإنسان، والثعابين، ولا تجد عند فم الحجر «نثيلة» وإنما تجد كومة صغيرة قد سدت فم الحجر تسمى «قَصْعَة».

الجربوع: وهو من الحيوانات الصغيرة الحذرة فحينما يحفر الحجر يجعل به أكثر من مخرج احتياطي يحفره إلى سطح الأرض ويبقى مقدار ¼ سم من قشرة الأرض بحيث إذا داهمه عدو كسر الطبقة الباقية برأسه وهرب ولا يعود لحجره مرة أخرى وبصعوبة يهتدى المرء على حجر اليربوع إلا ذوي الخبرة فإذا وجده الصياد وضع على فم الحجر قطعة قماش كبيرة «كغترته» مثلاً ثم بدأ يبحث عن المخارج الاضطرارية «النِّطَّاقَة» ومتى عثر عليها هدمها ودكها بالرمل وبدأ يحفر الحجر حتى يعثر عليه، وحينما يخرجه من حجره يذبحه ويشويه، وطعم لحمه لذيذ جداً، والطريقة الأخرى في حالة عثور الصياد على مخرجه «النطاقة» أن يمسكها بقطعة قماش وبدخل بالحجر عصا يفزعه فيها ومتى أحس اليربوع

بالحركة الداخلة عليه في حجره هرب مع مخرج الطواري ووقع في الشبكة الموضوعة له على المخرج وتم اصطياده، ويحكى على لسان اليربوع أنه في يوم من الأيام دخل عليه في حجره عدوه اللدود الثعبان، فقال اليربوع: ما الذي جاء بك هنا؟ فقال الثعبان: أنا ضيفك هذه الليلة لأنام معك في حجرك فخرج اليربوع من الحجر وقال: «هو لك يا أبا طويلا» وهرب ويضرب مثلاً للضيف الثقيل الذي يخشى منه، أما الضب فيتم صيده بطرق منها، حفر حجره الذي يتصف بالعمق والطول والطريقة الثانية في موسم هطول الأمطار على المواقع المتوفر فيها الضباب يجر ماء الغدير ويسحب إلى حجره ومتى جاءه الماء خرج بحيث يكون الصياد له على ولم يمسكه ويذبحه، أما بعد خروج السيارة فقد اتخذوا طريقة ثالثة وهي إيصال ماسورة العادم «الشكمان» إلى فتحة حجره وعندما يدخل عليه الدخان يؤثر عليه فيخرج ويتم اصطياده والطريقة الرابعة لصيده في نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف وهي «كنسة» في هذا الفصل يبقى الضب بالقرب من فم الحجر للابتراد ومن ثم النوم ويأتي الصياد ومعه ما يشبه الرمح يسمى «مكناس» بكل خفة يمشي على رؤوس أقدامه حتى يصل إلى الحجر ويطل عليه ومتى رآه طعنه «بمكناسة» ورصه على جال الحجر فإن كان قريباً أمسكه بيده الثانية وإن كان بعيداً ضغط على عصا المكناس برجله وبدأ يحفر الحجر بعصا أخرى حتى يصل إلى صيدته، والضب من الحيوانات التي لا تحتاج إلى الماء وذلك بحكم تكوين جلده الخالي من المسام.

ويمتاز الضب بالصبر عن الأكل حيث يمكث بحجره أشهر بدون أكل كما أنه من الزواحف الغبية حيث يتيه عن حجره إذا أبعد عنه ويأتي إلى حجره حتى ولو رأى الصياد عنده، وبعض الصيادين إذا رأى الضب خارج حجره دفنه وجلس عنده ومتى عاد الضب طارده واصطاده، والضب سريع الجري غير أنه يمكن اللحاق به، وأحسن ما بالضب من اللحم ذنبه «العكرة» وجلد الضب اناء ممتاز للسمن بعد دبغه وتسمى «ضبية» ولا يلجأ الناس لصيد الضب إلا في سنوات الشدة.

□ صيد الجراد:

الجراد تلك الحشرات الطائرة تغشي أسرابها الكثيفة هذه المنطقة في بعض سني الربيع وغالباً ما يكون قدومها في فصل الشتاء وأول ما تفد هذه الأسراب يكون لونها أحمراً وتكون هزيلة وتسمى «البحاري» وبعد أن ترعى هذه الأسراب من العشب تسمن وتنقلب ألوانها، فالذكر يصبح لونه أصفر فاتحاً ويسمى «الزعيري» والاناث يصبح لونها بين الأصفر والرمادي، وتكتظي ذيول الأناث من الجراد بالبيض الـذي يسمى «النُّصُّ» فتدعى الجـرادة من هذه الفئـة «منصصة» أو «مكون» وعندما يكتمل نمو البيض لديها تفرغه وذلك بغرس دنبها في باطن الأرض على عمق يتراوح بين ٣ ــ ٧ سم وتجذب ذنبها الفارغ من البيض بعد أن تتركه في باطن الأرض ملفوفاً مع بعضه بغشاء لزج يجف على البيض ويحميه من المؤثرات الخارجية وبعد أن تنزل الأمطار في فصل الربيع بعد دخول «السماك» تأتي الرطوبة على البيض فيتفاعل ويتكون فيه «اليرقات» حيث يخرج منها يرقات «الدِّبا» بأطواره المختلفة و«الدبا» هو جمع دباة وهو فروخ الجراد ومتى كثر يسمى «الرِّهَالي» ويخرج من الأرض بأعداد كثيفة هائلة يغطي الأرض التي يسير عليها، ويلتهم ما عليها من الأخضر واليابس ويهلك الحرث والنسل، وربما سبب الأمراض للبلد الذي يحل فيها ذلك أنه يسقط في آبار مياه الشرب ويموت ويعفن ويؤثر على الماء وبالتالي على الصحة العامة، ويجلب الأوبئة، وكلنا يذكر «دبا» العيينة وأمثالها كثير، ومتى كبر الدبا وانتهى من أطواره التي يزحف فيها على الأرض وهي اليرقة ــ والحورية ــ والعذراء، انتقل إلى طور الطيران بعد استكمال نموه بظهور ريش كامل للجرادة مثل أمهاته وعندئذ يطير بأسراب هائلة ويسمى «الخَيْفَانَ» ويلتهم المزروعات والنخيل والأشجار وما يقع تحت طائلته، وكم من نكبات وجوعات ومهالك حدثت بهذه البقعة بسبب الجراد.

نعود الآن إلى اصطياده، تفد أسراب الجراد بأعداد هائلة وكثيفة كقطع الغيم تحجب رؤية الشمس وتطير هذه الأسراب مكونة كتلة واحدة وكأنها

الإعصار الهوائي الهائج يرتفع عمود الجراد إلى عنان السماء ويسمى «عموداً» والقاعدة تطير بحركة دائرية ملامسة للأرض تسمى «رحى الجراد» وعادة تكون رحى الجراد من الإناث نظراً لثقلها بالبيض، والعمود الأعلى من الذكور، وعندما تفد أسواب الجراد وتبيت بقرب البلد، أو يعلمون عنها حتى ولو كان بعيداً جاء من علم به إلى البلد أو النزل وصاح بأعلى صوته «يا جرَّادة» الجراد بالمكان الفلاني وعند ذلك يسرع الناس إلى تجهيز أوعيتهم من «رزم» و «فراد» و «خياش» و «مقانب» وركبوا إبلهم ودوابهم وأسرعوا من ساعتهم إلى المكان المذكور فإذا كان الوقت بارداً، والهواء ساكناً أدرك الناس من الجراد ما يحتاجونه، وإن كان الطقس بارداً نسبياً أو يوجد فيه رياح لا يستطيع الناس تحصيل القدر المطلوبة منه لأن الجراد يبرد مع سكون الهواء ويدفأ مع وجوده، ويأخذ الناس هذه الرزم والأوعية، وعادة يبدأ «الجَرَّاد» بملء المقنب وهو كيس صغير يملؤه ثم يفرغه في الوعاء الكبيرة مرة بعد أخرى حتى يمتلىء، ويصطاد الجرَّادُ الجَرَادَ من الشجر بقبضات كبيرة في كلتا يديه نظراً لكثافته على الشجر، وإذا كان هناك اثنان يساعد أحدهما الآخر يتولى أحدهما فتح الوعاء والآخر يحشوه، فإن كان الطقس بارداً يبقى الجراد لا يستطيع حراكاً، عند ذلك يتم اقتلاع الشجر الصغير ونفضه لتساقط منه الجراد بدون حراك ويجري «قَشُّهُ» وتعبئته، والرجل الذي يعثر على الجراد يبقى معه حتى يخيم عليه الليل ويبيت الجراد ليطمئن إلى بقائه في نفس الكان، فأحياناً يغيرِّ الجراد مكانه فينتقل يميناً أو شمالاً بمقدار يتراوح بين ١ ــ ٥ كيلاً من مكانه الأول وحينما يأتي الناس لا يجدونه في مكانه، وأحياناً يتهمون «المبيت للجراد» بعدم الثقة، وربما انخدع بعض الناس بكثرة الجراد حينما يكون منتشراً وقت الأصيل، ويخبر الناس على هذا الأساس ولكنه عندما يدخل بالشجر ويختفي عن الناس وهنا يأتي الاتهام مرة ثانية للرجل الذي بيته بأن الجراد خدعه، وهنا مثل يقول «جراد الزريقي» هذا الرجل ممن انخدع بكثرة الجراد عندما كان منتشراً، وعندما أخبر الناس حضروا ولم يجدو ما أخبرهم به وعندما لاموه على ذلك قال لهم: «اتركوه حتى ينتشر في الغداة وعندها سوف ترون كثرته وتصدقونني» وبالطبع إذا انتشر مع شمس اليوم التالي طار عنهم، والسرب القليل من الجراد يسمى «كراعاً» وبعد

تعبئة الأوعية والرزم تحضر للبيوت ويكون هناك قدور كبيرة ضخمة منصوبة على النار توقد نيران مسعرة وعندما يفور الماء والملح يجري كب الجراد الحي بالماء الفائر ليموت فيه، ويحيط بالقدر أهل البيت وكل واحد منهم معه خشبة صغيرة يغمس بها الجراد بالقدر بينما اثنان منهما يمسكان بالوعاء، ويكبان ما فيه، وبعد أن يطبخ وينضج بالماء والملح يتم اخراجه من القدر ونشره بسطوح المنازل وعلى بيوت الشعر، ومتى تم طبخ الكمية التي تم اصطيادها يبقى آخر طبخه بالقدر مربصة بالماء تسمى «الرَّبيص» وتبرد ويؤكل الجراد بعد الطبخ أو الشوي، وللربيصة طعمها الخاص وبالذات عندما تبرد وينـزع من الجرادة أرجلهـا و«قصاميلها» وهي الأرجل الطويلة وريشها وأحياناً رأسها، والجراد مفيد من الناحية الصحية، لمن يعرف لديهم أمراضاً باطنية ربما لأنه يأكل من كل شجرة يمر عليها ومن ذلك قد يبقى خلاصة هذه الأعشاب بامعائه ويكون لها تأثير على من يأكله .

ويقول المثل: «إذا جاء الجراد انثر الدواء» إشارة إلى الاستفادة من الجراد بهذه الناحية وبعد أن يجف الجراد على سطوح المنازل أو على بيوت الشعر يتم تخزينه كمتاع عند الحاجة، ومن أناث الجراد الجـاف الملآى بـالبيض «المنصص» «المكن» ينزع منها أرجلها وريشها ورأسها وتسمى «قنزوعة» وتطبخ مع المرقومة، أو المطازيز عوضاً عن اللحم ويكون لها مذاق ممتاز، وربما بقي الجراد بقرب هذا البلد أو ذاك، في موضعه بضعة أيام وبالذات إذا صار الطقس بارداً، لذلك يستفيد الناس منه ويحصلون منه كمات هائلة يختزنونها في بيوتهم لأكلها عند الحاجة، وقد عاش الناس على الجراد وبالذات الطبقة الفقيرة شهوراً في سنوات الشدة أعاذنا الله من عودتها، ولرحلات الجراد واصطياده حكايات وذكريات تدغدغ أفئدة من حضروه، ويكثر الجراد أو يقل، وقد يؤرخ به بعض الناس كأن يقول سنة «جراد كذا. . .»، ويضرب المثل بالجراد لكثرته ويوصف الجيش الكثيف في عدده با «لجراد التهامي» أو «بالدّبا الرهالي» لكثرته، وقد أشار الشعراء إلى هذه الناحية.

كقول الشاعر:

٣٧٨ ـ طـالـع ورا أقصى بـلاد العسيـري
وراحت يمن مثــل الجـراد البحــاري

(عبد الله القضاعي)

والجراد اليابس لا يشبع آكله إنما يسد الرمق.

□ □ □

الفصل الثامن عشر:

الألعاب الرياضية

◻ سباق الفروسية:

تعجّ هذه البقعة بمختلف أنواع النشاط، وتتفاعل بكل حيوية وجدّ، ومن هذه الأنشطة سباق الخيل، ويتمّ هذا السباق ليس كما هو عليه الآن، حيث يجري السباق للسباق والاستعراض فقط وحسب جدول زمني معينّ على ميدان فسيح يحضره المتفرّجون وتقدّم في نهايته الجوائز والهدايا، وإنما يتم آنذاك لتمرين الخيل المربوطة في الاصطبلات وذلك لإبعاد الوهن عنها، ويجري بصفة دورية مستمرة للمحافظة على رشاقتها وحيويتها وصلابة عودها، وتخرج جميع الخيول من اصطبلاتها لهذا التمرين، ويكون السباق جماعياً وبصفوف طويلة ويجري بما يشبه المناورة الحربية في الوقت الحاضر، أي معارك وهمية يخوضها الفرسان على خيولهم، وتجري مبارزات في هذا الميدان الفسيح وأمام أناس يحتمل أن يمثّل الفرسان منهم أعداداً كبيرة، كما تجري سباقات على ألعاب بهلوانية، لا يدخل فيها إلا الفرسان ذوو الخبرة والمران، كأن يأتي الفارس على فرسه المغيرة ويلتقط برمحه شيئاً قد وقع له على الأرض، وربما التقط بيده علامة معيّنة من الأرض، كما يوضع علامة تمثّل نقطة الهدف ويأتي الفرسان وخيلهم بأقصى سرعتها، فيُصوّبون رماحهم أو بنادقهم إلى هذه النقطة لإصابتها، ولا ينال على هذه الإصابة أي جائزة، وإنما ليكسب سمعة عند أصحابه، ويبدي الفرسان مهارة فائقة في هذا المجال، كما يتمّ وضع علامات لتقفز الخيل من فوقها، وعليها فرسانها، وذلك لتدريب الخيل على اجتياز الحواجز والعوائق التي قد تعترض

طريقها في وقت الجد، كما يتم تدريب الخيل في الأيام المطيرة على اجتياز السيل الجاري مع الأودية لا سيما عندما يكون السيل قد أتى من مكان بعيد وبقي مكان السباق جافاً تستطيع الخيل أن تركض فيه دون أن تغوص حوافرها في الوحل وذلك لتدريب الخيل على اجتياز العوائق المائية عند الحاجة، وبما أن الخيل آنذاك هي إحدى معدّات الحرب الرئيسية فإن العناية بها قد تفوق بعض الأحيان العناية بالإنسان نفسه، كما أن الناس في معظمهم فرسان، أو ركبوا الخيل وعرفوا عنها الكثير، بالإضافة إلى هذا النوع من السباق الذي يُعتبر جزءاً من التمرين فإنه في أيام الأعياد يتمّ سباق للخيل ومطاردة عليها، واستعراض لخفّتها ومرونتها، وعليها الفرسان الذين يرتدون ملابس العيد المكوّنة من الثياب البيضاء الفضفاضة ذات الأردان الطويلة، ويرتدون عليها جبب الجوخ الحمراء والزرقاء والسوداء الموشاة بخيوط الذهب حاملين معهم كامل أسلحتهم المكوّنة من السيوف المذهّبة والخناجر الذهبية في أغمادها والبنادق والمسدّسات على رأس هؤلاء الأمراء وعليّة القوم، وتشترك في هذه الاستعراضات الخيول العائدة للسلطة الحاكمة كنوع من إظهار القوة أمام الناس، وهذه السباقات المشار إليها آنفاً ينقصها التنظيم الجاري في الوقت الحاضر لكنها أكثر جدّية وحيوية ونشاطاً ومرونة، حيث يجد الفارس من بين المتفرّجين من يرشده إلى ثغرة حدثت منه أثناء غارته أو حركة فعلها مع أنه في غنى عنها، وذلك لأن جمهوره ليسوا من هواة مشاهدة السباق فحسب، وإنما هم فرسان أيضاً يعرفون كل كبيرة وصغيرة مما يتعلّق بالخيل وركوبها، والألعاب البهلوانية وأصولها مما سيكون له الأثر الكبير لدى الفارس وهو يمارس هذه الهواية أن يحرص على اتّباع أسلم الطرق ويمشي حسب توجيهات مشاهديه ذوي الخبرة والحنكة والدراية، بهذا الفن المنتشر في تلك البقعة الطيّبة، وتحصل مراهنات على سباقات الخيل تكون حصيلتها لمن كسب الرهان إما جواداً أو مبلغاً من المال.

□ سباق العدو الجري :

هذا النوع من السباقات ينتشر بشكل كثيف بين مجموعات الشباب في معظم الأيام بدون ترتيب مسبق، ويتم في الميادين الفسيحة أو بقرب البيوت

أو منازل البادية، وأكثر ما يتمّ السباق في أول الليل وخاصة في الليالي المقمرة، وأحياناً يتم بعد العصر وذلك لمختلف الأعمار من الصبيان وحتى الشباب الكبار كلّ على قدر المسافة التي يستطيع قطعها، ويتم السباق مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك إنما في الغالب يتمّ السباق بين اثنين وتحدّد نقطة البداية والنهاية، بحيث تكون نقطة النهاية عند تجمّع المتفرّجين ونقطة البداية في مكان يبعد أو يقرب منهم، وتتراوح المسافة بين ٥٠ «بوعاً» ١٠٠ متر أو ١٠٠ «بوع» ٢٠٠ متر وتصل إلى ٢٠٠ «بوع» ٤٠٠ متر، والمتسابقون يحدّدون لحظة الانطلاق بالعد من ١ ــ ٣ ومتى نطق العدّاد الرقم الأخير انطلقوا مسرعين إلى نقطة النهاية وهي الهدف ليجدوا الحكم هناك وهو أحد المتفرّجين ممن يثقون به، وتنتهي هذه المسابقات بالتشجيع المعنوي من المتفرجين فقط، أما اللباس الذي يرتديه المتسابقون فليس هنالك لباس مخصّص للمسابقات، فإما أن تكون ملابسهم العادية وعند السباق يرفعونها إلى ما فوق الركبة حتى لا تعوقهم أثناء الجري أو أن ينزعوها من على أجسامهم وتبقى عليهم السراويل فقط، وتحصل مراهنات على هذا المسابقات يحصل الفائزون فيها على ولائم دسمة ممن خسروا المراهنات وقد تكون هناك جوائز عينية.

□ المطـــارحة:

والمطارحة هي إحدى رياضات القوى المحبّبة وتشبه المصارعة التي تجري في الوقت الحاضر على حلبات خاصة مع اختلاف في الكيفية والأحكام والميدان، فالمطارحة تتم على أرض ليّنة في مجمع من الناس وغالباً ما يكون من الشباب، فيتماسك المتطارحان بحيث يحضن كل واحد منهم الآخر واضعاً يديه من خلف ظهر صاحبه والأخرى من فوق منكبه وبذلك يكون صاحبه على عكسه تماماً، وينحني المتطارحان، يتجاذبان، يلوي كل منهما صاحبه يميناً وشمالاً، يجذبه إلى الأمام تارة ويدفعه إلى الخلف تارة أخرى، يراوغه فيرفعه إلى أعلى، ينكبّ صاحبه، بإحدى رجليه يحاول أن يلفّ ساقه بساق صاحبه، وينكبّه ليلقي به على الأرض، وهذه المحاولات تجري من كلا الطرفين بشكل مستمر حتى إذا

استطاع أحدهما أن يطرح صاحبه أرضاً فتحتسب له نقطة ثم يبدآن من جديد، وتجري المعادلة إذا حصل الخصم على نقطة مماثلة، والعدّ النهائي أن يطرح أحدهما صاحبه أرضاً ثلاث مرات يكون قد حقّق الانتصار على خصمه الذي منِيَ بالهزيمة، وأحياناً يبدأ العدّ من جديد من واحد إلى ثلاث وبعدها يدخل الميدان غيرهما، وهكذا تتم المطارحة على مختلف المستويات والأعمار، وغالباً يكون وقتها بعد العصر وحتى حلول المساء، وفي أول الليل وخاصة في الليالي المقمرة فيمتد حتى ما بعد صلاة العشاء بساعتين، وتجري تحدّيات ومنافسات بطولية وفي هذه اللعبة هناك اصطلاح يقال للتحدّي كأن يقول: «أنا رافع لك إشارة كذا. . . وأتحدّى من يطارحني» ولا يقول هذا الكلام إلا من يثق بنفسه، لأن فوق كل قوي مَن هو أقوى منه، وتتمّ المطارحة بالملابس العادية غير أنه يحصل رفع الثياب في الحزام، أو ربطه بالسروال، وتمنع أعراف المطارحة لمس المواضع التي يجزع من لمسها الإنسان كالإبط وأسفل الخاصرة وأي مواضع تثير الضحك وتثبط من نشاط الفرد، كما تمنع منعاً باتاً العنف كالضرب واللكم، والطعن، والعضّ، وشدّ الشعر وغيرها، وإذا أحسّ أحد الخصمين بالتعب والإرهاق طلب من صاحبه العفو بقوله «العِفّة» وعندها يفلته صاحبه في الحال ليستريح، وتجري على المطارحة مراهنات وتؤكل بسببها الولائم.

□ السبـــاحة:

نظراً لأن موقع هذه البقعة بعيداً عن البحار والأنهار لذلك اقتصرت رياضة السباحة فيها على بعض العيون والآبار والغدران المتخلّفة من السيول في موسم الأمطار، والسباحة كلها تجري في المياه العذبة وهي بطبيعة الحال أصعب من السباحة في مياه البحار والمحيطات، ورغم أن هذه الرياضة قليلة الانتشار إلا أنه قلّما يوجد تجمّع سكاني يخلو ممّن يجيد السباحة كضرورة يلجأ إليها عند الحاجة، وفي القرى تجد معظم الناس يشتغلون بالزراعة، وبالآبار، يتدرّب الأفراد على السباحة في الآبار ذات الفوهات الواسعة والمياه الغزيرة أو بالعيون المتوفّرة في مناطق أخرى، ويربط من يريد التدريب على السباحة فوق ظهره

مجموعة «من كرب النخل» المربوط مع بعضه، أو قِربة منفوخة بالهواء لترفعه إلى سطح الماء وتمنعه من الغوص فيه، ويكون المدرّب بجانبه حتى يستطيع السباحة بدون مساعدة ثم يتركه وشأنه، أما السباحة في الغدران فتكون لفترة وجيزة إلى أن يقلّ ماء الغدر وتتكثّف فيه كمية الطمي وعندها يكون خطراً وينصرف الناس عن السباحة فيه، ويتعلّم السباحة الكبار والصغار على مختلف الأعمار عملاً بقول الرسول صلىّ الله عليه وسلّم «علّموا بنيكم السباحة والرمي ولنعم لهو المرأة مغزلها»[1].

□ الرمـــاية:

الرماية من الهوايات الضرورية التي يمارسها الشباب والرجال معاً وربما النساء، في أماكن تخصّص لهذا النوع من الرياضة، وعندما كانت الأقواس والسهام هي أدوات الرماية، لم تكن الضرورة تدعو إلى انتجاع مكان بعيد عن حركة الناس نظراً لعدم بعد طيش السهام، أما عندما أصبحت البنادق النارية والمسدّسات هي المستعملة في الرماية فقد دعت الضرورة إلى تخصيص أماكن بعيدة عن تحرّكات الناس، أو أن يكون اتجّاه الرماة إلى جبل أو تلة أو جرف واد وغيره، وتحدث الرماية بالمبارزة وذلك بوضع إشارة الهدف «النيشان» وتبدأ الرماية بين الأفراد واحداً تلو الآخر، وبما أنه لا يوجد جيش نظامي في هذا البقعة كما مرّ بنا فإنه من الضروري لكل فرد من الناس أن يتعلّم الرماية، حيث أن كل واحد منهم يجد نفسه مضطرّاً يوماً من الأيام أن يصبح جندياً محارباً لعدوّه أو مدافعاً عن أرضه، إذاً والحالة هكذا فهناك ضرورة قصوى أن يتعلّم الرماية ويتدرّب عليها أتقن تدريب، وهناك مجال آخر يستطيع المرء أن يتدرّب على الرماية من خلاله هو ميدان صيد الطيور. وتعقد للرماية حلقات ومبارزة ومنافسة على عدد الإصابات الصحيحة ومقدار دقّة التصويب، وتحتاج الرماية إلى حدّة النظر، ورزانة الجأش، وقوة الأعصاب، ودقة التقدير، ومتى توفّرت

(١) كشف الخفاء، ج ١، ٢، ص ٦٨.

هذه العناصر الأربعة في الشخص أصبح مؤهّلاً للبروز في هذا الميدان، وتجري مراهنات على الرماية وعدد الإصابات ودقّة التصويب، ويتبعها «حق» أي وليمة دسمة للمتراهنين كما أن هناك نوعاً من القذف «بالمقلاع» وهي نوع من السلاح القديم والمقلاع يقذف بها الحصى التي بحجم البيضة وأصغر قليلاً، وهي من الأسلحة القديمة وهي عبارة عن نسيج على شكل راحة اليد لها طرفان بارزان يسمّيان الجناحين، ويتمّ نسجها من خيوط الصوف، وبطرفيها البارزين خيطان من الصوف أو القطن بطول حوالي ٦٠ سم، يأخذها القاذف ويثبّت أحد خيوطها بخنصر يده وطرفها الآخر يمسكه بإبهامه وسبابته، ويضع القذيفة في وسط «المقلاع» ثم يمسك الخيط الثاني ويومي بها بشدّة عدة مرات بحركة دائرية ثم يقذفها بشدّة نحو الهدف المقصود، بحيث يرمي القذيفة على بعد يتراوح بين ٣٠ ــ ٤٠٠ متر وربما أكثر من ذلك حسب قوة القاذف وجودة المقلاع، ويتم المبارزة فيها كنوع من الرماية، وكانت المقلاع يوماً من الأيام سلاحاً يتمّ المراشقة بالحصى بواسطته ويستخدمها الفلاحون في طرد الطيور من المزارع، حيث يستطيع الفلاح تفريق الطيور الضارّة من مزرعته.

□ لعبة عظيم ضاح:

من الألعاب الشعبية التي يمارسها الشباب لعبة «عظيم ضاح» وهذه اللعبة تتم في ليالي الصيف أو الخريف المقمرة، سواء بقرب المنازل أو مضارب البادية، ويقوم مجموعة من الشباب من مختلف الأعمار وكل منهم في سن واحدة أو متقاربي السن يلعبون مع بعضهم، وتبدأ اللعبة كالآتي: يتجمّع الشباب على شكل نصف حلقة ويبرز اللاعبون من بينهم فيخلعون ملابسهم إلا سراويلهم حتى لا يستطيع رفاقهم إمساكهم عندما يقتربون منهم، وتعتبر الحلقة نقطة النهاية ويختارون قطعة من العظم الأبيض أو أي شيء أبيض بحجم قبضة اليد ويتعرّف عليه الجميع ثم يرميه أحدهم بيده بقوة في اتّجاه معينّ بعد أن يقول بصوت عال «عظيم ضاح واين سرى واين راح واين مكسور الجناح»؟ ثم ينطلق اللاعبون في هذا الاتجاه للبحث عن العظم تحت ضوء القمر وعندما يجده

أحدهم يصيح بصوت عال «سرى» يردّدها عدة مرات ونطلق مسرعاً إلى نقطة النهاية لدى الجالسين، ويحاول صحبه اعتراضه وانتزاع العظم من يده، فإن كان سريع الجري قوي البنية استطاع أن يفلت منهم ويصل إلى نقطة النهاية، وبهذا يكسب السبق، وإن كان غير ذلك لحقه مَن هو أقوى منه وأسبق وأخذ العظم من يده وأسرع هذا الأخير بالعظم إلى نقطة النهاية وحاز السبق، وتستمر هذه اللعبة بالساعات التي تمضي دون أن يشعر بها اللاعبون، وليس هنا جوائز تقدّم إلى اللاعبين وإنما يكتفي اللاعبون بالتشجيع والفوز المعنوي مع رياضة الجسم التي تحدث بطبيعة الحال أثناء الجري، وهي رياضة بدنية مفيدة وتعتبر إحدى ألعاب القوى التي يجب تطويرها.

□ لعبة «شق القنا»:

لعبة «شق القنا» من الألعاب المنتشرة بين الشباب من مختلف الأعمار، وكل مجموعة من متقاربي السن يلعبون مع بعضهم ويتم لعبها في ليالي الصيف والخريف المقمرة قرب المنازل ومضارب البادية، وتختلف هذه اللعبة عن سابقتها بحيث تتكوّن من فريقين كل فريق من ٣ ــ ٧ أفراد، وتحدّد نقطة النهاية بالقرب من المتفرّجين، ويتقابل الفريقان بعد خلع ملابسهم عدا السراويل، على بعد يتراوح بين ٥٠ ــ ١٠٠ متر تقريباً ونقطة النهاية بينهما بالنصف، ويقول أحدهما بصوت عال يسمعه أعضاء الفريق الثاني «شق القنا» فيردّ عليه أحد أعضاء الفريق الثاني بنفس مستوى الصوت «بكم الفنا» فيسأل متكلّم الفريق الأول «من هي بعينه» فيردّ عليه متكلّم الفريق الثاني «بعين فلان» ويعينّ الإسم وإن كانت «بعين» المتكلّم نفسه فيقول «بعيني وأنا أخو فلانة» وينطلق من وقع عليه الاختيار متّجهاً إلى نقطة النهاية بحماية رفاقه، في نفس الوقت الذي يعترضه أعضاء الفريق الثاني لمحاولة ثنيه عن نقطة النهاية ومتى أمسكوه وحالوا بينه وبين الوصول إلى نقطة الهدف خسر اللعبة وبالتالي خسر السبق، ولذلك ترى الشخص المختار الذي تكون «بعينه» يحرص أشدّ الحرص على الوصول إلى الهدف بالمراوغة والإفلات من أعضاء الخصم، بينما رفاقه كل واحد منهم يمسك

واحداً من أعضاء الفريق الخصم وذلك لإتاحة الفرصة لزميلهم بالوصول إلى الهدف، وهم بدورهم يحاولون الإمساك به للحيلولة دون وصوله إلى نقطة النهاية، وتعتمد هذه اللعبة بشكل رئيسي على سرعة الجري والمهارة في المراوغة وقوة العضلات والوصول إلى نقطة الهدف من أقصر الطرق، ويمضي الشباب الساعات الممتعة في هذه اللعبة دون أن يشعروا بها وقد تمتد إلى جزء كبير من الليل.

□ لعبة «حَبْشَة»:

لعبة «حبشة» هي إحدى الألعاب الشعبية المنتشرة بين الشباب والشابّات وكل جنس يمارس هذه اللعبة وحده، ووقت هذه اللعبة في ليالي الصيف والخريف المقمرة أو سويعات الأصيل لمختلف الأعمار، وقوام هذه اللعبة يعتمد على الجري وسرعة المراوغة ويعينّ اللاعبون نقطة النهاية قرب الجالسين وينتشر اللاعبون من نقطة النهاية إلى مسافات تتراوح بين ٣٠ ــ ٥٠ متراً تقريباً، وعندما يأخذ كل منهم البعد المطلوب تعطى إشارة البدء وعندها كلّ يحاول أن يلمس أكبر عدد ممكن من اللاعبين دون أن يلمسه أحد وعندما يلمس أحد اللاعبين صاحبه فإنه يقول «حبش» وعندها يستسلم الفرد الذي تمّ «حبشه» ويعود إلى نقطة النهاية ماشياً بعدما لمسه صاحبه فلان، ويبقى الفرد الذي سلم من لمس زملائه ولمس جسم أكبر عدد منهم يبقى هذا اللاعب هو الفائز، وإن بقي اثنان حاول أحدهما أن يصفّي خصمه وذلك بلمسه «حبشه» حتى يبقى هو الفائز الوحيد. ويعود لى نقطة النهاية مرفوع الرأس، وتعتمد هذه اللعبة على سرعة الجري والبراعة في المراوغة والإفلات، والحذر من لمس الآخرين وهكذا تتمّ هذه اللعبة غارسة في الشباب روح المرح والسرور والنشاط مما ينعكس في قوة الأجسام وصلابتها.

□ لعبة «أعقبونا ونعقبكم»:

هذه اللعبة هي إحدى الألعاب المنتشرة بين الشباب وربما الشابات كلّ يلعب على حدة، وهي من الألعاب التي تجري في ليالي الصيف والخريف،

ويمارسها اللاعبون تحت أشعّة ضوء القمر وكيفيّتها أن يتكوّن اللاعبون من فريقين كل فريق يذهب إلى جهة معاكسة لجهة الخصم ويبدأ بإحدى طريقين، إما أن يضع خطوطاً بأصابع اليد على الرمل في أماكن خفيّة في ظلال الجدار بالقمراء وتحت الأشجار وغيرها، أو أن يضع أكواماً صغيرة من الرمل في الأماكن الخفيّة المشار إليها، وبعد انتهاء كل فريق من وضع علاماته بالقدر الكافي ينادي المنادي هل انتهيتم؟ فيقول كل فريق بصوت عال «خلاص» وعندها ينادي «أعقبونا ونعقبكم» فينطلق كل فريق إلى مكان الفريق الخصم ويمسحون خطوط وأكوام الفريق الثاني وعند الانتهاء ينادي المنادي «خلاص» ثم يجتمع الفريقان معاً ويذهبان كلجنة حكم إلى مكان أحد الفريقين وأي خط لم يمسح أو كومة لم تمح تعتبر نقطة لصالح الفريق الذي توجد بميدانه، وعند الانتهاء من هذا الميدان ينتقلون إلى الميدان الثاني، وتعدّ النقاط الباقية لهم، ويرى أي الفريقين أكثر من منافسه يكون الفائز باللعبة، وتعتمد هذه اللعبة على الخفّة في الحركة، ودقّة الملاحظة، وفن التمويه، وتكسب الشباب الرياضة الجسمية، حيث يقضون الساعات الطويلة في هذه اللعبة الممتعة.

□ لعبة «الجلدية» «الحول»:

لعبة «الجلدية» أو الحول» تشبه إلى حدّ كبير لعبة «الجلف» المنتشرة في الغرب، إن لم تكن هي مع بعض التطوير والتنظيم في الغرب، ويتم اللعب بين لاعبين متقابلين وبينهما مسافة تتراوح بين ٢٠ ــ ٥٠ متراً تقريباً على خط هو نقطة البداية، ومع كل واحد منهما عصاً غليظة ذات رأس معقوف قليلاً ويوضع قطعة من عظم رأس ورك البعير بحجم أكبر من البيضة ثم يضعها على خط مستقيم ويمسك اللاعب العصى بكلتا يديه ويضربها بشدّة، بحيث يحاول إيصالها إلى خط صاحبه ويحاول خصمه إرجاعها دون أن تصل إلى خطّه، وكلما ضرب أحد اللاعبين الكرة «الجلدية» وأوصلها إلى ما بعد خط صاحبه بضربة واحدة دون أن تمسّ الأرض أو تتدحرج عليها تحتسب له نقطة كاملة، ويتم تغلّب لاعب على الآخر بعدد النقاط التي يحرزها، بينما المتفرّجون يقفون بعيداً عن أطراف ميدان

اللعب، ويجري الحكم بين اللاعبين من أحد المتفرّجين ويقف كل واحد منهم موازياً لخط أحد اللاعبين ويجري اللعب في وقت الأصيل وربما بعد صلاة الظهر في الأيام الباردة، ويمارس اللعبة الشباب الأقوياء والكبار والرجال وهي لعبة محبّبة لها عشّاقها وهي مفيدة من الناحية الرياضية.

□ لعبة «عنّة»:

لعبة «عنّة» هي إحدى الألعاب الشعبية المشهورة التي يمارسها الشباب من مختلف الأعمار، وغالباً تكون في أوائل الليالي المقمرة أو بعد العصر وتحت ظلال الأشجار والنخيل، وكيفيّتها أن يتم خط دائرة يتراوح قطرها ما بين ٥ ــ ٢٠ متراً على أرض ليّنة، ويبدأ اللاعبون واحداً بعد الآخر بأن يثني إحدى رجليه أو يعقلها بحزام أو حبل يجمع الفخذ والساق، وتبقى الرجل مربوطة بهذا الشكل وأحياناً بدون رباط على أن تبقى مثنية، ثم يقف اللاعب على رجل واحدة ويبدأ «يَعُنّ» يقفز عليها ويدور حول هذه الدائرة مرة بعد الأخرى إلى ثلاث مرات بشوط واحد، وكل ثلاث مرات يدور على الدائرة تحتسب له نقطة واحدة، وأحياناً كل دورة نقطة واحدة حسب الاتّفاق، وإذا كانت اللعبة من شخصين فينبري أحد اللاعبين ويتبعه الآخر يطارده فإن أمسك به قبل أن يتم كامل الدائرة فتعتبر هزيمة لصاحبه، كل هذا يجري واللاعبون كل منهم على رجل واحدة ينقز عليها نقزاً، ومن مزايا هذه اللعبة تقوية عضلات الرجلين والصدر، مع خفّة في الحركة والتعوّد على القفز، ويمارس هذه اللعبة كبار الشباب وهي محبوبة لدى الكثيرين.

□ لعبة «البير» «الحدل»:

لعبة «البير» أو «الحدل» هي إحدى الألعاب الشعبية المشهورة المنتشرة بين الشباب وخاصة الكبار منهم، و«البير» هو عصا قصيرة طولها أقل من «الشبر» حوالي ١٥ سم يضرب بعصا يقارب طولها ٦٠ سم، وكيفية اللعب أن يتم تحديد خط بداية وخط نهاية، ويقف كل لاعب على خطّه وكــل واحد معه عصاه

ويمسك أحدهما العصا الصغيرة «البير» بجانب قبضة يده ثم يقذفه بالهواء ويعترضه بالعصا الطويلة يضربه فيها ضربة توصله إلى خط النهاية، فإن سقط قبل خط النهاية أعاد الضربة مرة ثانية بإيقافه على الأرض، فإن لم يوصله فلا يحق له ضربة مرة ثالثة وبنفس الطريقة غير أنه يركّزه على كومة من التراب ويمسك العصا بكلتا يديه ليضرب «البير» بالعصا الكبيرة حتى يوصله إلى خط النهاية، فإن لم يستطع سقط حقّه في اللعب وجاء لاعب آخر. وعلى اللاعب المغلوب أن يحمل رفيقه على ظهره من مكانه الذي يقف فيه حتى خط النهاية لرفيقه، وإن أوصل «البير» إلى خط النهاية بضربة واحدة ردّه عليه اللاعب الثاني بنفس الطريقة، وهذه اللعبة شبيهة بلعبة «الكرة» أو «الجولف» تفيد عضلات اليدين والصدر.

□ لعبة «طَرَّهْ»:

لعبة «طرة» إحدى الألعاب الشعبية المنتشرة بين الشباب وأكثر ما تجري في الليالي المقمرة وربما المظلمة، وكيفيتها أن يجلس واحد من اللاعبين كنقطة ارتكاز ويسمى «الأم» ويمسك بطرف «غترة» اللاعب الذي يبدأ اللعب ويضع اللاعبون «غترهم» لدى «الأم» يضعها بجانبه ويمسك اللاعب الطرف الآخر «للغترة» التي يمسك اللاعب الأم طرفها ويبد اللاعب بحماية «الغتر» الموجودة بقرب الأم في نفس الوقت يحاول اللاعبون نهب «غترهم» بينما اللاعب الذي في الميدان يدافع عنها برفس المهاجمين باحدى رجليه وهم يحاولون انتزاعها منه في هذه المحاولة والمراوغة فإن تمكن اللاعب من إصابة أحد المهاجمين بضربة ولو خفيفة وحتى لمسه في أي جزء من جسمه دخل هذا المصاب في الميدان وأمسك «الغترة» وبدأ يدافعُ عن البقية وصار اللاعب الأول من ضمن المهاجمين وإن تمكن المهاجمون من انتزاع «الغتر» من أمام اللاعب المدافع فإن كل واحد منهم يأخذ «غترته» ويفتلها ويبدؤون بضرب اللاعب المدافع «بالغتر» المفتولة وهو يحاول جاهداً إصابة أحدهم بالرفس ومتى أصاب واحداً منهم فإنه يحل محله، وهذه اللعبة تحتاج إلى المهارة والحذر وشدة الانتباه وخفة الحركة التي يتطلبها الموقف ويمضي

الشباب في هذه اللعبة الساعات الطويلة دون أن يشعروا بها وهي مقيدة جسمياً.

□ لعبة شد الحبل:

لعبة شد الحبل «الرشا» هي من الألعاب الموجودة لكنها أقل انتشاراً من غيرها وهي لا تختلف عما هي عليه في الوقت الحاضر ويمارسها الشباب على مختلف المستويات والأعمار ويتم لعبها ليلاً ونهاراً بحيث يجتمع اللاعبون في مجموعتين ويكون هناك حبل غليظ أو رشا يمسك كل فريق بطرف منه ويتم الاستعداد للبدء بالشد، ويعد من ١ ــ ٣ وعندها يمسك كل مجموعة بسحب المجموعة الثانية بينما تلك المجموعة تحاول الثبات بمواقعها وجر المجموعة الخصم إلى أن يتم سحب أحد المجموعتين وهي رياضة بدنية تنمي عضلات اليدين والصدر والرجلين والبطن ولها عشاقها من الشباب.

□ لعبة «المَزَاقِيْط»:

لعبة «المزاقيط» هي لعبة شائعة ومنتشرة لدى الشباب والشابات ووقت لعبها في النهار تحت ظلام الأشجار والنخيل وحيطان البيوت على أرض لينة وربما صلبة نوعاً ما، واللعبة هي عبارة عن خمس حصيات، يلعبها اثنان يتقابلان جالسين على الأرض ومعهما الحصيات الخمس ينثرها اللاعب للمرة الأولى ويختار واحدة منها فيقذفها في الهواء قليلاً ويفرش ظهر كفه تحتها لتفريق الحصى ويختار واحدة منها «المزقاط» ويقذفه بالهواء قليلاً ويلتقط حصاة ثم يلقفه قبل أن يقع على الأرض، ثم يقذفه مرة ثانية ويلتقط حصاة ثانية ويلقف «المزقاط» وهكذا حتى نهاية الحصيات وتسمى هذه المرحلة «فردية» وبعد استكمالها ينثرها مرة ثانية ثم يختار واحدة منها يلتقطها اثنتين اثنتين بعد قذف المزقاط «بنفس الطريقة الأولى وتسمى هذه المرحلة «ثنائية» ثم ينثرها مرة ثالثة ويختار «المزقاط» منها ثم يقذفه للهواء على نفس الأسلوب ويلتقط ثلاث حصيات في كفه ثم يضعها كومة على

الحصاة الباقية بعد قذف «المزقاط»كَسبٌ» ثم يقذف «المزقاط» في الهواء ويأخذ الأربع حصيات دفعة واحدة ويتقلف «المزقاط» وتسمى «كمش» ثم يكون إبهام يده اليسرى مع السباية على شكل قوس واقف على الأرض بشكل بواية ثم يأخذ كامل الحصيات بيده اليمنى ويلويها من خلف القوس وينثر الحصيات بحيث يترك المجال للخصم أن يختار «خاله» من هذه الحصيات، وهنا يأتي دور الخصم ليخار الحصاة القريبة من البوابة أو في الطريق إليها، ويبدأ اللاعب بقذف «المزقاط» وادخال الحصى حصاة بعد أخرى في كل قذفة بحيث لا يلمس «الخال» وعندها يكون قد فاز باللعبة واعتبرت له نقطة كاملة، أما إذا سقط «المزقاط» على الأرض بأية قدفة، أو لم يستطع اللاعب أخذ حصائين في «الزوج» أو ثلاثاً في «التثليث» أو بقيت حصاة واحدة في «الكمش» أو لمس «الخال» اثناء ادخال الحصيات فإن حقه في اللعبة يسقط وينتقل اللعب إلى زميله، ولهذه اصطلاحاتها المتعارف عليها وهي لعبة تسلية وتنشط الذهن لدى اللاعبين ودقة الانتباه والحذق في التصرف.

□ لعبة الخذروف « الدوامة أو المعول»:

والخذروف أو «الدوامة»، «المعول» هي لعبة شعبية منتشرة لدى الصبية ويلعبها اثنان أو أكثر وربما تكون فردية بحيث يملك كل صبي أو شاب خذروفاً خاصاً به وتجري المباراة على أرض صلبة في الشوارع وتحت ظلال الأشجار والنخيل، والخذروف معروف منذ القدم وقد ورد في شعر امرىء القيس حيث يقول واصفا فرسه بسرعة الجري والافترار:

دريـر كـخـذروف الـوليـد أمـره
تـقلب كـفـيـه بـخـيط مـوصـل[1]

(١) ديوان امرؤ القيس، ص ١٥٥.

والخذروف عبارة عن قطعة صغيرة من الخشب مصنوعة بشكل اسطواني مدبب الرأس ينتهي رأسه بمسمار يدور عليه، فيلف الصبي عليه خيط رفيع محكم من رأسه إلى قاعدته، ثم يمسك بطرف الخيط ويرمي به بشدة إلى الأرض ويحرص أن يكون وصوله إلى الأرض على محور الارتكاز ومع قوة الحذف وانتقاض الخيط من حوله بقوة وسرعة يحدث للخذروف دوران شديد على الأرض يستمر إلى خمس دقائق تقريباً ثم يأخذه الصبي ويلفه من جديد ويحذفه إلى الأرض، وهكذا دواليك، ويتبارى الصبية في أيهما يبقى خذروفه يدور مدة أطول ويكون له صوت «خنين» حينما يقذفه على الأرض، وهي لعبة شيقة وممتعة للصبية يقضون فيها أغلب أوقاتهم.

□ لعبة البقرة:

ولعبة البقرة هي لعبة يمارسها الشباب في بعض الليالي التي تكون قمراؤها غير ساطعة، ويقوم بها مجموعة من الشباب وقوامها شخصان يضعان كتلة من الملابس على شكل رأس بقرة له خرطوم وأذنان ويمسكه أحدهما بيديه ويركع حاسراً عن رجليه إلى ما فوق الركبة ويمثل الجزء الأمامي من جسم البقرة ويأتي زميله ويسند يديه إلى ظهر صاحبه ويحسر عن رجليه أيضاً ويمثل الجزء الأخير من جسم البقرة ثم يُغَطَّيَانِ بجلال يغطي جسميهما ولا يظهر إلا رجليهما التي تتراءى للناظر في الظلام وكأنها قوائم البقرة ثم يبدآن بالمشي على هيئة مشية البقرة ويحدث الأمامي صوتاً يشبه خوار البقرة، وعادة تعمل هذه اللعبة في الليالي التي تكون القمراء ضعيفة أما أول الشهر أو آخر وربما الليالي المظلمة بحيث تكون مفاجأة للمجتمعين الذين لم يعلموا إلا ظهور البقرة عليهم مما يحدث ضجة وفزعاً للصغار ويمضي الشباب الساعات الممتعة في متابعة هذه البقرة بالشوارع والممرات وقرب البيوت.

□ لعبة الكعوب:

الكعوب جمع كعب وهو عظيمة مستقلة في عرقوب أرجل الماشية وما يهمنا هو كعب الغنم والماعز والغزلان والوعول وهي من الألعاب الشعبية المنتشرة

بشكل واسع بين الشباب وربما لا تجد أحداً من الشباب لا يعرف لعبة الكعوب ولها قوانينها واصطلاحاتها المتعارف عليها، ولها أسماؤها وأنواعها ، وأفضلها كعوب الوعول لثقل وزنها تليها كعوب الغزلان لثقلها أيضاً وتليها كعوب الخراف المسنة «القارح» ثم كعوب الضأن والماعز، ومن أسماء الكعوب «الصولة» وهي من أكبرها وهي التي يضرب بها صف الكعاب في ميدان الدائرة، ولزيادة ثقلها ينقر بطنها ويصب فيه «القصدير» و«السحلية» وهي ما يحك جانبيها بصخرة حتى تصير ملساء في جانبيها وذلك لسهولة انتصابها على أحد الجانبين الأملسين، وينقر وسطها أيضاً ويصب فيه القصدير لزيادة ثقلها وبقية الكعوب عادية، ويحرص الصبية والشباب على جمع الكعوب فيفرحون وقت ذبح الأضاحي أو الذبائح لا من أجل لحومها ولكن من أجل كعوبها.

وأول ما ينتزعون من الذبيحة كعباها قبل أكل لحمها ومتى حصل الشباب على مجموعة من الكعاب يشعر وكأنه أصبح «مليونيراً» ولعبة الكعوب تتم بطريقتين الأولى يلعبها اثنان يجلسان متقابلين ويشتركان في لعبة وادة وربما اشترك في اللعبة أربعة أفراد في حلقة واحدة يجمعون الكعوب كل واحد كعبين أو ثلاثة وكل بالطبع عارف ما يخصه وينثرونها ويقول من ينثرها على الأرض قائلاً: «الديش» الديش ولد الرديء ما يعيش» وعند نثرها ينظرون إن كان انتصب من كعوب أحد اللاعبين واحد على جنبه يعتبر أكل ما يوالي وجهه حسب الاتفاق وإن لم ينتصب من هذه الكعوب شيء يعاد جمعها ونثرها من اللاعب الثاني وهكذا والكعب الجيد في نظر صاحبه ما يكسب أكبر عدد من الكعاب ويكسب ويخسر الفرد في هذه اللعبة فربما يدخل الميدان ومعه عدد كبير منها ويخرج صفر اليدين إنما بروح رياضية سمحة، وربما دخل الميدان ومعه كعب واحد وكسب العشرات منها ومتى كسب أصبح فرحاً مسروراً وكأنه حاز على جائزة «نوبل» في العصر الحاضر، أما الخاسر فيشعر بالامتعاض ولكنه لا يغضب، والمثل الشعبي يقول: «الغَلَبَةْ شَيْنَة حَتَّى بِلَعِبِ الكُعُوْبْ». أما الطريقة الثانية فهي لعبة الميدان وهي وضع دائرة قطرها حوالي ٤٠ ــ ٥٠ سم وصف الكعوب بطريقة رأسية على مستطيل من حفاد الرمل وتعيين خط النهاية ويسمى الميدان ببعد من ٥ ــ

١٠ أمتار يقف عليه اللاعب ويصوب «صولته» ويضرب فيها صف الكعوب، وكلما أخرج كعباً بنفس الضربة فقد كسبه ثم يقف مكان استقرار «الصولة» فيضرب البقية فإن أخرج كعباً آخر وقف مكان «الصولة» مرة أخرى وضرب البقية ومتى أخرج كعباً ثالثاً استمر حتى يخرج كل ما في الميدان وبقية اللاعبين يتفرجون دقيقي الملاحظة على ضربات اللاعب ومتى أخطأ فقد سقط حقه في المتابعة وإن لم يستطع اللاعب إخراج أي من الكعاب في البداية أو في المرحلة الثانية سقط حقه وبدأ اللاعب الثاني مكانه على نفس الطريقة واللعبة لها من الاعراف والاصطلاحات المتعارف عليها في غاية الدقة وأعلى درجات الاحترام، ومع هذا فإن كعوب اللاعبين عرضة للنهب من قبل الآخرين ولذلك عندما يرى اللاعبون شاباً قادماً يقولون له «شورك» وهذه الكلمة تحمي كعابهم وتمنع الشاب القادم من اختطافها ولذلك هو يحترم هذه الكلمة، وإن لم يقولوا هذه الكلمة هجم على الكعاب ونهبها قائلاً: «نكخي بالشور ما شورلي» ويأخذها منهم ويجلس معهم يشاركهم في اللعب «المقاشط» للكسب أو الخسارة دون أي احراج أو اعتراض منهم، ولذلك تجد اللاعبين يحرصون أشد الحرص على الانتباه للقادمين واطلاق تلك الكلمة على القادم بصوت يسمعه، وربما بلفظ أدق وأعم إذا كان من المشهورين بنهب الكعوب وهو «شورك عما ينوي به قلبك وينطق به لسانك» لذلك يضمنون عدم خطفه لكعوبهم وأحياناً يختفي من ينوي اختطاف الكعوب خلف أي انسان قادم في طريقه إلى اللاعبين حتى يصلهم وهم لا يشعرون به وعندها يفاجئهم لهذا يحرص اللاعبون على الحيطة والحذر من كل قادم، وما قد يخبىء خلفه.

ولعبة الكعوب محبوبة من الجميع فإلى جانب كونها رياضة ذهنية وعضلية فهي تنمي لدى الأفراد حب الكسب بالصفقات «التجارية» واحترام القوانين والتعليمات.

□ لعبة المخططه «أم تسع»:

لعبة المخططة أو «أم تسع» من الألعاب الشائعة والمنتشرة بشكل كبير ويلعبها الشباب والكبار وتتخذ للتسلية مثل لعبة «الورق البلوت» في الوقت

الحاضر إلا أنها شبيهة إلى حد كبير بلعبة الشطرنج، ويجري لعبها وقت الفراغ ليلاً ويلعبها الذين لا عمل لهم وميدانها على أرض لينة تتضح عليها خطوط الأصابع وخطوطها ثلاثة مربعات بعضها داخل بعض فالمربع الخارجي طول ضلعه حوالي ٤٠ سم والمربع الأوسط طول ضلعه ٣٠ سم والمرابع الداخلي طول ضلعه ٢٠ سم، ويقطع هذه المربعات خطان يتقاطعان في نقطة واحـدة بوسط المربع الصغير، ويلعبها اثنان لدى كل واحد منهما تسع حصيات يختلف لونها عما في يد رميله، ويتقابل اللاعبان ينزل كل واحد منهما الميدان بالتتالي في عملية التثبيت ينزل كل منهما حصاة وينزل خصمه أخرى وتحتاج عملية النزول إلى تفكير وإدراك في اختيار المواقع المناسبة، وبعد وضع كامل الحصى في الميدان تبدأ عملية الحركة «القفش» و«الطخ» وتتحرك كل حصاة بنفس خطها يميناً وشمالاً وأما ماماً وخلفاً وتتبع حصوات الخصم لاحراقها أو أن تتخذ موقفاً دفاعياً والحصاة التي يجري إحراقها معنوياً توضع في الوسط على تقاطع الخطين وعندما تزحف الحصاة وتأتي على حصاتين في صف واحد لا حامي لهما فإنها تحرقهما، أو عندما تزحف حصاتان في صف واحد مع حصاة ثالثة للخصم فانهما تحرقانها، واللعبة لها مصطلحات متعارف عليها تحكمها، ويمكن أن تختلف هذه المصطلحات من مكان إلى آخر، وهي شبيهة إلى حد كبير بلعبة الشطرنج من حيث الأحكام والتصديق وهي رياضة ذهنية مفيدة ولها شعبية كبيرة بين الشباب والكبار.

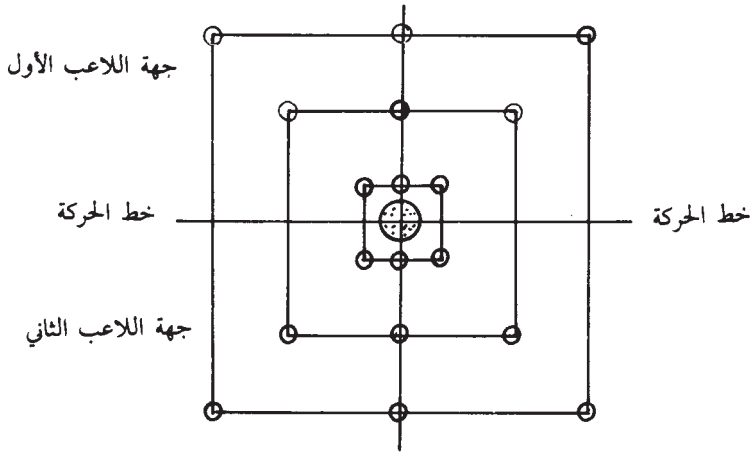

□ لعبة «أم خطوط»:

ولعبة «أم خطوط» من الألعاب الشعبية الواسعة الانتشار بين الشباب والشابات وتعمل على شكل مستطيل مقسم إلى أربعة أقسام متساوية يفصل بينهما خطان متوازيان في نصف المسافة بعرض حوالي ٢٠ سم وما بين هذين الخطين يعتبر استراحة اللاعبين وتتم اللعبة بالطريقة الآتية: قوام اللعبة قطعة من الخشب أو عظم ضلع البعير أو البقرة حجمها حوالي ٣ × ٥ سم يرميه اللاعب خارج المستطيل ثم يبدأ ادخال العظم بإمساكه بأصباع رجله التي يرتكز عليها في القفز ويثني الرجل الأخرى والرجل التي يقفز عليها القفزات المتتابعة هي التي يلتقط العظم بأصابعها فيدخلها للمستطيل الأول ثم يخرجها منه ثم يدخلها المستطيل الثاني ويخرجها منه ثم ينقلها للمستطيل الثالث ويستريح في منطقة الاستراحة ثم يخرجها مرة ثالثة ثم يعيدها عبر المستطيلات الثلاثة حتى يصل بها إلى المستطيل الأخير ثم يخرجها ويحظر على اللاعب سقوط العظمة من رجله في أي مرحلة من مراحل اللعبة وإلا خسر اللعبة ودخل الميدان غيره، كما يحظر عليه أن يطأ أياً من الخطوط التي تقسم المستطيلات عدا ما بين خطي الاستراحة وموعد هذه اللعبة في النهار أو في الليل بالأماكن المضاءة بضوء القمر على أرض صلبة ويخطط لها على الأرض أو بصبغ أو شيء له أثر وتجد اللاعبين أو اللاعبات في مجموعات وكل مجموعة على حدة ويمضون بهذه اللعبة ساعات ممتعة، وهي رياضة بدنية ممتازة وذلك بسبب عملية القفز التي تجري أثناءها، ولها قواعدها واصطلاحاتها المتعارف عليها ويجري احترامها من الجميع بدرجة عالية.

(١)	(٢)	منطقة الاستراحة	(٣)	(٤)

□ لعبة «طبق لولو»:

لعبة «طبق لولو. . طبق مرجان» من الألعاب المنتشرة بين الفتيات والصبايا بصفة خاصة ويتم ممارسة هذه اللعبة داخل البيوت وفي الساحات المغلقة وهي لعبة ثنائية تتقابل فيها اللاعبتان يتقابلن ويصفقن بالأكف كل واحدة تصفق بكف الثانية وتقول الأولى ماذا تعطيني؟ فترد عليها الثانية. أعطيك طبق لولو، وتسأل الثانية وأنتي ماذا تعطيني فتقول لها الأولى: أعطيك طبق مرجان وهنا تسند الأولى ظهرها إلى ظهر الثانية ويتماسكن بالأيدي من فوق متونهن وتحمل أحداهن على ظهرها من خلال إمساكها بكفيها قائلة «طبق لول» ثم تنزلها إلى الأرض فترفعها زميلتها بنفس الطريقة قائلة «طبق مرجان» ويبدأن بالتأرجح هذه مرتفعة والأخرى نازلة ويرددن كلمات «طبق لولو. . طبق مرجان ومن شروط هذه اللعبة أن تكون الفتاتان بسن متقاربة وأجسامهن متقاربة أيضاً وأي واحدة منهم تعبت من نقل زميلتها تكون قد خسرت اللعبة، وهي لعبة رياضية ممتازة تجلب المرح والسرور وتفيد اللاعبات بصلابة الأجسام ونمو العضلات الصدرية وهي محبوبة لدى الفتيات.

□ لعبة العرائس «العياج»:

لعبة العرائس «العياج» من الألعاب الخاصة بالفتيات والصبايا منذ سن مبكرة حيث تُكَوِّنُ هذه اللعبة لديهن عالماً مستقلاً بذاته، نموذجاً مصغراً لما تدركه عقولهن من العالم المحسوس فالعروسة التمثال هي عبارة عن قطعة من العظم الأبيض أو قطعة خشب صغيرة يربط في أعلاها عود يعتبر مبثابة اليدين للإنسان، وتشق لها قطع القماش وتلف عليها كملابس وقد تخاط لها الملابس، وتفرش قطع من الخرق كفراش ودثار، وتصفف لها قطع من المجسمات الصغيرة تمثل بمفهوم الصغيرات أدوات منزلية، ويؤتى لها بأدوات الزينة المتاحة والتي تدركها الصغيرات، وهي بنطرهن تمثل دور سيدة بيت بمالها وما عليها حسب مفهومهن وما اكتسبنه من بيئتهن، وتستنطق ويحكى على لسانها طلباتها وتملي على الآخرين متطلباتها ويدور حوار من الصبية الصغيرة على لسان

عروستها مع زميلتها التي تتكلم بلسان عروستها، ويجري حديث ذو شجون حسب إدراك الصغيرات، وأسلوبهن في الحديث، ويَسْبَحْنَ في خيال عميق على ألسنة عرائسهن، قد ينسين معه أنهن لا يزلن في عالم آخر غير الذي يتحدثن عنه، وتمضي الساعات الطويلة، ويأخذ منهن الجوع مأخذه دون أن يشعرن به لما هن فيه من الانسجام والمتعة في عالم لعبة العرائس، ويتضايقن حين يقطع عليهن هذه الأوقات الشيقة والمحببة إلى نفوسهن حتى ولو كان هذا الحادث في صالحهن وقد يرفضن تناول طعام وجبة الغذاء أثناء ممارستهن هذه اللعبة ووقت لعبها في النهار في إحدى زوايا المنزل، وهي لعبة مفيدة تنمي لدى الصغيرات الخيال الواسع وتوحي لهن بالنضوج الفكري المبكر وتوقظ لديهن الشعور بتحمل المسؤولية المنزلية، وهي لعبة محببة لدى الجميع.

□ لعبة «حبح حوح»:

هذه اللعبة أيضاً تخص الفتيات، ويلعبنها داخل البيوت وفي الساحات المغلقة بعيداً عن أماكن تواجد الشباب، وهي لعبة جماعية تتجمع الفتيات والشابات في حلقة متكاملة ممسكات أيدي بعضهن البعض قافزات قفزات خفيفة يرددن كلمتي حبح.. حوح» سبع مرات ثم يفردن الحلقة بصف طويل وكل واحدة تلوي جسمها لتدخل من تحت يدها ويد جارتها المتماسكتين ثلاث مرات من اليمين إلى الشمال وثلاث مرات من الشمال إلى اليمين ثم يغلقن الحلقة مرة ثانية، ويبدأن بالقفز الخفيف وترديد كلمتي «حبح.. حوح» ثم يجلسن في لحظة واحدة ويصفقن بأكفهن وهن جلوس على إيقاعات متتالية ثم ينهضن ويقفن فجأة، ويعدن نفس القفزات والكلمات ويعاد هذا الوضع أربع مرات، وهذه اللعبة رياضية مفيدة للفتيات وهي ممتعة وشيقة ولها قواعدها ومصطلحاتها وايقاعاتها المتعارف عليها.

□ لعبة «غُمَيَّا»:

ولعبة «غُمَيَّا» من الألعاب المنتشرة بين الصبية والشباب وربما بين الصبايا، وهي عبارة عن لعبة تعمية للشخص، اللاعب وكيفيتها أن تعين نقطة نهاية

تسمى «الأم» سواء أكانت دائرة على الأرض أو أي إشارة أخرى أو شخص يجلس بالوسط، ويكون هو بمثابة نقطة الارتكاز يتم التجمع حولها وبعد ذلك تعصب عيون أحد اللاعبين، ثم ينفرق الباقون في كل اتجاه ويأتي من عميت عيناه يتلمس أحد من أصحابه على حس وقع أقدامهم على الأرض أو أصواتهم، ومتى قبض على أحد منهم قبل وصوله إلى الأم فإنه يحل محله وإن لم يمسك أحداً قبل وصوله إلى نقطة النهاية فإنه يستمر باللعب مرة ثانية وثالثة وبعد الثلاث مرات يستبدل بغيره، ومكان لعبها في مكان فسيح ذي أرض مستوية خالية من العوائق وليس بها ما يؤذي، من أحجار وغيرها. وتتم هذه اللعبة ويجري خلالها الضحك على حركات معصوب العينين.

□ لعبة «طوط»:

لعبة «طوط» شبيهة بلعبة «غميا» غير أنها تجري في الليال الظلماء ولا يكون الشخص معصوب العينين وإنما يكون الظلام الذي أسبل ستاره على الكون كفيلاً بتعمية اللاعب عن أبصار بقية الفريق وفي نفس الوقت يكون ميدانها أكبر حيث يأتي اللاعب إلى الشخص الجالس في نقطة النهاية «الأم» وهذا يمسك بعيني اللاعب حتى يتفرق صحبه شذر مذر ويختفون في أماكن هنا وهناك وعند استكمال اختفائهم يطلقون صوت «طوط» كل في مكانه وعندها تأتي الأصوات من كل اتجاه في وسط هذه الظلماء وعندها يركض اللاعب باتجاه أحد الأصوات التي انطلقت قبل لحظة، في نفس الوقت يتجه اللاعبون إلى نقطة النهاية «الأم» مبتعدين عن اللاعب يراوغونه بحذر وحذق حتى لا يلمس جسم أحدهم أو يمسك به وعند وصولهم إلى نقطة النهاية «الأم» يعتبرون دخلوا منطقة الأمان، أما عندما يمسك أحدهم أو يلمس أي جزء من جسمه فإنه يحل محله في اللعبة أما إذا لم يتمكن من لمس أحدهم أو الإمساك به فإنه يستمر إلى ثلاث مرات، ويمضي الصيبان وربما الصبايا أوقات سعيدة بهذه اللعبة وهي شعبية واسعة الانتشار ولها فوائد كثيرة منها الرياضة الجسمية والنفسية والتدريب على السير والركض في الظلام، والتدريب على الرؤية الليلية وإبعاد شبح الخوف من الظلام عمن يمارسها من الشباب.

□ لعبة الخيل «الأسياخ» السيارات:

لعبة الأطار «الأسياخ» هي لعبة انتشرت مؤخراً ولا تزال آثارها باقية حتى الوقت الحاضر، وتتخذ من إطارات معدنية يكون لها مقـود من عصا برأسه إطار حديدي له ثنية تلف على الاطار من جهة واحدة ويمسكه الصبي ويدفع به الاطار ويركض وراءه، ويعملون لهذه اللعبة مسابقات هي في الواقع لنفس الشباب إنما تأتي تجاوزاً باسم الاطارات حيث يصف الشباب باطاراتهم ينطلقون بها من نقطة البداية إلى نقطة النهاية حتى يصلوا اليها وأيهما كسب قصب السبق يعتبر إطاره هو السابق، ولهذه اللعبة شبيهة على نفس النمط وهي لعبة السيارات وهي عبارة عن عجلتين من الخشب تسمى «قرقر» يثبتان في عارضة صغيرة ويكون مقوده عصا طويلة يـدفـع الصبي تينك العجلتين اللتين تجريان بفعل دفعه لهما ويركض الصبي وراءهما وتجري مسابقة مثل لعبة الأسياخ وهاتان اللعبتان قد تطورتا من لعبة «الحصان» وهي جريدة النخل محنى جذعها بحيث يرتفع إلى أعلى ويمسكها الصبي مع طرفها الرفيع ويدفعها إلى الأمام وبحكم انحنائها يرتفع جذعها عالياً ويراها وكأنها الحصان وتجري لهذه اللعبة مسابقات شبيهة بسابقاتها، وهذه الألعاب مفيدة جداً رياضياً وصحيـاً للصبية حيث تعودهم على الجري والركض لمسافات طويلة ويمارسها الصبية والشباب بدون ملل ويقضون أوقاتاً سعيدة بممارستها.

وهناك ألعاب أخرى مماثلة لم أتمكن من إدراجها لعدم استكمال المعلومات اللازمة لها وسوف نضيفها مستقبلاً.

□ □ □

الفصل التاسع عشر:

الناحية الصحية

◻ الصحة العامة:

الصحة العامة في هذه البقعة بوجه عام جيدة، عدا ما يعتور السكان من الأمراض العادية الناتجة عن تقلّبات الجو، وبصفة خاصة في أواخر فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء الذي يسمّونه «الصّفِري»، حيث تكثر الأمراض الصدرية والنزلات المعوية، والحصبة للأطفال، وفيما يجتاح المنطقة في بعض السنين من الأمراض المعدية الفتّاكة مثل، الطاعون، الجدري، الحصبة، وحمى الملاريا، ولكنها تفد إلى المنطقة في فترات متباعدة نسبياً، وحّمى الملاريا توجد بصفة مستمرة في بعض الأماكن الموبوءة بهذا الداء، وهي تلقي بثقلها على الوافدين إلى هذه الأماكن، أما أهلها المستقرّون بنفس البلد فيكون وقعها عليهم أخفّ من غيرهم، وذلك بسبب ما اكتسبوه من مناعة ضد هذا المرض، وسبب انتشار هذه الأمراض يعود إلى عدم وجود المضادات الحيوية والعقاقير والأمصال التي يتمّ بواسطتها مكافحة هذه الأمراض وحصرها أو القضاء عليها، أما السبب في تمتّع الأعداد الكبيرة من الناس بصحة جيّدة رغم تناقص كمية الغذاء أحياناً، وعدم الاعتناء الكافي بالنظافة العامة، ونقص الملابس الواقية الكافية عند بعض الطبقات، فيعود إلى ما يتمتّع به السكان من نشاط وحيوية في ممارسة أعمالهم اليومية بكل جدّية وعزم وعدم تناولهم وجبة الطعام إلا وهم جياع وبحاجة إلى تناولها، مما يجعل هضمها سهلاً سريعاً، بحيث لا تتراكم في

أجوافهم وينتج عنها التلبّك والأمراض المعدية، وذلك عملاً بالقول المأثور: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».

كما أن الهواء الطلق الذي يستنشقونه من الأجواء النقيّة من أي تلوّث ينقّي فيهم الدورة الدموية وينشّطها، أما الجهد الجسماني الذي يبذلونه في سبيل تحصيل لقمة العيش فيحرق الطاقة الزائدة لديهم من الطعام والشراب، أما الأمراض النفسية وهي أمراض العصر الحاضر، فليس لها سبيل إلى نفوسهم، وذلك لما يتمتّعون به من راحة نفسية، حيث لا يهم الفرد منهم سوى أداء عمله الذي يقوم به ويحصل منه على لقمة عيشه، يتّقنه وينجزه فقط، وتمثّل هذه النظرة السـود الأعظم من الناس، وينظرون إلى الأمور البسيطة بدرجة أبسط مما هي عليه فعلاً، ولبعد المسافة بين مكان وآخر بسبب المواصلات المتاحة آنذاك أثراً كبيراً في عدم وصول الأخبار التي تشغل تفكير الناس، وذلك قبل انتشار المخترعات ووسائل الإعلام الحديثة التي تقض مضاجع الناس بأنبائها وما تحويه من أشياء مزعجة، أما الملابس فبرغم قلّتها وشحّ الجيّد الملائم منها، فإنهم يتكيّفون مع الأجواء المتقلّبة التي يعيشون فيها بحيث تكتسب أجسامهم مناعة ضد تقلّب الطقس من حين لآخر، كما يأخذون استعدادهم للوقاية من البرد المسبّب لكثير من الأمراض وذلك بإعداد مواقد الحطب داخل البيوت، ومراعاة هذه الناحية عند تصميم البيوت وتنفيذها. أما النظافة العامة في المأكل والمشرب والملبس، فبرغم الهفوات التي تتخلّلها إلا أن قوة أجسامهم ومناعتها جعلها تقاوم تأثير الطفيليات والجراثيم العالقة بها وتقضي عليها، وذلك بمصاحبة الثقة التامة في نفوسهم بعدم تأثيرها، وعدم الاهتمام بالآلام البسيطة التي قد يكون لها أثر نفسي كبير فيما لو فكر فيها الفرد بعمق، كما أنهم يشغلون فراغهم بالفنون والألعاب المختلفة التي تطرد عنهم الملل والسأم وتُدخل في نفوسهم البهجة والسرور، وتجعل الفرد منهم يأوي إلى فراشه خالي الوفاض من مشاغل الحياة ومنغّصاتها، وينام مرتاحاً ليستيقظ لعمله نشيطاً في اليوم التالي، هذه بصفة عامة بعض المؤثّرات الأساسية التي جعلت الناس يعيشون بهذه البقعة وهم يتمتّعون بصحة جيّدة بوجه عام.

□ العناية بنظافة الأجسام:

وبما أن جسم الإنسان يحتاج إلى النظافة بصفة مستمرّة وبدونها قد تغزو جسمه الأمراض الظاهرة والباطنة، وحيث أن وسائل النظافة الحالية لم تكن متوفّرة آنذاك، حيث لا يوجد سوى الماء الساخن وبعض أوراق الأشجار اللزجة والمزبدة عند عرك الأجسام بها مع الماء الساخن وذلك مثل ورق الطلح «الخبط» ورق الشنان والسمح وغيرها، ومع ذلك فقد حافظ الناس بقدر المستطاع على العناية بنظافة أجسامهم، كما أن للدين الحنيف فضلاً كبيراً في موضوع النظافة الذي جعلها جزءاً من الإيمان، حيث يقوم الناس بالوضوء لأداء الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، فيغسلون أطرافهم وأماكن ضرورية التنظيف من أجسامهم عند الوضوء لأداء هذه الصلوات، كما أن الاستحمام عادة محبّبة إلى نفوسهم، وضرورة دينية للمتزوّجين منهم، وإن لم تكن الحمامات داخل البيوت كما هي عليه في الوقت الحاضر إلا أنها وافية بالضرورة، ويغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد الفراغ منه إلا ما ندر، أما الملابس فإنها، كما أسلفنا، قليلة حيث لا يملك الفرد أحياناً سوى ثوب واحد أو اثنين وربما ثلاثة على الأكثر، ولكن رغم هذه القلّة فإن الملابس يتمّ غسلها كلما اتّسخت، ولكن لأسباب أخرى تجد بعض الناس يلبسون ثياباً بحاجة إلى تنظيف مما يترتّب عليه انبعاث رائحة كريهة من أجسامهم وربما توجد حشرات القمل بين ثناياها، وهذا إذا وجد فإن الإهمال وسوء التغذية سببان لهذه الحالة، وهي على كل حال قلّما تحدث إلا عند الطبقة الفقيرة من المجتمع، أما ميسورو الحال فإن النظافة لديهم من الضرورات الأساسية، وتبديل الملابس ظاهرة مألوفة كما أن التطيّب بمختلف العطور من العادات المحبّبة إليهم رجالاً ونساء وخاصة عند الذهاب إلى المساجد لأداء الصلاة، وهي، كما أسلفنا، خمس مرات بالإضافة إلى صلاة الجمعة والعيدين، وبصفة عامة فالنظافة الجسمية مستواها طيّب بالمقارنة إلى وسائل النظافة المتاحة يومئذ.

□ الأمراض السائدة:

إذا أمعنّا النظر بالأمراض السائدة آنذاك نجدها تتركّز بصفة أساسية على الجهاز التنفّسي، والجهاز الهضمي، وذلك بسبب تقلّبات الجو وتغيرّ الطقس المفاجىء أحياناً، خاصة وأنه لا يوجد الملابس الواقية بدرجة كافية ضد لسعات البرد، ولأمراض الجهاز التنفّسي أسماء محلية بالإضافة إلى أسمائها الصحيحة، وإن كان لها اشتقاق من نفس المرض، فمثلاً يسمّون ذات الجنب «بالشَّربَة» والزكام «بالصَّدمة» والسعال «بالقحّة» والتهاب اللوزتين «بالرقَّبة» والصداع بالرأس «بالصَّالب» كما أن أمراض الجهاز الهضمي تحتل المرتبة الثانية بين الأمراض السائدة، وذلك بسبب تناول بعض الوجبات الدسمة، أو الإكثار من نوع معينّ من الطعام، أو تناول طعام نيّىء مما ينتج عنه تلبّك المعدة وذلك بعجز الإفرازات الهاضمة عن تصريف هذا الطعام، وبالتالي عسر الهضم الذي قد يؤدّي إلى انسداد الشهية، وقد يصاحب هذه الحالة اضطراب الجهاز الهضمي وربما حدث حّمى مصاحبة لذلك، وهذه الحمّى سواء الملازمة لهذه الحالة أو حّمى الملاريا لها درجتان وإسمان، فإن كانت الحمّى مصحوبة بارتعاش المريض مع ارتفاع درجة الحرارة والشعور بالبرد الشديد تسمّى «نفَّاضة» وإن كانت حّمى بنفس الحالة الأولى بدون ارتعاش فتسمّى «هَّمَادَة» وقد قرأت مقالاً بمجلة «الفيصل» بعددها رقم ( ) وتاريخ عن المخ أن الارتعاش الذي يصاحب الحمّى ليس من أساس المرض وإنما هذا الارتعاش هو دفاع من الجسم ضد المرض بإيعاز من الجزء الخاص لهذه المهمة في المخ، كما تحتل أمراض الأنسجة العضلية والعمود الفقري المرتبة الثالثة وذلك نتيجة الجهد الذي يزاوله الفرد، فيحدث أن يزاول الشخص عملاً يزيد عن طاقته فيحدث تخلخل في عضلات الكتف أو عضلات الذراعين فيسمّى «بالمشع» أو أن يحمل ثقلاً يزيد عن مقدرته فيحدث في عموده الفقري ركون أو انزلاق ويسمّى «بالمْلعِ» كما تأتي الكسور والرضوض بالمرتبة الرابعة وذلك نتيجة للحياة الكادحة التي يزاولها، ولكل حالة من هذه الحالات علاجها وإن كان علاجاً بدائياً إلا أنه يشفي كثيراً من الناس، وبعد ذلك تأتي أمراض العيون كرمد العيون الحاد «أم ذيل»

أو الرمد الحُبَيبي والصديدي، وأمراض الآذان وأمراض الجهاز البولي واحتباس البول «أمّ الحُقَى» والأمراض الجلدية كالجذام السفلس «البلش» بأنواعه وهو قليل الحدوث، والحبة «الحبطة» وهي سرطان الجلد، وأمراض الجهاز العصبي «الفالج» وهو نادر الحدوث، والأمراض النفسية «كالجنون» والصرع.

□ الأمراض الطارئة:

أما الأمراض الطارئة ــ كفانا الله شرّها ــ فهي ما تفد إلى المنطقة بين الحين والآخر ولكن من رحمة الله بعباده أنها تأتي في فترات متباعدة تعدّ بالسنين عدا مرض الحصبة فهو كثير التردّد ربما سنوياً، ومن هذه الأمراض الطارئة، الطاعون والجدري، وحّمى الملاريا، والحصبة، فالطاعون «الكوليرا» يفد في أوقات متباعدة لكنه يفتك بالناس ويبيد المئات منهم في فترة وجيزة وربما قضى على قرى بأكملها ويسمّى هذا المرض «بالرَّحَمْة» ولا أدري ما هو السبب لهذه التسمية إذ ربما لكثرة من ينتقل بسببه إلى رحمة ربّه كالذي حدث سنة ١٠٨٦ هـ بمنطقة الخليج وامتد إلى شرقي نجد، وكما حدث عام ١٢٤٦ هـ في مكة المكرّمة وانتقل منها إلى جنوبي نجد، وما حدث عام ١٣٣٢ هـ وعمّ المنطقة بكاملها، أما الجدري فيطرق المكان في فترات أقرب أي في ظرف عشرات السنين، ويبدأ الناس في عملية اللقاح ضدّه، وذلك بأخذ جزء من صديد الشخص المصاب وبضع عضد الشخص السليم، ويوضع قطعة من القطن بها جزء من هذا الصديد على المبضع وتربط برباط، وتسمّى «عضبة» وبذلك يكتسب الشخص السليم مناعة ضد هذا المرض، غير أنه يفتك بأعداد كبيرة من الناس، ويترك بصماته البغيضة على وجوه من نجا منهم، كما يبقي أزراره البيضاء على عيون بعضهم إن لم يفقده كامل بصره، وعند حلول هذا المرض تجمع النساء عيّنات من جميع أنواع الأطعمة وأصناف اللحوم التي يحتمل أن تؤكل في فترة النقاهة من المرض، ثم تطبخ في إناء واحد وتسمّى «القِرْوُ» ويأكلها المريض أو يشرب مرقها كنوع من الحيطة وذلك لاعتقادهم أن المريض إذا تناول أي نوع من هذه الأنواع في فترة النقاهة وهي أربعون يوماً التالية

لإصابته في المرض لن يضرّه. أما إذا أكل صنفاً من الأصناف التي لم يذقها مع هذا الخليط فإنه يحصل له مضاعفات من المرض وانتكاسة ربما تؤدّي إلى وفاته أو إحداث تشويهاً بجسمه ببصره. وتسمّى «بالرَّمحة» ولذلك يتم منع المريض عن تناول الأصناف التي لم يذقها مع طبخة «القرو» ولهذا الغرض تجد العجائز يحتفظن بعيّنات من مختلف أنواع اللحوم جافّة وخاصة لحم الفحل من الضأن والماعز والإبل وغيرها من الأشياء ذات التركيبات الحادة، وإذا أصيب فرد أو عدة أفراد بداء الجدري فإنه يجرى لهم العزل اللازم بعيداً عن البلد لمدة أربعين يوماً، وربما كان هذا العزل في بيوت مهجورة بأطراف البلد، ويتردّد عليه واحد أو اثنان من أقاربه ليأتوه بالطعام والشراب، ولا يؤكل بالأنية التي يستعملها، وهؤلاء الذين يلجون إلى المصابين لا يختلطون بالناس كثيراً خشية انتشار العدوى، ويتم أخذ الصديد من المريض بواسطتهم، وتطعيم بقية الناس، وبذلك ينجو الكثير من شر انتشار هذا الوباء، وربما كان مكان العزل بعض القلاع القديمة أو الأبراج المحيطة بالبلد وقد يطلق على بعضها «برج المُجدَّر»، وهذا شاعر قد أصيب بالجدري ولا يفد إليه سوى نسوته وأخواته الباكيات الحزينات تحت جنح الليل مما كان له الأثر الكبير في نفسه حينما طالت عليه مدة العزل مثنياً على جرذان يؤنسه يسير بقربه متنقّلاً بين جحوره في سويعات النهار الأخيرة، حيث يقول:

٣٧٩ ـ وأرجلي اللي عدّ بيها جبارة
تسعين ليلة عن فم البرج ما أسير

٣٨٠ ـ الله يبيّض وجه راع الخبارة
وأعصير لياد لا يقد المسايير

٣٨١ ـ لياجا سواد الليل وأقبل سماره
تقابلن يشدن حنين المخاوير
(راشد المضيان)

ومن أصيب بالجدري مرة فقد اكتسب مناعة ضد هذا المرض طول عمره أما حمّى الملاريا فكما أشرت منها المستوطن الدائم في بعض الأماكن وهذه خفيفة التأثير بالنسبة للمستوطنين بهذا المكان، أما من جاءه وافداً فوقعها شديد عليه، وقد تأتي بموجات متباعدة وأكثر ما تنتشر في آخر فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء فيما يسمّى «الصِّفري» وتفتك بالكثير من الناس لا سيما إذا وجدت في الشخص أمراضاً أخرى أو كانت قوة مقاومة الجسم لها ضعيفة، خاصة عند كبار السن، أما الحصبة فإنها تنتشر بسرعة بين الأطفال ولا يتّخذ إزاءها أي إجراء سوى تدفئة المريض وعدم تعريضه للهواء لمدة ثلاثة أيام حتى يخرج طفح الحبوب على جلده، ويجمع له عيّنات من «القِرو» كما في حالة الإصابة بالجدري، ويمنع عن أكل الأصناف التي لم يذقها في حبينها، وإذا حصل انتكاسة للمرض على المريض بسبب تناوله شيئاً لم يذقه تسمّى «الرمحة» وأكثر ما تؤثّر في العيون فتفقدها بصرها أو بالأمعاء فتمزّقها وتؤدّي إلى الوفاة، والواقع أن الأوبئة الطارئة قد أفنت الآلاف من البشر قبل أن يمنّ الله على الناس بمنجزات العلم الحديث من الأمصال والمضادات الحيوية التي يجعل الله بسببها نجاة كثير من الناس وإزاحة كابوس هذه الأمراض الثقيل الجاثم على صدر البشرية.

□ التداوي بالأعشاب:

يلجأ الإنسان تحت وطأة المرض إلى البحث عن كل ماني‌عتقد أن فيه شفاء لمرضه، وبحكم التجربة فقد استخدم بعض الأعشاب لمعالجة عدد من الأمراض خاصة في الأجسام المتشابهة في المناعة الداخلية، وقد يفيد الدواء لإنسان ولا يستفيد منه الآخر وذلك لاختلاف تفاعلات الأجسام الداخلية، ومن الأعشاب التي تستعمل في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر أوراق شجيرة «السنا» وأراق شجيرة «الحرمل» وحب شجيرة «بزر الدود» كل هذه الأنواع تفيد لتنظيف الجهاز الهضمي وتستعمل «كَحَلَّة» بعد غليها بالماء وشرب مائها، أو سحقها والتهامها، كما أن أوراق شجيرة كل من البعيثران، والشيح، والقيصوم تفيد في علاج تلبّك المعدة وضعف إفراز مرارة الكبد، وتسحق

أوراقها حتى تكوّن مسحوقاً ناعمًا ثم تلتهم التهاماً، كما تفيد شجيرة «الجَنْبَة» الشوكية في تنظيف المسالك البولية، وتفكّ احتباس البول وما يسمّى «أم الحِقى» كما يفيد دخان شجيرة «الحَزَا» وهدب الأثل وقشور البصل في تخفيف حالة تسمّم الجروح وذلك بوضعه على جمر وتعريض المصاب لدخانه «كَبُوْ» كما أن مجاميع أخرى كثيرة لا حصر لها من هذه الأعشاب تستعمل لكثير من الأمراض وبذلك ترى الإنسان بهذه البقعة استفاد من كثير مما حوّله في علاج نفسه ضد بعض الأمراض ونجح إلى حدّ كبير، وإن لم يكن النجاح المدعم بالنتائج العلمية إلا أنه أدّى خدمة ضرورية في وقته وحسب وسائله وإمكانياته.

□ التداوي بالمركّبات:

وكما هي الحال بالتداوي بالأعشاب فإن هناك أيضاً مركّبات أخرى يعود بعضها في الأصل إلى الأعشاب، والبعض الآخر إلى المعادن والكيماويات، وهذه المركّبات تستعمل لعلاج بعض الأمراض، ومن هذه المركّبات، الصِّبْر، والحِلْتِيب، والمر، وصَمغة الريح، و«الزَّاج» و«التوت» نترات النحاس، واللبان المر، وغيرها كثير يفوق الحصر، وتستعمل مثل هذه المركّبات لعلاج أمراض الجهاز الهضمي، كما تستعمل بعض الأفادية والفلافل في علاج أمراض الجهاز التنفّسي، والحلق والحنجرة كما يستعمل الكحل المخلوط ببعض العناصر الكيماوية بمقادير مناسبة لعلاج الرمد بأنواعه، وهذا المخلوط يسمّى «باللعوط» كما تستعمل بعض المركّبات الأخرى النباتية والكيمائية المنقوعة بالماء والمسمّاة «بالسَعُوط» لعلاج الأطفال من بعض الأمراض وخاصة ما يسمّى «بالأخت، الخشة» وهي ما يحصل للطفل من اضطراب المعدة المصحوب بالإسهال أو الاستفراغ، وذلك إثر تناوله وجبة ثقيلة من الطعام أو تناول أمه وجبة دسمة إذا كان الطفل رضيعاً، ويقوم بالعلاج في كل هذه الحالات النساء، ويكون لبعضهن معرفة تامة بمختلف الأمراض نتيجة لطول التجربة لديها، فأول ما تبدأ المرأة بمداواة أولادها والحاذقة منهن تبرز في هذه الناحية، وبصفة عامة فإن المرأة تقوم بنصيب كبير في هذا الميدان حيث تقوم بالتمريض والمداواة لأبنائها وذويها،

وتجد عند أغلبهن ما يشبه الصيدلية المتنقّلة من هذه الأدوية، في مجموعة من الصُّرَر والزجاجات، وتقوم بتركيب الدواء اللازم عند الطلب، ثم تسحقه وتعطي الإرشادات اللازمة لاستعماله، وقد تكون جهّزت لكل مرض ما يناسبه من هذه الأدوية مسبقاً، كما تستعمل بعض المساحيق المركّبة لعلاج الجروح الظاهرة.

□ التداوي بالعزائم والتعاويذ:

الأمراض النفسية، كمسّ الجن، والصرع، وحالات الغيبوبة المؤقّتة التي تنتاب بعض الناس وتكثر عند النساء تعالج بالعزائم والتعاويذ، فالعزائم يكتب فيها آيات مختارة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية وأدعية من الكلام المأثور، ثم تُلفّ وتغلّف بقطعة من الجلد وتُعلّق بعنق المريض، مع تحاشي وضعها في حالة النجاسة، أما التعاويذ فهي كذلك شبيهة بمضمون العزيمة إلا أن القارىء يحضر إلى المريض أو يُحضَّر له، ويبدأ بقراءة آيات من الذكر الحكيم سراً والأحاديث والأدعية وينفث على المريض في فمه مع همز أنحاء معيّنة من جسمه، وبإذن الله يتم شفاء المريض بعد ذلك، أما في حالة التشنّج أو الغيبوبة بمسّ الجن، فيعمد القارىء إلى تربيط بُهُم المريض ليديه ورجليه بخيط ثم يبدأ بالقراءة والنفث عليه، وقد رأيت بعيني قارىء يقرأ على مريض وهو مربوط ويقول المريض كلاماً في غير واقعه، ويقصّ قصصاً شبيهة بالخيال، ويحاور محاورة وكأنه يتكلّم على لسان إمرأة، وعندما عاهد القارىء على الخروج من جسم المريض وعدم العودة إليه بعهود يمليها عليه القارىء بعد ذلك عمد القارىء إلى فكّ رباط أحد إبهامَي الرجل المريض، وعندها غمس المريض إبهامه المفكوكة في الأرض حتى اختفى ظفرها ثم ركّزها مشدودة لمدة حوالي دقيقة، وكأنها تفرغ شحنة كهربائية في الأرض، وبعدها استرخى المريض ثم خمد في فراشه، وبدأ العرق يتصبّب من جسمه وغطّ في نوم عميق لمدة ساعة، أفاق بعدها متعباً لا يدري ماذا جرى عليه في تلك الفترة من الزمن، وعندها نهض لا يحسّ بأي ألم، وأسوأ ما في التعاويذ هي عادة النفث والتفل بالماء

أو الملح، ذلك أنه يوضع قليل من الماء في وعاء يقف فيه أحد الغلمة في باب المسجد وكل من خرج منه نفث فيه أو تفل، وبعد ذلك يؤتى بهذا الماء إلى المريض ليشربه، وهي ولا شك عادة سيّئة تضرّ المريض كثيراً وذلك فيما يحويه هذا الماء من آثار أنفاس الناس وربما تفالهم بما تحمل من جراثيم وأمراض قد يكون المريض في غنى عنها. أما فيما يتعلّق بالإصابة بالعين «النحاتة» وهي الحسد فلا يشفي منها سوى نفث المسبّب «الحاسد» على المريض، وهذه أشياء ثابتة أيضاً ولها ناس مشهورون إذا تكلّم أحدهم كلمة أصاب هدفه، هذه الأمراض النفسية تفيد فيها التمائم والتعاويذ بإذن الله، وقد أدّى هذا العلاج دوره كاملاً في حينه ولا يزال ساري المفعول حتى الوقت الحاضر. ولا يفيد فيه من مخترعات الطب الحديث شيئاً.

□ التداوي بالكيّ:

يقول المثل العربي «آخر الطب الكي» والكي يعتبر علاجاً ناجحاً لبعض الأمراض وذلك قبل إيجاد وسائل العلاج الحديثة، وإن كنت لا أستطيع اكتشاف كنه ذلك، ولا علاقة الكي بشفاء هذا المرض أو ذاك، إلا فيما يخرج من مكان الكي من الصديد والمواد الأخرى، التي ربما يكون موضع الكي قد امتصّها من داخل الجسم، أو أن تكون وجدت متنفّساً لها من خلال هذا الثقب في الجلد، ومن الأمراض التي يفيد فيها الكي مرض ذات الجنب «الشربة» ومرض الرمد الحاد «أم ذيل» ومرض التهاب اللوزتين الحاد، ومرض اضطراب الجهاز الهضمي «الخَشَّة» ومرض «الشقيقة» «الصالب» والفتق في التحام عظم الجمجمة «أبو دمغه» ومرض ارتخاء عضلات الوجه النصفي «أبو وجه» واحتقان الأذن وإيقاف الدم وغير ذلك من الأمراض التي لا تحضرني أسماؤها، ولكن الكي يحتاج إلى شخص بصير بمواقعه على الجسم ولديه خبرة ودراية في هذا المجال لأن الكيّة إذا أخطأت الموضع المقرّر لها فإنها لا تفيد وربما تشوّه وتزيد المريض سوء، غير أن الخطأ السائد هو الكي لأمراض لا يفيدها، أو الكي بمواضع غير ملائمة، من هذا ترى التشويه المكروه. وبهذه المناسبة فإنني أدعو الأطباء النابعين

من هذه البيئة والذين يعرفون كثيراً من الأمراض التي يفيد فيها الكي أن يجروا بحثاً أكاديمياً علمياً لمعرفة علاقة الكي بشفاء هذه الأمراض، بصرف النظر عن الآراء التي تنكر ذلك حتى يثبّتوا للعالم صحة ما أشار إليه الإسلام في هذه الناحية، وما أعتقد أن الأطباء الصينيين الذين أثبتوا للعالم علمياً طريقة التخدير بوخز الإبرة المستخدمة قديماً أكثر جدّية من شبابنا، ولا النظرية التي اتّبعوها أكثر صدقاً وحقيقة مما أشار إليه الإسلام في الحديث الشريف «الشفاء في ثلاث، شربة من عسل، أو شرطة محجم، أو كيّة نار[1]، وفي رواية آي من قرآن أو لعقة عسل أو لذعة من نار» وما أخالهم إلا فاعلين.

□ التداوي بالحجامة والفصد:

الحجامة هي استخراج الدم من مواضع معيّنة من جسم الإنسان بواسطة أدوات بدائية، ومقدار كمية الدم المستخرجة بهذه العملية هو حوالي ٥٠ سم٣، أما الفصد فهو كذلك استخراج كمية من الدم بنفس الكمية تقريباً عن طريق فرض أحد أوردة اليد بمشرط أو موس بشقّ طولي، وتوضع يد المريض بإناء كبير بداخله ماء ساخن، ويبدأ الدم ينزف من خلال هذا الجرح تحت مراقبة الشخص الذي أجرى العملية، ومتى رأى المريض قد فقد الكمية المطلوبة من الدم وبقيت فيه الكمية الضرورية أوقف النزيف وذلك بحزم الجرح، وإن تعذّر إيقاف الدم بهذه الطريقة العادية فيؤتى بشيء من بيت العنكبوت ويوضع على الجرح ليقف حالاً. أما إن كان الفصد بالرأس فلا يغمس بالماء وإنما يترك يقطر منه الدم تحت المراقبة الدقيقة، وعند الضرورة يجري شد الوريد المجروح حتى يقف الدم. وتجري عملية الحجامة لعدد قليل من الناس وخاصة كبار السن، وذلك على رأس السنة، ويلجأ إليها من يشتكي ثقلاً في الرأس أو القدمين ويعتقدون أن خروج هذا الدم الفاسد يخفّف من هذه الآلام والواقع أنها تجديد دوري لكمية الدم الموجودة بجسمه، وتجري عملية الحجامة من أعلى الرقبة

---

(١) الطب النبوي ص ٣٨٠.

الخلفي في أسفل الرأس، ومع الأكتاف، ومن خلف القدم بجانب العقب من الداخل، وذكر لي أحد المجرّبين أنه يشعر بارتياح بعد سحب كمية الدم منه، أما الفصد فإنه يجري للرأس على يمين الجبين أو شماله من فوق الحاجب، وذلك لمن يشعر بثقل بالرأس، ويجرى الفصد لمن أصيب بذات الجنب مع العضد، وقد شاهدت بعيني مريضة مصابة بذات الجنب ويحشرج نفسها بالنزع الأخير، وجاء الرجل الذي فصدها فوضع يدها في إناء مليء بالماء الساخن ثم تحسّس الوريد اللازم فصده ففرضه بموس معه، وترك السائل الأحمر ينساب من الماء الساخن، وبعد حوالي عشر دقائق لاحظنا المريضة بدأت تتنفّس بسهولة، وبعد عشر دقائق أخرى رأيناها تفتح عينيها وتحاول أن تتكلم، وعند ذلك أوقف الرجل خروج الدم بربط الموضع، فبدأت تتنفّس بسهولة وشعرت بالارتياح، ونصح بأن تشرب ماء العرن وهو شجر يستخدم لدبغ الجلود ولونه أحمر قان مرّ المذاق، نصح بأن تشرب من مائه خفيفاً وعندها تماثلت للشفاء بعد ثلاثة أيام، أما السائل الذي خرج منها وبقي بالإناء فقد تجمّد في كتلة واحدة ذات لون وردي ومادة مخاطية وبقي في الماء قليل من الدم بقدر ما غيرّ لون الماء قليلاً، وهذه الطريقة معروفة ومشهود لها بالنجاح بإذن الله إذا جاءت بالوقت المناسب.

◻ جبر الكسور:

يُعتبر جبر الكسور على الطريقة العربية ناجحاً حتى الوقت الحاضر وخاصة الأعضاء البارزة، كاليدين والرجلين وحتى الأعضاء الداخلية، ورغم عدم وجود الوسائل العلمية لجبر الكسور آنذاك إلا أنهم يعملون شرائح من الخشب أو جريد النخل بما يزيد عن طول موضع الكسر قليلاً، ويوضع لهذه الشرائح رباط في طرفيها يترك بين الشريحة والأخرى مقدار ٢ سم، ثم يجهّز الجابر لفائف من القطن والقماش وبعد ذلك يجذب العضو المكسور ويمسّه جيّداً حتى تتراكب أجزاء العظم تماماً ثم يمسكها بيده ويضغطها ويفركها حتى تتراكب بصفة جيّدة ثم يلفّ عليها لفّة من القماش وفوقها لفّة أخرى من القطن ثم طبقة من القماش، ويضع عليها الجبائر ويربطها جيداً بما لا يعوق حركة الدم من الجريان

في العروق ويكون المكسور تحت ملاحظة الجابر بين الحين والآخر ويحجب عن أكل كثير من الأطعمة، عدا الحنطة والسمن البري واللحم بالإضافة إلى حبة الحلبة لمدة أربعين يوماً، وبإذن الله يكون بعدها قد عاد عضوه المكسور إلى ما كان عليه قبل الكسر، ويختلف جابرو الكسور من شخص إلى آخر من حيث اتّقان العمل واعتدال العضو في حالة الجبر، كما هي حالة الأطباء في الوقت الحاضر، وهناك ظاهرة أودّ التنويه عنها وأرجو أن تعطى الدراسة والتحليل الكافي للاطّلاع على كنهها، فقد حدّثني ثقات أن الكسير قبل بلوغه أربعين يوماً يمكن أن ينكسر عظمه إذا تناول تمراً، أو جامع زوجته حتى ولو كان لم يتحرّك من مكانه، فعند هاتين الحالتين ينكسر العظم في الحال، وقد أفادني أحد جابري العظام بأنه إذا كان جبر العضو مائلاً فما عليه سوى تقديم شيء من التمر للمريض حتى يشبع منه وعند ذلك يشعر المريض بآلام مبرحة، وينكسر العظم بعد ذلك في الحال، ويتم جبر العظم وتعديله مرة أخرى، فيا ترى ما هو السر في ذلك؟؟ وما هي المواد الكيماوية التي يحتوي عليها التمر وتجب العظم الطري بهذه السرعة، وكذا الحال بالنسبة للجماع؟؟.

□ □ □

الفصل العشرون:

السكن

□ الإطار العام للبيوت:

تمتاز هذه المنطقة بطابع خاص، يميزها عن غيرها من المناطق الأخرى وان كانت لا تختلف عنها كثيراً، وتخضع لعدة اعتبارات عند تصميمها منها الاعتبارات الاجتماعية، والأمنية، والصحية، والمناخية، والجمالية، مما يكسبها ملامح مميزة يجعلها تحتفظ بها طيلة أجيال متتالية، مع بعض التطوير التعديل، وعلى العموم فالناس لا يهتمون كثيراً بزخرفة وتنميق البيوت إلا بقدر ما يفي بالضروريات ويخدم الأهداف التي سبقت الاشارة إليها، وإذا ألقينا نظرة على المنزل في هذه المنطقة وجدناه يتألف من ثلاثة أحجام تقريباً هي القصر وهو أكبرها وهو ما يختص به الأمراء وذوي الشأن وعلية القوم، والمنزل العادي الوسط وهو ما يكتنف الغالبية العظمى من أفراد هذا المجتمع، والمنزل الصغير وهو ما يحتضن أفراد أسرة الطبقة الفقيرة وأرباب الأسر الصغيرة، ولنأخذ الحجم المتوسط مثلاً لأن خير الأمور أوسطها، فنجد الملامح الرئيسة لهذا المنزل من حيث التصميم قد أضفت عليه يد التطوير مسحة من التحسين، فبعد أن كان العمود الفقري للبيت هي غرفة المستودع للمواد الغذائية وتسمى «القصبة» أو «المقصورة» وهي عبارة عن غرفة كبيرة أو غرفتين أحدهما بداخل الأخرى في وسط المنزل، وتكون المقصورة من دورين أو ثلاثة وهي بمثابة رأس الهرم، تحيط بها غرف النوم المرافق والمنافع الأخرى، وهي بصفة عامة رديئة التهوية، ويأتي بمحاذاتها مجلس الرجال «القهوة» «الديوانية» وبجانبها المساحة المكشوفة الواقعة

بجانبها وهي مكان للحطب ومن خلفها تجد حوش للابل، ومربط للفرس، وزريبة الغنم والبهائم وقد صمم البيت بهذه الطريقة حتى يخدم الناحية الأمنية بالدرجة الأولى بحيث يأوي الرجل إلى بيته وجميع ممتلكاته المنقولة بحوزته وتحت حمايته وعادة تكون المقصورة من دورين فأكثر، وبها سلم داخلي وبها بروز على شكل مربعات ذات ثقوب يطل منها على ما حوله تسمى «القاتولة» أو «الطرمة» وهي معدة للدفاع عن البيت ومحتوياته إذا لزم الأمر من خلال هذه الثقوب بالنبال، ثم بالبندقية، إلى أن أصبح المنزل بعد ذلك أحسن تصميمًا فقد وضعت الغرف بصف واحد وسقف جزء من المساحة الواقعة أمامها المسمى «مجبب» أو «قبة» وتقوم على صف من أعمدة الحجر والجبص أو الطين أحياناً وترك من هذا الجزء مساحة مكشوفة داخل المنزل للتهوية، كما أبعدت دورة المياه عن غرف النوم، وتم سقف جزء من المساحة المكشوفة بجانب غرفة الرجال «القهوة» وسميت الايوان «الليوان» وذلك للجلوس فيها في فصل الصيف والخريف. وتكون المنزل من دورين الدور الأعلى تسمى غرفه «رواشن» والسقف الذي أمامها تسمى «مصابيح» ثم أضيف إليها تصميم ثالث بحيث يبقى مجلس الرجال وايوانه ومرافقه على ما هو عليه ووضعت بقية الغرف في مربع واحد مع مرافقها وأمامها «المجبب» القائم على صف من أعمدة الحجر والجص على شكل مربع يتوسطها صحن مكشوف مناسب يعطي التهوية اللازمة للمنزل وربما غرس في هذا الصحن شجرة أو نخلة.

هذا من ناحية التصميم أما التنفيذ فقد كانت المنازل تبنى من الطين على أساسات من الحجر، وربما بنيت حتى السقف الأول من الحجر وما بعده يكمل بالطين سواء أكان على هيئة لبن أو مداميك «عروق» من الطين، وأحياناً تبنى من أساسها بالطين عروق واللبن، وتكسى في كلا الحالين بالجص الأبيض من الداخل وربما من الخارج وتتوج البيوت «بالشرف» وهي شرفات بأعلى ذروة الجدار ثم تكسى بالجص الذي يعطيها منظراً خلاباً وتسقف البيوت بخشب الاثل، وأحياناً بجذوع النخل مع جريد النخل وخوصه، وتعمل لها

الأبواب من خشب الاثل وجذوع النخل، ويتفنن النجار باتقان صنعه للأبواب واقفالها الخشبية «ضباب» مفردها «ضَبَّة» سواء ما كان منها بالمفتاح أو «المزلاج» وهي على درجة جيدة من القوة والاتقان. وإذا نظرنا إلى التنفيذ من ناحية التهوية فإننا نجد الشبابيك تشبه الكوَّة الصغيرة قد يصل اتساعها إلى ٤٠ × ٤٠ سم وتكبر قليلاً في الغرف التي توقد فيها النار كا «لقهوة» والمطبخ ولا يوضع لهذه الشبابيك أبواب عدا ما يوضع لها من شبك جريد النخل في شكل مربعات تمنع العصافير وغيرها من ولوجها، وتحت تأثير الناحية الأمنية فإن الشبابيك ترفع إلى ما دون السقف قليلاً، والحقيقة أنها توضع بأشكال هندسية رائعة حيث توضع على شكل مثلث متساوي الساقين بوضع هندسي يجعلها في زوايا مثلث كبير أو مربع أو مستطيل تعطي المبنى من بعيد منظراً جيداً وقد روعي أثناء التنفيذ تقلبات المناخ من شتاء وربيع وصيف وخريف، فلذلك نجد الناس يحرصون ما أمكنهم على أن تكون واجهات المنازل إلى الشمال أو الشرق، وإذا لم يتيسر ذلك بحكم موقع البيت فإنهم يجعلون الدور الثاني «الرواشن» و «المصابيح» على هذا الاتجاه وذلك الاستفادة من الهواء البارد القادم من جهة الشمال، واغتنام ظلال العصر في فصل الصيف، كما يجري رفع الأسقف للغرف العادية بما يقارب الأربعة أمتار لجلب البرودة صيفاً ويرتفع مجلس الرجال «القهوة» حوالي ستة أمتار لنفس الغرض ولكون هذا المكان توقد فيه النار على مدار فصول السنة ويوضع في سقفه فتحة لها غطاء متحرك محكم تسمى «كشافة» أو «سوامة» تفتح عند الحاجة وعند امتلاء الغرفة بدخان الحطب بالاضافة إلى نوافذ الغرفة المرتفعة تحت السقف مباشرة والمفتوحة على الدوام.

كما يوجد بالمجلس أو أحد أركانه موقد النار الكانون أو «الوجار» وبه توقد النار وبجانبه يجلس الشخص الذي يتولى عمل القهوة وتجهيزها وهو مكان دلال القهوة وأباريق الشاي، كما يوجد إلى جانبه المكان المعد للدلال والأباريق الزائدة عن الاستعمال العادي ويسمى «كُمَار» وعادة يكون مزخرفاً بزخارف وأشكال هندسية رائعة من الجص وللمجلس «القهوة» عناية خاصة من حيث الزخرفة والنقوش الجذابة وكتابة الآيات القرآنية والأحاديث والأقوال المأثورة والحكم كما

يوجد داخل جدران البيت سواء في القهوة أو القبب وحتى الغرف مجموعة من الأوتاد المثبتة بالجدار عند البناء يسمى واحدها «خِلَالْ» يعلق فيها الأسلحة والملابس والأشياء الأخرى ونأتي لغرفة النوم لنجدها قد أقتطع منها بأحد أركانها جزء محاط بجدار على ارتفاع متر تقريباً يملأ هذا الجزء بالتبن أو خوص النخل أو الليف وربما القطن والصوف والرياشي ويفرش فوقه فراش الرجل وزوجته ويسمى هذا المكان «الدَّكَةْ» وهو بمثابة السرير في الوقت الحاضر ونجد في كل جهة من جهات الغرفة حفرة مربعة أو مثلثة داخل الجدار بعمق حوالي ٢٠ سم وسعة ٤٠ × ٣٠ سم على ارتفاع حوالي ١٥٠ سم تسمى «خزانة» وذلك لوضع ذبالة الاضاءة أو السراج فيها أو بعض لوازم الزوجة وأهل البيت.

وتوجد هذه «الخزائن» ببقية الغرف الأخرى أما المطبخ فلا يوجد فيه سوى موقد النار والأثافي أو كرسي القدر بالإضافة إلى حوض الحطب وأدوات الطبخ من قدور وصواني وملاعق خشبية مرتبة على بعضها. ونذهب إلى غرفة المستودع «القصبة، أو المقصورة، أو دار المحل» فنجدها مقسمة إلى عدة أجزاء بجدران يصل ارتفاعها إلى متر ونصف ويزيد أو ينقص ارتفاعها عن ذلك وكل جزء منها يسمى «حوضاً» وكل حوض يخزن به نوع من أنواع الحبوب أما التمر فيكنز بغرفة مستقلة بحياض مماثلة لحياض الحب غير أنها أكثر ارتفاعاً وأتقن بناء ويعتني ببنائها واعدادها، ويوجد بجانبها أوان كبيرة من الجص تسمى الواحدة منها «جصة» تستوعب مئات الكيلوجرامات من التمر، وتستعمل الحصة للأنواع الفاخرة من التمور حيث تتحمل تفاعل التمر الطري ويسيل منها الدبس بغزارة ويعمل لها مجاري ومجامع للدبس تمتلىء وتفرغ بين الحين والآخر، أما الحياض الكبيرة فيوضع فيها التمر الأقل جودة من سابقه والمعد للاستهلاك العادي، وأحياناً تستوعب هذه الحياض آلاف الكيلوجرامات من التمر، وهناك حوض صغير بجانب الباب لجمع نوى التمر «الفصم، العبس» أما مساحات غرف المنزل فعادة يتراوح اتساعها بين ٣ × ٤، ٤ × ٥، ٥ × ٦ متر٢، أما مجلس الرجال فيتراوح اتساعه بين ٥ ×٦، ٨ × ١٠، ١٠ × ١٢ م٢ حسب اتساع الأرض ومكانة صاحب البيت الاجتماعية، وتكون في سطوح المنازل

مصارف للمياه تسمى «مرزاب» مرزاب تصب معها مياه الأمطار إذا هطلت.

أما القصور الكبيرة فلا تختلف كثيراً عن ذلك سوى أنها أكثر غرفاً وأفسح مجالساً وأرحب ساحات وأكثر منافعاً وتنظيمها فيه بعض الاختلاف، أما البيوت الصغيرة فإنها تكون مضغوطة عن الحجم المتوسط بمقدار قد يجعلها لا تفي باحتياج ساكنيها، وبصفة عامة فالمنزل بهذه المنطقة رغم بساطة تصميمه وبدائية تنفيذه إلا أنه يحتفظ بجانب جمالي واضح يبرزه وقوعه على خد أرض فسيحة بجانب البساتين الخضرة وهذا في الأرياف، أما في المدن المزدحمة فإن تناسق البيوت واختلافها في الارتفاع والانخفاض بعضها عن بعض يضفي عليها الطابع الجمالي المميز وذلك بما تحمله من شرفات وطراز بارز من ذات المادة التي تبنى فيها وتعمر هذه البيوت وتبقى قائمة مع الترميم السنوي المستمر إلى ما يصل حوالي مئتي سنة. وتصل أحياناً إلى ثلاثمائة سنة وهي قائمة على حالها.

□ □ □

الفصل الحادي والعشرون:

الأدوات المنزلية

□ أدوات القهوة:

في مجلس الرجال «القهوة» تلك الغرفة الفسيحة التي تعتبر منتدى الرجال الأول يوجد الأثاث الضروري حسب المستوى المعيشي للشخص فيتكون من الحصير وهو «سفيف» الخوص أو «السياح» وهي الأنسجة الصوفية المحليّة عند الطبقة الفقيرة والمتوسطة ومن قطع السجاد والقطائف المختلفة في مستواها لدى الطبقة الغنية يتخللها بين المسافة والأخرى إما «مراكي» يتكأ عليها مثبتة في نفس الجدار أو من الصناديق الصغيرة المنمقة بالنقوش والمرايا ويوضع على كلا الصنفين ارائك محشوة بالريش، أو القطن، والوبر، والصوف، وربما ليف النخل أو التبن، في أعلاها وسائد محشوة من نفس المادة التي تحشى بها سابقتها ويستند الرجال على تلك الأرائك لتناول القهوة العربية مستندين إلى مساند وحجم الواحدة ٥٠ × ٧٠ × ٢٠ سم في مجالس ذوي اليسار، أما في مضارب البادية فيتكىء كبار السن وذوو الشأن وعلية القوم على أرائك ووسائد موضوعة على أشَدَّةِ الهجن، وربما وضع خرج المطية على الشداد بدون أي أرائك أو سائد للاستناد عليه؛ أما أدوات القهوة التي تجدها في كل غرفة «القهوة» فهي كما يلي:

١ ــ **الدِّلَال**: وتتكون في العادة من أربع بأحجام مختلفة أكبرها تسمى «مِصْفَاةْ» وبها تصفى القهوة من «الفثل» تليها في الحجم «المِطْبَاخَةْ» وهي التي تطبخ بها القهوة ثم تلي هذه اثنتان إحداهما أصغر من الأخرى قليلاً

وتسمى كل واحدة منهن «مِبْهَارَةْ» وهما اللتان توضع بهما القهوة ويضاف إليها البهار، الهيل والقرنفل والزعفران وتكون الدلال أما من النحاس الأصفر مطلى داخلها بالخارصين الأبيض لتصبح بيضاء نظيفة من الداخل أو أن تكون من النحاس الأحمر المطلي بالخارصين الأبيض من الداخل والخارج فتبدو بيضا كالمرو ويلزم الدلة الصغيرة «المبهارة» شيء من ليف النخل في مصبها أو خشبة صغيرة وذلك لخروج القهوة صافية دون أن يخرج معها «فَتْل» الهيل.

٢ ــ **المِحْمَاسَةِ**: وهي ما يحمس بها القهوة على النار وهي من الحديد، برأس نصف اسطواني مجوف يبلغ قطره من ٢٠ ــ ٤٠ سم وبعمق من ٤ ــ ٧ سم حسب كبر حجم المحماسة وصغرها ولها عصا من نفس قضيب الحديد مربع الشكل ذو فصوص مربعة بارزة في نفس العصا مطعمة بفصوص من النحاس الأصفر والأحمر ويبلغ طول العصا من متر واحد إلى متر ونصف تقريباً وبطرف العصا الخلفي قرص ثانٍ صغير بطرفه سلسلة تربط بها يد المحماسة، وهي قضيب دقيق من الحديد بطرفه قرص دائري قطره حوالي ٣ سم يتم بواسطته تقليب القهوة داخل المحماسة حتى تنضج.

٣ ــ **«المِبْرَادَةْ»**، وهي وعاء رشيق من الخشب مزخرف ومرصع بالمسامير النحاسية أو مطعم بشرائح من القصدير بنقوش جميلة جذابة وتوضع بها القهوة الحارة رأس من المحماسة حتى تبرد وتكون مهيئة للسحق وتغرف بها القهوة المسحوقة من «النجر» المهراس لوصفها بالدلة.

٤ ــ **النَجْرِ**: وهو المهراس أو المهباش وهو ما تدق فيه القهوة حتى تصبح مناسبة للطبخ، و«النجر» نوعان نوع من النحاس الأصفر المقوي «ماو» وقد صنع بهيكل جميل وهو عبارة عن فوهة عليا ذات عمق يتراوح بين ١٠ ــ ٣٠ سم حسب حجمه تحته عنق اسطوني رشيق يرتكز على قاعدة دائرية مناسبة لحجمه، وله يد من نفس المادة ذات فصوص جميلة ولهذا النوع

صوت جذاب وطنين فاضح يرن بصوته بعدة نغمات خاصة إذا دق القهوة به من له ذوق بتنويع إيقاعات ضرباته. أما النوع الثاني فهو «النجر» المصنوع من نوع من الحجر الجرانيتي اللون المتوفر بمنطقة الجوف بشمالي نجد وهذا النوع يصنع بهيكل مربع يرتفع بجسمه الرشيق بحيث تكون قاعدته أقل من سطحه العلوي بمقدار النصف وينحت بجوانبه الحروف والنقوش الجميلة وبسطحه الأعلى حافة مرتفعة وتجويف بعمق حوالي ٢٠ سم تسمى «عين» النجر توضع بها القهوة وتدق وله يد طويلة غليظة من حجر الصوَّان الأزرق الضارب إلى الخضرة بطول يتراوح بين ٦٠ ــ ١٠٠ سم ويسحق بها القهوة بعد أن تبرد على سطح «النجر» أو «بالمبرادة» وتغرف القهوة من «عين النجر» «بمغرافة» شبيهة بالملعقة المصفحة التي إما أن تكون من الحديد أو النحاس الأصفر.

٥ ــ **فناجين القهوة**: وهي من الصيني ذات النقوش والزخارف الجميلة ولها صينية من النحاس الأصفر المزخرف أو الصاج المدهون أو النحاس الأحمر المطلي بالخارصين.

٦ ــ **«الفَاتِيَةْ»**: وهي صندوق صغير جميل الصنع، بحجم ٦٠ × ٨٠ × ٨٠ سم له أدراج متعددة يوضع بهذه الأدراج القهوة، والهيل، والسكر، والشاي، والقرنفل، والزعفران، والطيب «العود» وغيرها من لوازم القهوة وبأعلاها مكان لصينية الفناجين وكؤوس الشاي.

٧ ــ **أباريق الشاي**: من مختلف الأحجام وهي مصنوعة من «التوتوا» الأبيض ويستعمل لغلي الماء ثم الأنواع الأخرى المصنوعة من الصاج المدهون أو الصيني أو النحاس الأحمر المطلي بالخارصين باختلاف أحجامها وأشكالها.

٨ ــ **الْكُمَارْ**: وهو الجزء الجميل المزخرف بمختلف النقوش بأحد زوايا المجلس وتتم زخرفته بالجبص وتوضع فيه الدلال والأباريق الزائدة عن الاستعمال اليومي وهو مجال للزينة أكثر مما هو ضروري.

٩ ــ **المِبْخَرَةْ**: وهي التي يوضع بها البخور «عود القماري» ويطيب به الرجال وهي مصنوعة من الخشب ومرصعة بالمرايا والمسامير النحاسية الصفراء ذات الأقراص المنفوخة ومطعمة بشرائح من القصدير بنقوش دقيقة جذابة ولا يخلو مجلس منها.

١٠ ــ **الملقط**: وهو ما يتلقط به الجمر وما تحرك به النار ويساوي به الحطب فوق النار وهو قضيب مصفح من الحديد بطرفيه قرصان مصفحان يتلقط بهما الأشياء.

١١ ــ **المِنْفَاخُ**: وهو ما ينفخ به النار حتى تشب في الحطب وهو عبارة عن طبقتين من الخشب على شكل الفكين بشكل اسطواني مستطيل يرتكزان على نقطة ارتكاز بطرفها أنبوبة صغيرة بطول ٣٠ سم وفي الفك الأسفل ثقب يدخل منه الهواء ويغلق عند الضغط، مثل لسان الحنجرة، وما بين الفكين ملبس بالجلد الناعم المحكم بالمسامير الصغيرة، وعند رفع الفك العلوي يرتفع غطاء الثقاب الموجود بالفك الأسفل ويمتلىء ما بينهما بالهواء وعند ضغطه يغلق الثقب ويندفع الهواء مع الأنبوبة مشبهاً لعملية الزفير للإنسان فيزجر النار على الاشتعال، ويتم تزيين المنفاخ بالنقوش والأصباغ والمرايا والمسامير النحاسية حيث يبدو تحفة رائعة.

□ أدوات المطبخ:

تتكون أدوات المطبخ من القدور المصنوعة من النحاس الأحمر المطلي «مربوب» بالخارصين من الداخل ويتم طلاؤها بين الحين والآخر وذلك لضمان بقائها نظيفة بيضاء من الداخل على اختلاف أحجامها، وكذلك الصواني المصنوعة من النحاس الأحمر والمطلية بالخارصين كذلك من الداخل والخارج تبقى بيضاء لامعة ولها أحجامها المختلفة أيضاً ويحتوي المطبخ العادي مجموعة كبيرة من القدور وأكبر ما يتسع لطبخ ذبيحتين بكاملهما ويتسع لحوالي ١٥٠ لتراً مكعباً من الماء وبه حلقتان أو ثلاث حلقات وذلك لنقله وتركيبه أو تنزيله وتأتي

الأحجام التي تلي ذلك حتى أصغرها الذي تطبخ فيه وجبة الأسرة ثم يلي ذلك الأحجام الصغيرة المستخدمة للقلي وهو ما يتسع لحوالي لتر واحد من الماء، أما في مطابخ بيوت الأمراء وعلية القوم فهناك أحجام أكبر من القدور حيث يوجد قدر جزور، وجزورين أي ما يتسع لطبخ لحم بعيرين كاملين أو بعير كامل بكل أعضائه ويكون ارتفاع إطارها القائم حوالي ١٥٠ سم وقطرها ٢٠٠ سم تقريباً وتستوعب من الماء حوالي ١٠٠٠ لتر مكعب وبها ثماني حلقات لنقلها فارغة وتركيبها وعادة مثل هذه القدور تستخدم عند إعداد الولائم الكبيرة وتتدرج بقية الأحجام كما سبقت الاشارة إليها.

أما الصواني فنجد أحجامها كذلك تواكب أحجام القدور حيث يوجد صوانٍ تتسع لجزور بكاملها تبرَّكُ عليها مطبوخة ناضجة وتحتها الطعام المطبوخ المتيسر، ويصف حواليها عدد من الخراف الناضجة بكاملها، وكأنها حبوب الخاتم تحيط بفصه الكبير وهذه الصواني الكبيرة لها صحن علوي يبلغ قطره ٢٥٠ سم تقريباً ولها قاعدة اسطوانية ترتكز عليها ويساعد القاعدة عدد من الأعمدة الحديدية تثبت بحافة السطح وعلى حافة القاعدة، وعادة مثل هذه الصواني تسير على عجلات وذلك لعدم إمكانية نقلها بالأيدي مع وجود عدد من الحلقات بها قد تصل إلى ثماني حلقات ليتمكن الرجال من زحزحتها ووضعها كما يجب، ويليها الصواني من نفس النوع إلا أنها أصغر حجمًا حيث تتسع لذبيحتين «خروفين» مع الزاد الموضوع تحتهما وهذه يكون لها ست حلقات أو أربع ويلها ما يستوعب ذبيحة واحدة ثم تلي ذلك الأحجام الصغيرة وكل الصواني النحاسية السابق ذكرها يكون لها ركزة ترتفع بها عن الأرض، ويأتي بعد ذلك الأواني الخشبية وهي أقداح محفورة من خشب الاثل الثخين فإن كان ذا عمق أكبر يسمى «قدحاً» وهو يشبه نصف الكرة ذا فوهة كبيرة محفورة بعمق يتراوح ما بين ٢٠ ــ ٥٠ سم حسب اختلاف أحجامه وقطره يتراوح ما بين ٣٠ ــ ٧٠ سم، ويراعى عند صنعه من خشب الاثل الرطب يعرض على النار بعد عملية تغطية أجزاء منه بالطين ليظهر مكان هذه الأجزاء المغطاة نقوش جميلة ويكون لون القدحبنياً ضارباً إلى الشقرة وله مقابض من نفس خشبته تسمى

الواحدة «عروة» وللأكل فيه نكهة ممتازة لا توجد بغيره من الأواني وخاصة القرصان والأرغفة، والنوع الثاني ما يسمى «الموقعة» وهو من نفس الفصيلة إلا أنه أقل عمقاً وأكثر اتساعاً، أما المغارف الخشبية على اختلاف أحجامها فهي شبيهة بالمغارف النحاسية الحالية، غير أنها مصنوعة من الخشب لها عصا طويلة ورأس نصف كروي محفور وتخضع في صنعها لنفس مواصفات الأقداح ويتبع الأواني الخشبية «نِجْرِ» الخشب وهو ما يدق به الفلافل والبهارات وغيرها وتجده بكل مطبخ وكذلك «المرقاق» و«المسواط» وهما قضيبان أملسان من الخشب حجم الواحد منهما بمقدار قبضة اليد يستعمل الأول لصنع الرقائق والثاني لسوط العصيدة ونجد إلى جانب ذلك السكاكين والمبارد. أما مصنوعات الخوص فنجد السفرة المصنوعة من خوص النخل الأبيض والموشاة والمنقوشة بخيوط من الشعر الأسود أو القطن الملون على اختلاف مقاساتها وهي دائرية الشكل يتراوح قطر الواحدة منها بين ٣٠٠ ــ ١٠٠ سم حسب المقاس وتفرش هذه «السُّفَرْةِ» تحت الصواني عند تقديم الأكل عليها حسب مقاس الصينية وهناك مجموعة من العلب الصغيرة التي تحتوي على الملح والبهارات والأفاوية والأصباغ المستعملة لصنع الطعام وتكون هذه العلب أما مصنوعة من الخشب أو المعدن أو النحاس أو الصيني ويوجد بالمطبخ الزند والصلبوخ و « الوذيحة» المستعمل لاشعال النار قبل وجود أعواد الثقاب بأيدي الناس وربما اضطر بعض الناس إلى اقتباس شعلة أو جمرة من النار من أحد الجيران في حالة عدم إمكانية إشعالها داخل منزله لسبب أو آخر، كما نجد «الصاج» على مختلف مقاساته وأشكاله ولكل نوع استعمال خاص لعمل الأرغفة والقرصان ومنها المقعر الذي يستخدم لتمحيص الحبوب الطرية وتتراوح أقطارها ما بين ٥٠ ــ ٨٠ سم حسب المقاس وهناك أحجام صغيرة ذات يد طويلة تسمى «المقرصة» ويصنع بها الأقراص الثخينة في بعض الأحيان ولكل واحد من هذه الأنواع استخدام خاص لا يستخدم لغيره.

ولتسخين الماء يستخدم وعاء نحاس أحمر مطلي بالخارصين من الوجهين اسطواني يتراوح قطره بين ٣٠ ــ ٦٠ سم ويرتفع من ١٠٠ ــ ١٥٠ سم يسمى «سُمَوَّرْ» يجلس على كرسي من الحديد وبواسطة أنبوبة مفرغة من أسفل إلى أعلى

يوضع فيها الجمر وتوقد النار ومتى اشعلت النار في الفحم امتدت الحرارة إلى الماء فأصبح ساخناً، و«للسمور» صنبور لتفريغ الماء منه وتجده في معظم البيوت على مختلف مستوياته وقد يسخن الماء في القدور والأواني الأخرى وذلك في فصل الشتاء.

□ أدوات التبريد:

لا يتصور المرء أدوات التبريد كالآلات الحديثة في الوقت الحاضر وإنما هي تلك الأدوات البدائية التي وفت بالغرض الضروري، وأدت خدمة لا يستهان بها على مدى قرون طويلة إلى أن مَنَّ الله على الناس بوصول ما نتج عن العلم الحديث من آلات ومخترعات تخدم هذا الجانب، فأدوات تبريد الماء في المنزل آنذاك هي القِرْبَةُ بمختلف أحجامها في بيئة الحضر والعرب الرحل، والقربة مصنوعة من الجلد المدبوغ يخرز من قاعدته وتصرُّ مكان أيدي الشاة ويبقى مكان رقبتها فمًا للقربة وبعد دبغ الجلد يدهن بالودك ثم تخرز ويحقن بها الماء وتعلق في الهواء بمحجن خاص، وتجد في كل بيت سقيفة صغيرة وغالباً تكون عند مدخل المنزل وفي مكان يطرقه الهواء باستمرار ويعلق بهذا المكان مجموعة من القرب حسب حجم الأسرة المقيمة في المنزل ويكون بقربها مجموعة من أواني الشرب وتسمى الواحدة منها «طَاسَةٌ» وهي مصنوعة من النحاس الأحمر المطلي بالخارصين وتحمل كثيراً من النقوش والزخارف والحلقاة التي تزينها، وتستوعب الواحدة من ١ ــ ٣ لتر مكعب من الماء، وعادة راغب الشرب من هذه القرب يجسها باللمس من ظاهرها ليرى أيهما أبرد ملمساً ليجد ماءها بارداً، ويبرد الماء داخل القربة عندما يتم رشح جزء منه فيتبخر ويلامس الهواء سطح القـربة ليمتص منه درجة الحرارة فيبرد السطح وتتسرب البرودة إلى الماء بداخل القربة، وعادة تكون سقيفة القرب مفتوحة من جهة الشمال أو الشرق تحقيقاً لبرودتها. ولا يستغرب أن يطلب عطشان ممن سيحضر له الماء على سبيل الدعاية» ان يأتيه بالماء من شمالي القربة»!!، أما تبريد اللبن فيعلق كذلك إلى جانب القرب بنفس صميلة أو يمزج أحياناً بماء بارد من القـربة لاستساغة شربة خاصة في فصل الصيف،

ولماء القربة نكهة ممتازة وبالذات إذا كانت مدبوغة بالأرطي أو العرن أو وضع بداخلها أعواد من البعيثران، أما تبريد الفاكهة والخضروات فتوضع قبل مدة كافية في مكان ظليل يداعبه النسيم، لتبرد، كما يوجد من الأدوات المتعلقة بالماء وتجهيزة الأواني الضرورية الكبيرة لتخزين الماء وهي أوان مصنوعة من النحاس الأحمر ومطلية بالخارصين منها «الـلمِرْكَاةُ» وتستوعب الواحدة منها حسب حجمها من ٢ ــ ٥ متر مكعب من الماء تقريباً. وهذه تكون بجانب البيت قرب مكان القرب وتغطي فوهتها بغطاء خشبي ذي جزء متحرك يفتح عند أخذ الماء ويخصص واحدة منها للماء القراح المخصص للشرب والثاني للماء المالح المستعمل للطبخ والتنظيف إذا كان البلد يوجد فيه نوعان من الماء، واحضار الماء إلى البيت هو من مهام المرأة فتحضره على رأسها من خارج المنزل من جورة أو ساقية مخصصة لهذا الغرض تسمى «المَرْوَى» وذلك بإناء نحاس يسمى «جَذَعَةْ»، يستوعب من ٦٠ ــ ٨٠ لتراً من الماء تأخذ المرأة هذا الإناء فارغاً مع «طاسة» صغيرة وتغرف من تلك الجورة وتحمله على رأسها بمساعدة زميلاتها وتأتي به وتصبه في الخزان الكبير «المركاة» عدة مرات حتى تملأها أما في بيئة العرب الرحل فمستودع الماء هي قرب كبيرة الحجم من الجلد وتحضر المرأة الماء في قربة مناسبة تربط طرفيها برباط وتضعه على رأسها لتتدلى القربة على ظهرها وتنحني قليلاً ليكون الحمل على الظهر وهكذا تتردد بقربتها حتى تملأ ما لديها من الأوعية.

أما المروحة اليدوية فهي ما يلطف بها الناس الهواء داخل الغرف في فصل الصيف وهي مروحة منسوجة من خوص النخل مربعة الشكل محلاة بالنقوش والزخارف من الخوص المصبوغ بألوان مختلفة. ولها عصا يمسك بها ويحركها المرء حول وجهه لتعمل خلخلة للهواء بحيث يلامس البشرة وعندها يشعر بانتعاش من البرودة التي تحدثها هذه العملية وذلك قبل اختراع أدوات تكييف الهواء الكهربائية من مراوح ومكيفات.

□ أدوات تجهيز اللبن:

لقد سبقت الإشارة إلى هذه الأدوات في الفصل الخامس من هذا الكتاب لكن ليس هناك ما يضير إلى ذكرها من موضعها، فأدوات تجهيز اللبن تتكون من «المْرَوَبِ» وهو صميل كبير من الجلد المدبوغ والمدهون يجمع فيه الحليب، أو إناء كبير من النحاس المطلي أو الصاج المدهون يوضع فيه الحليب ويوضع بمكان دافىء شتاء، وبارد صيفاً حتى يروب اللبن وتراقب ربة البيت اللبن تمشياً مع تقلبات الطقس لإمكان تدفئته أو تبريده تبعاً لذلك، ثم يليه الصميل وهو من الجلد المدبوغ والمدهون وهو ما يمخض يخض به اللبن حتي تتكثف كمية الزبدة التي بداخله وتكون كتلة واحدة وتخرج بعد ذلك وتحفظ الزبدة بوعاء من الجلد له فتحة كبيرة يسمى «المِكْرَشِ» أو بإناء نظيف من النحاس المطلي أو من الصاج المدهون أو الصيني حتى تتجمع كمية كبيرة من الزبدة وتجري إذابتها لتصبح سمناً ويسكب اللبن المخيض في اناء كبير كقدر أو غيره ويعد للشرب بآنية «الطاسة» والأقداح وربما بقي بصميلة حتى يحين وقت شربه.

□ مفروشات النوم:

مفروشات غرفة النوم على بساطتها وتواضعها فقد أدت مهمتها لقرون عدة، وهي بطبيعة الحال على مستويات مختلفة كما هي عليه في الوقت الحاضر ولكن الدرجة العليا منها آنذاك لا تمثل شيئاً يذكر في الوقت الحاضر، إنما تتكون من الضروريات المرفهة، ودعنا ندلف إلى غرفة نوم ربة البيت فنجد أمامنا صندوقاً كبيراً من الخشب إما أن يكون مرتفعاً عن الأرض على أربع أرجل بمقدار متر ونصف أو أن يكون ارتفاعه بسيطاً وربما بدون أرجل وهذا الصندوق محلى بمختلف النقوش والزخارف الجذابة مرصعاً بالمسامير النحاسية والمرايا مما يجعله تحفة رائعة ويعتبر رأسمال المرأة فيه تضع كامل ممتلكاتها من مصاغ وملابس وعطور وأدوات زينتها وأشياء ثمينة وغير ذلك وله قفل تحتفظ بمفتاحه وتحته أو حواليه يوجد مجموعة من الأواني والتحف وعلب الزينة الخشبية وغيرها وفي الآونة الأخيرة بدأت النسوة يضعن الستائر من القماش على سقف الغرفة

والرفوف التي ترفع عليها الأواني الزجاجية وأواني الصاج المدهون «فناجيل» «غضار» والمبخرة وتعلق المرايا الكبيرة على حيطان غرفة النوم من عدة جهات أما الفراش فإما أن تكون أرضية الغرفة مفروشة بالكامل أو جزء منها ويختلف نوع الفرش إما أن يكون من نسيج الخوص «خصاف» أو بالبسط أو «العدل» وهو نسيج صوفي أسود أو بالقطيفة «الزل» حسب المستوى المعيشي للشخص ويكون الفراش الثمين من اللحف المحشوة بالقطن وقطع القطيفة والملايات والوسائد المملوءة بالريش أو القطن أو يكون الفراش من البسط «العدول» ووسائد محشوة التبن والقش حسب مستوى الأسرة وأحياناً يكون بجزء من الغرفة «دكة» مثبتة سبقت الاشارة إليها عند التعرض لتصميم المنزل وتملأ بالتبن أو ثمر «الطِّرْفْ» ويفرش عليها الفراش المهيأ وهي بمثابة السرير في الوقت الحاضر وهي مفيدة في البلاد الباردة حيث تجلب الدفء للنائم بها، أما بقية أفراد الأسرة فلا تعد كونها فرشاً عادية على الأرض من اللحاف أو «العدل» أو القطيفة وعليها الوسائد المحشوة بالريش أو القطن أو التبن ويتدثرون بقطع مماثلة للفراش حسب المستوى المعيشي للأسرة وإذا مررنا بمكان تناول الطعام فنجده عبارة عن غرفة أو سقيفة مفروشة بأي فراش يوضع عليها سفرة الطعام المصنوعة من الخوص وتوضع عليها صينية الطعام يتناوله أفراد الأسرة بأيديهم بعد غسلها قبل الأكل وبعده، أما في بيئة العرب الرحل فكل شيء في غاية البساطة من حيث التأثيث فغرفة النوم هي جزء من بيت الشعر تفرش به ربة البيت فراشها مع زوجها وإلى جانبهم فرش أبنائهم في جزء آخر على بعد أمتار قليلة وأغلب الرجال في هذه البيئة ينام وحده في القسم المخصص للرجال «الرُّفَّهْ» تاركاً بقية البيت لزوجته وأولاده، والفرش المستعملة لديهم هي البسط التي تنسجها النسوة «والعدل» والقطيفة التي تكون عادة من ضمن مهر المرأة وتكون ملابس المرأة وحليها وعطورها وأدوات زينتها محفوظة في «مِزْوَدَتَها» وهي وعاء من نسيج الصوف الجميل ذي الألوان الزاهية الجذابة وبقية الفرش مما سبقت الإشارة إليه.

□ أدوات الطحن وتجهيز الحب:

قلنا إن المرأة هي التي تقوم باعداد الطعام من حالته الأولى عندما كان حباً

حتى يصبح طعاماً لذيذاً، ولذلك فهو يتطلب الاعداد من تنقيته من العوالق والشوائب وهرس، وجرش، وطحن، ونخل، . . الخ، وأدوات تنقية الحب هي من الأطباق الواسعة المسطحة لها حافة مائلة يبلغ ارتفاعها حوالي ٥ سم، وهذه الأطباق مصنوعة من خوص النخل الأبيض بأطر ملفوفة على شرائح من عراجين النخل، كما ينقى الحب بالأطباق المماثلة لذلك وإذا كان في الحب فصوص وقشور فإنها تدق بأداة تسمى «الميجمة»، «الكابون» وهي قطعة اسطوانية من الخشب الغليظ مثقوب نصفها وبها عصا طوله ٦٠ سم، كما يوجد «المهراس» «الميخف» وهو ما يهرس به الحب وسبقت الاشارة إليه في مكان سابق من هذا الكتاب. أما أدوات الطحن فهي الرحي وسبقت الاشارة إليها في مكان آخر، والمجراشة وهي ما يجرش بها الحب المهروس ليصبح بعد ذلك جريشاً، وهي خفيفة الوزن نوعاً ما ، لذلك نجدها هي المتوفرة بشكل رئيسي لدى العرب الرحل، كما يوجد رحى صغيرة وثقيلة وهي ما يطحن بها المساحيق الخاصة كالأصباغ والبهارات والأفاوية والمشاط وغيره من المساحيق التي تستعملها النساء وتبعاً للرحى يوجد المنخل وهو نسيج من سلك الحديد الناعم له إطار خشبي ينخل به الدقيق بعد الطحن لتبقى النخالة والكسور الخشنة والعوالق الأخرى ويبقى الطحين صافياً نقياً من الشوائب.

□ □ □

الفصل الثاني والعشرون:

الملابس

□ الملابس الرجالية:

بكل بيئة من البيئات الملابس التي تناسب سكانها، ولكل شعب الزي الوطني الذي تتوارثه الأجيال بكل فخر واعتزاز، والعربي منذ القدم اختار الملابس التي تناسبه وتتواءم مع الأجواء السائدة في موطنه فاختار الملابس الفضفاضة التي تتمشى مع فصل الصيف الحار فتسمح للهواء من التخلخل إلى جسده فيحس بالبرودة المنعشة، حتى إذا جاء الشتاء أضاف عليها مايضمها أو يثقلها لتجلب له الدفء، وليست كالملابس التي نشاهدها في الأفلام ويدعون أنها تمثل الملابس العربية المكونة من الملابس الفضفاضة جداً والعمائم الكبيرة التي تمثل الملابس الهندية والفارسية أكثر مما تمثل الملابس العربية، وإذا نظرنا بإمعان إلى الملابس في البقعة موضع البحث للرجل والمرأة وجدناها بسيطة جداً وجميلة في نفس الوقت، متقاربة في بعضها في التصميم مع اختلاف في اللون ومختلفة في أنواع أخرى في التصميم واللون معاً، فالرجل يتكون لباسه مما يأتي:

١ ـ **«المقطع» الثوب**، وهو عبارة عن الثوب العادي ذي الأكمام القصيرة المنتهية بالرسغ على حد الكف، واتساع الكم يسمح بادخال يده واخراجها وكشفها عند الوضوء وغير ذلك، وهو ثوب عملي، وتتسع أكمامه من بدايتها بما تحت الإبط ليستطيع لابسه من ممارسة عمله بكل حرية، ويتسع الثوب من أسفله «شليلة» ليسمح له بالركض والحركة وله جيب واسع

ينتهي بطوق بسيط وأزرار قطنية كروية صغيرة بقدر حبة الحمص من نفس القماش، وتتم خياطة الثوب بالابرة اليدوية وبخيوط منه ويكون الجيب «المخبأ» الرئيسية التي يعتمد عليها الرجل ويضع بها مفاتيحه على الصدر من الجهة اليسرى فوق موضع القلب تتدلى طولاً إلى ما تحت السرة وفمها من أعلا مع فتحة الجيب، أما الجيب الجانبية فلا يُعَوَّل عليها، وهذا النوع من الثياب يلبسه السواد الأعظم من الناس من الذكور من سن الطفولة وحتى سن الشيخوخة ولا يزال يلبس حتى الوقت الحاضر مع اجراء بعض التعديلات على شكلة.

٢ ــ **الثوب «المرودن»**: وهو بصفة عامة كسابقه ولا يختلف عنه سوى في سعة أردانه الفضفاضة الطويلة التي تجر على الأرض ويكون في الغالب من القماش الخفيف الشفاف «الشاش» أو «الجنقل» المشبع بالنشا، ويلبس هذا الثوب فوق «المقطع» أو يلبس وحده وهو معد من لباس الزينة في المناسبات والأعياد وغيرها ويعتني الشباب بهذا النوع من الثياب ليظهروا أمام أقرانهم وفتياتهم بالمنظر النظيف اللائق مما دفع باحداهن بأن تقول:

٣٨٢ ــ هني من لفة اردونك
من قبل قصاف الآجال

٣ ــ **«الغترة أو الشماغ»**: وهي قطعة مربعة من قماش أبيض خاص رقيق شفاف أو «شماغ» وهو نسيج مربع من قماش شفاف منقط بنقط حمراء من نسيج مطرز في داخل إطارات جميلة ويطبق «الغترة» أو الشماغ على شكل مثلث توضع نصف قاعدته على مفرق الرأس وطرفاه عن يمين الوجه وشماله ورأس المثلث يكون على خلف الرأس وهو يلبس حتى الوقت الحاضر بنوعية «الغترة» و«الشماغ» بالطبع مع جودة في الصنف واعتناء بكيفية اللبس والنظافة.

٤ ــ **الكوفية «الطاقية»**: وهي لباس نصف اسطواني نصف كروي على مقاس

الرأس تتكون من طبقتين محشو ما بينهما بطبقة رقيقة من القطن أو منسوجة بخيوط مستقلة وكانت تخاط بالابرة اليدوية وتزخرف بالخيوط الحريرية الملونة والخيوط المذهبة ويختار لها القماش الممتاز ذو الألوان الزاهية وتلبس تحت «الغترة» ويولي الشباب عناية خاصة في اختيار الأفضل منها والتفنن في لبسها منذ ذالك الوقت وحتى الوقت الحاضر، ويوجد منها الأنواع العادية للرجال والشيوخ وهي تلبس حتى الوقت الحالي.

٥ ــ **العقال**: وهو ما يلبس فوق الرأس، وكان عند بدايته من خيوط الصوف ذات اللون الأبيض يلف لفتين فوق الرأس وله طرفان ينسابان على مؤخرة الرأس، وسماكته معقولة، ثم أدخلت عليه الألوان الأخرى ويسمى «ذنيب الفيل» وهو أدق من سابقه وله طرفان يتدليان إلى الخلف وهذا النوع يلبسه الشباب لتمشى مع الألوان الزاهية التي يرغبونها، أما العقال الأبيض فيلبسه الكبار، ثم أدخل عليه تعديل اللون بحيث أصبح لونه أسوداً لكي يظهر على الغترة البيضاء أو الشماغ الأحمر،

أما المتدينون من يرون أنهم العقلاء فلا يلبسون العقال اطلاقاً وإنما يكتفون بالغترة والشماغ لوحده وبعضهم يلبس العمامة حتى الوقت الحاضر، وهناك العقال المذهب «الشطفة» ولا يلبسها سوى الأمراء وهي عقال من طبقتين مربعتين من خيوط المرعز ملفوفة بالمخيوط المذهبة وبترتيبها يظهر مثاني خيوط المرعز السوداء ولها ذيل خفيف إلى الخلف وهي جميلة رائعة.

٦ ــ **العمامة**: وهي لفة من القماش الأبيض الخفيف تلف فوق الرأس فوق الغترة أو الشماغ مرتين أو ثلاثاً ولها طرف أو طرفان يتدليان إلى الخلف، ويلبسها الرجال كبار السن ممن يقتدون بسنة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكانت من شعارات رجال الدعوة السلفية «الإخوان» غير أن البعض يبالغ بعدد لغاتها ولا يزال البعض يلبسها حتى الآن.

٧ ــ **السراويل**: وهي قليلة الانتشار إلا في الآونة الأخيرة وكانت قصيرة تنتهي بما فوق الكعب وفي الغالب لا تظهر من تحت الثوب وتخاط بالإبرة اليدوية وتلبس حتى الآن مع تغيير في طولها حيث قصرت إلى ما فوق الركبة وبقي بعضها على طوله السابق مع ادخال البنطلون عليه.

٨ ــ **الحذاء**: وهو ما يخصف «يخرز» محلياً على مختلف أنواعه وقد صنع ليكون ملائمًا في الصيف ويجلب الدفء بالشتاء ويصنع من جلود الابل والبقر والغنم المدبوغة ويزدهي بالنقوش والألوان الجذابة وهو سهل اللبس والخلع ولا يزال موجوداً وتحت الاستعمال مع ادخال بعض التطوير إليه.

٩ ــ **الجرابات «الدُّسُوْسِ»**: وهي نسيج من خيوط وبر الابل له نعلة من جلود الابل وجوانب ورقية من جلود الغنم الناعم ويلبس في فصل الشتاء للوقاية من البرد، وهو بمثابة الحذاء الحديث إلا أنه أكثر دفئاً منه.

١٠ ــ **الجبة**: وهي نسيج صوفي ناعم تلبس فوق الملابس، ولها أردان بطول أكمام الثوب وتستخدم للتدفئة أما ما يستخدم للزينة فهي من الجوخ الملون بالأحمر والأزرق والأسود وتسمى «الجوخة» وتطرز بخيوط مذهبة أو خيوط حريرية وتوشى بمختلف النقوش والأشكال الهندسية الرائعة وتلبس للزينة في المناسبات كالأعياد والأفراح ويلبسها الأمراء وعلية القوم والموسرون من الناس.

١١ ــ **«البريم»**: وهي سيور من الجلد المدبوغ والمدهون الناعم جداً ويفضل جلود الثعالب على غيرها تجدل هذه السيور الرقيقة وله عروة بأحد طرفيه وعقدة في طرفه الآخر يقرن به ويلف على الوسط من تحت الملابس مباشرة ثلاث لفات أو أربعاً وربما ستاً ويلبس على الجلد مباشرة فيما تحت السرة فوق الورك، وهو يساعد على شد الظهر عند الاجهاد في العمل، وينفع عند المطارحة والتدريب على السباحة، ويرفع الرجل به ملابسه عندما يشتغل في عمله «يتنفذ» به.

١٢ ــ **«الزبون»**: وهو شبيه بالثوب بجسده وأكمامه ويختلف عنه بأنه مفتوح من الأمام من أعلاه إلى أسفله، ويكون قماشه من الكتان المقلم بالألوان الأزرق والأسود والبني والأخضر، وله فتحتان جانبيتان بطول ٣٠ سم وبفتحته الأمامية «عمائل» خيوط وأزرار من الكتان وخيوط قصيرة يربط بها الزبون على صاحبه ويلبس الزبون فوق الملابس ويستخدم للزينة أكثر من الضرورة وهناك ما يشبه الزبون وتسمى «الصاية» وتختلف عن الزبون بأنها من اللون الأبيض الخفيف وإن كانت مقلمة فالتقليم من نفس اللون وتكون أكثر أزراراً في فتحتها الأمامية ولها جيوب في الصدر، وبعضهم يجعلها أقصر قليلاً من الزبون وتلبس فوق الثياب للزينة في المناسبات كالأعياد والزواج وغيره.

١٣ ــ **العباءة**: وهي نسيج من الصوف أو الوبر الناعم وتتكون من شقين يثبتان إلى بعضهما «مخبونة» على مقاس صاحبها، ويختلف درجاتها ويوشى جيبها بالخيوط الذهبية أو الحريرية ويلف عصام من رأس الكتف حتى طرف الكم ويعلق بجيبها خيوط بها أجراس من نفس الخيوط المنقوشة بها، تسمى «عمائل» وتلبس من فوق الملابس كلها بما في ذلك «الغترة» أو «الشماغ» ولها درجات مختلفة من الجودة والنعومة ودقة النسيج واتقان التطريز وتسمى «البشت» وتستعمل للزينة والتدفئة، وإن كان ما يستخدم للتدفئة من النوع الثقيل وما يلبس للزينة من النوع الخفيف ويلبسها الرجال البالغون دون الصغار وهي لا تزال تلبس حتى الوقت الحاضر بعد ادخال تطوير على تطريزها وأقمشتها.

هذه الملابس التي كان يرتديها الرجل في ذلك الوقت بعضها قد عزف عنه والبعض الآخر أدخل عليه بعض التطوير والتحسين ولا يزال يلبسه حتى الوقت الحاضر وهو الزي الذي نفتخر بارتدائه لما له من قيمة معنوية تربطنا بتراث الأجداد.

□ الملابس النسائية:

والملابس النسائية تسير في الاطار العام الذي تسير فيه ملابس الرجال من حيث التصميم لتلائم المناخ السائد في هذه البقعة وهو المناخ الصحراوي ولم تدخل عليها الطرازات الجديدة «الموضة» التي أصبحت تلهث وراء كل ما يصدر عن الغرب من تصاميم على رداءتها وسذاجة وعري بعضها. ولذلك جاءت الملابس لتتمشى مع هذا الجو، وبالقاء نظرة على الملابس النسائية نجدها تتكون من:

١ ــ **الفستان العادي «المِقْطَعْ»**: وهو قريب من حيث التصميم من ثوب الرجل مع اختلاف في الألوان والخياطة، حيث تتكون ألوانه من الأحمر والأخضر والأزرق والأسود والأصفر والزهري.. الخ وهو من القطن أو الكتان أو الحرير «البِرْيسم»، «الوِرْيْسِي» وقد يكون لون القطن العادي أبيضاً فيتم صبغه من قبل النساء بالألوان التي تعجبهن وذلك بتركيب الصبغ بأنفسهم ثم وضع القماش فيه حتى يصير إلى اللون المطلوب ولهن ذوق رفيع وخبرة كافية بهذه الناحية وبعد أن يأخذ اللون المناسب يتم تفصيله وخياطته، ويخاط الفستان بخيوط منه أو بخيوط من الحرير «البريسم» على اختلاف ألوانه وتنقش وتوشى أطراف أكمامه بخيوط الحرير والخيوط المذهبة كما ينقش جيبه إلى حد الطوق من نفس الخيوط برسوم ونقوش جميلة تعطيه مظهراً جذاباً كما يزين جيب الثوب بتثبيت أزرار من الذهب بحجم البلحة مزينة بالنقوش الرائعة مرصعة بفصوص الفيروز والزبرجد والأحجار الكريمة وتكون هذه الأزرار من ٥ ــ ٧ وقد تصل إلى تسعة فتزيد رونقه جمالاً، وهذا الفستان عملي ترتديه المرأة على اختلاف الأعمار منذ أن تكون صبية حتى تصبح عجوزاً مع اختلاف بالعناية بالنقوش والزينة والألوان الزاهية في مختلف مراحل سنها.

٢ ــ **الثوب**: وهو ذو أكمام واسعة جداً يبلغ اتساع الكم حوالي ٨٠ سم

ويسمى «المعورج» ويكون من الألوان الزاهية ويتم نقش جيبه بخيوط الحرير «البريسم» بنقوش وزخارف بديعة وهذه النقوش أعرض مما في سابقه، كما تطرز حدود جسد الثوب مع أردانه بخيوط الحرير بعرض حوالي ٢ سم ولهذا يسمى «المعورج» كما توشى حواف الأكمام من نفس الخيوط ويكون أسفله الأمامي على مقدار طول الفستان السابق أما من الخلف فله ذيل طويل تسحبه على الأرض ويستر خلف أقدامها ولا يلبس هذا الثوب إلا عندما تريد المرأة الخروج من بيتها لبعض شأنها ويمكن أن تستخدم أكمام هذا الثوب باضفائها فوق رأسها لتغطية وجهها أو شعرها إذا كان خمارها خفيفاً، ومن هذا الثوب نوع من الحرير الممتاز الأحمر والقرمزي والأخضر والأزرق موشاة أردانه وجيبه بخيوط مذهبة رائعة الصنع وعلى جانب كبير من الجودة والاتقان ويسمى هذا النوع «الْوِرْسِي» وهناك نوع ثالث من القماش الشفاف موشاة أردانه وجيبه بخيوط مذهبة ومثبت به أقراص زجاجية لامعة بألوان زاهية وترتيب بديع يسمى «تَنْتَرَ» نسبة إلى اسم الأقراص المثبتة به وهذان النوعان الأخيران من الثياب النسائية تلبسها المرأة للزينة في الأعياد والأفرام والمناسبات وتعتبر ملابس زينة أكثر منها ضرورية.

٣ ــ **الخمار «الشيلة»**: وهي قطعة من القماش الأسود الشفاف الذي إذا أضفته المرأة على وجهها احتجب عن رائيه وفي نفس الوقت تستطيع أن تبصر طريقها وتميز الأشياء ويبلغ طول هذا الخمار ٤ أمتار إلى ثلاثة بعرض القماش حوالي ٦٠ سم، وله درجات مختلفة وتضعه المرأة على رأسها لتلف به شعرها ووجهها عند خروجها من منزلها أو عندما تكون عند غير محارمها تنفيذاً لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وهذا الخمار ضروري للمرأة ولا تزال ترتديه حتى الوقت الحاضر ولكن بأشكال أخرى وهناك نوع آخر يسمى المقرونة وهي شبيهة بالخمار العادي إلا أنها أصغر منه، قد صممت لتلف مؤخرة الرأس وتثبت عليه وهي شبيهة بقناع الدرع.

٤ ــ **السراويل**: وهي لم تتوفر إلا في الآونة الأخيرة وكانت أكمامها قصيرة إلى

نصف الساق ثم بدأت بتطويلها حتى غطت كعبيها ووضعت بأطرافها حاقة مكسرة من القماش المغاير وغالباً يكون أبيض يسمى «النفنوف» وقد تلاشى هذا النوع مؤخراً واستعاضت عنه بأنواع وأشكال أخرى قصيرة أو بنطلون.

٥ ــ **الحذاء**: وتلبس المرأة حذاء جلدي له دعسة من الجلد المتين، وله سيور من الجلد الرقيق المزخرف بالألوان الزاهية والنقوش الجميلة وأحد السيرين مكان باصبع ابهام القدم والكبير على ظهر القدم وقد يكون الحذاء غير هذا النوع إنما من نفس التصميم وتلبسه المرأة في ثلاثة فصول من السنة، أما في فصل الشتاء فتلبس جوارب منسوجة من خيوط وبر الابل ولها نعلة من الجلد الغليظ وغطاء وجوانب من الجلد الرقيق الملون وتسمى هذه الجوارب «الدُّسُوْس» وتمتاز بدفئها وجودتها.

٦ ــ **«البريم»**: وهو مثل البريم الذي يلبسه الرجل غير أن «بريم» المرأة أدق وأكثر ليونة ويوضع به أزرار كنوع من الزينة تلبسه المرأة تحت ملابسها تلفه على خصرها ثلاث أو أربع مرات ويدل قصر البريم على دقة الخصر وتستعمله للزينة في وسطها لزوجها.

٧ ــ **الرداء**: وهو قطعة من القماش قد تبلغ ٢ × ٢ متر من مختلف أنواع الأقمشة وتتشح به المرأة ويجللها بدلاً من العباءة داخل بيتها وتلتف به في وقت أداء الصلاة.

٨ ــ **العباءة**: وهي من الصوف أو الوبر تشبه عباءة الرجل إلا أنها تختلف عنها بلونها الأسود على الدوام ونقشتها السميكة بالخيوط المذهبة وأكبر حجمًا بالهدب المتدلي من جيبها ذي العثاكيل والأجراس الكبيرة مع ضيق في جيبها لا يزيد عن ١٠ سم وثخانة في عصام أكمامها وضيق فتحات أردانها وتسمى عباءة المرأة «الْمَزْوَيَّةْ» وسبب التعديل في تصميم الأردان والجيب هو أن المرأة تتقنع بعباءتها ولا تخرج يديها من أكمامها بينما الرجل يرتديها على أكتافه ويخرج يديه من أكمامها ولا تزال تلبس حتى الوقت الحاضر مع

ما دخل عليها في التسمية «بالبشت» وصارت من «الجرسية» والحرير والأنواع الأخرى.

٩ ــ **العصابة**: وهي شريحة من القماش الأسود لطيفة في شكلها ولبسها على قمة الرأس بأعلى الجيبين يتضح من خلفها مفــرق شعر الرأس، وليست مثل ما نشاهده بالأفلام من السماكةوعصابتها من أعلى الجبين منحدرة من فوق الأذنين إلى أسفل مؤخرة الرأس، وتعصب المرأة بها رأسها من فوق طبقة من خمارها وربما من تحت الخمار وتستعملها الفتيات للزينة وخاصة عند العرب الرحل، أما العجائز ومن تحس برأسها ألماً فانها تستخدمها للحاجة.

١٠ ــ **ملابس الأطفال**، وملابس الأطفال لا تخرج عن هذا الاطـار ولكن بشكل مصغر إلا في مراحل حياتهم الأولى فهي تتكون من اللفائف القطنية والصوفية المناسبة التي يمهدون بهاويمتقطون بأحزمة تحفظ الأمهات بواسطتها تناسق أجسام أطفالهن وعندما يكبرو يتم تفصيل الملابس المناسبة لهم مثل الكبار كل حسب جنسه مضافاً إلى ذلك لباس الرأس «القبع» أو «الطربوش» وهو شبيه بالكوفية يصمم ويعمل للصغار حسب المقاس من الأقمشة الجميلة ويطرز بنقوش جميلة ويجعل له عثكولة في قمته ويلبس للصغار لحمايتهم من برد الشتاء.

□ □ □

الفصل الثالث والعشرون:

الزينة والحلي

□ الزينة عند الرجال:

لا يعتني الرجال بالزينة سوى من جوانب معيّنة منها التمنطق بالأحزمة المرصّعة بأقراص المسامير النحاسية يتوسّطها الخنجر المذهّب أو المفضّض، وربما المكسو بصفائح معدنية بيضاء لامعة وعليها النقوش والزخارف المتقنة، كما يتوشّحون بالسيوف المذهّبة أو العادية وذلك لإظهار الزينة في الأعياد والمناسبات، كما يضعون بدل الخناجر «الجنبيات» وهي المُدَي في وسط الحزام، وقد يكون حزام بندقية يغصّ بأمشاط الذخيرة من طرفه إلى طرفه، وقد يكون حزام المسدس المكتظ بالطلقات يتوشّح به من على متنه ويتدلّ إلى تحت خاصرته العكسية ويقف الرجل الشاب مزهوّاً بهذه الزينة التي تدلّ على الرجولة والشجاعة والنضج، كما أن من جوانب الزينة الاعتناء بشعر الرأس وغسله وتمشيطه وجدله في جدائل وضفائر تتدلّ بكثافة على صدر الرجل قد تصل طولاً إلى ما تحت الحزام، وقد يترك شعره بدون ظفر فيبقى ذروة تتراقص غدائرها على أعلى صدره، مع المحافظة على مظهر الرجولة والتمشّي في إطارها، أما الحلي فلا يلبس الرجل منها سوى خاتم فضّي ذي فصٍّ بارز من نفس المادة أو فصٍّ من معدن آخر، يلبسه في خنصر أو بنصر يده اليمنى وربما نقش اسمه على فصّ خاتمه، وقد يكون الخاتم من معدن آخر غير الذهب، وما عدا ذلك لا يلبس الرجل من الحلي شيئاً وإنما يترك ذلك للمرأة، أما الجانب الثالث من الزينة فهو الاكتحال وهو كحل عينه بكحل الإثمد أو غيره مما يركّب محلياً، والاكتحال

إلى جانب الناحية الجمالية فهو سنة من سنن الرسول صلىّ الله عليه وسلّم، أما شعر الوجه، فاللحية تترك مسبلة بدرجة معقولة حسب السنّة وهي قبضة اليد وما زاد على ذلك، فالبعض يقصّرها والبعض الآخر يتركها، أما الشوارب فالبعض يتركها كما هي عليه بشكل كثيف ويعتزّ بها والبعض الآخر يقصّرها ويحفيها كنص الحديث الشريف «وفروا اللحى وأصحفوا الشوارب»[1]، أما الشيوخ وكبار السن فيتركون لحاهم تطول على ما هي عليه والبعض يترك لون شعره أبيض بدون صبغ والبعض الآخر يصبغه بالحناء ليصبح أحمراً داكناً والبعض يصبغه بالسواد، أما حلق اللحى فتعدّ من النقائص المحذورة وإذا أريد عقاب شخص بسبب جرم ارتكبه فإنه يحلق ذقنه على الصفر، ويبقى متخفّياً في بيته مدة حتى ينبت ذقنه، وإذا أراد شخص أن يعيب آخر قال له: «يا مهلوس الذقن»، ولذلك تجد المثل الشعبي يتعرّض لهذه الناحية بالحثّ على الأولوية فيقول «كن الأول لو بحلق اللحى» ومن الأشياء المحبّبة بهذه المنطقة الاستياك بالمسواك وهو عروق شجر الأراك عند كل صلاة عملاً بالسنّة الشريفة، ولتنقية الفم من فضلات الطعام وتلميع الأسنان وإظهارها بالمظهر الأبيض الناصع، أما ارتداء الجديد من الثياب وتنظيف الملابس والنظافة الجسمية فهذا شيء وارد ويحافظ عليه الرجال كمظهر من مكمّلات الزينة كما سبقت الإشارة إليه في موضع آخر، وقبل نهاية هذه الفقرة لا يفوتني إلا الإشارة إلى إحدى أوعية أدوات الزينة وهي «البقشة» وتمثّل محفظة من القماش المطرّز والمنقوش بخيوط حريرية ملوّنة، وهي بمثابة محفظة النقود في الوقت الحاضر ولها عدة مخابىء ولسان يلفّ عليها عدة مرات، ويربط بنهايته بسلك رفيع يضع بها الشاب المكحل ومرآته وزجاجة الطيب «القفلة» ومنقاش الشوك، ويهديها الأصدقاء لأصدقائهم والأحباب لأحبابهم كهدية تذكارية، ويضعها الشاب في جيبه.

□ الزينة عند النساء:

تولي المرأة عناية خاصة بزينتها عندما يسمح لها الوقت في ذلك بعد فراغها

---

(١) رسالة عبد الرحمن بن قاسم ص ٢.

من عملها اليومي، فالنظافة من مقوّمات الزينة لديها ولذلك تضعها نصب عينيها كضرورة حتمية، وكقاعدة للكماليات التي تضيفها إلى نفسها، فإلى جانب نظافة الملابس نجدها تعتني بشعرها وذلك بغسله وتمشيطه وتضميخه بأنواع المواد العطرية، ومشطه «بالمشاط» «البلالة» وهو مخلوط من عدة عناصر عطرية منها زهر الورد الجاف، والمسك، والظفر، وهو قشور حيوانات بحرية يُحرق فتظهر له رائحة طيّبة،وورق الريحان الجاف،وحب المحلب، وورق الدرس الجاف، وصبغ أحمر، وزهر العصفر، وأحياناً يضاف إليه لب كرب النخل، تجمع هذه العناصر وتطحن برحى خاصة ثم تعجن عجينة رخوة وبعد أن يغسل الشعر ويجفّف من الماء ويدهن بالسمن البري يمشّط ويشبّع بهذا المخلوط «المشاط» وفي مفرق الرأس تضع المرأة مسحوقاً آخر «القدود» «الذرير» وهذا المسحوق عطري أيضاً، فهو مكوّن من زهر العصفر، والمسك والعنبر، والصبغ البرتقالي مع عناصر أخرى تطحن جيداً حتى تصير غاية في النعومة، ويذر في مفرق شعر الرأس ليعطيه طيباً بالإضافة إلى ما فيه، وتقوم المرأة باستخدام الحناء في كفّها، وبعضهن تضعه في أطراف أصابع قدميها وتحرص على وضع الحناء بكفّيها، فلا تكاد تجدها بدونه ولون الحناء في الكف يكون أحمر داكن، ولكي تجعله النسوة أسود يضفن إليه «الشناذر» كلوريد الأمونيوم مع الرماد وتعدّ المرأة الحناء من قواعد الزينة التي تبرز بها، لنستمع إلى إحداهن تتمنّى زوجها أن يراها عند استكمال لون حناها:

٣٨٣ ــ لا يا خلف يالفغم واين انت عنا
ليتك ضحى العيد عندي تشوفي

٣٨٤ ــ حطّيت لك باطراف الأصباع حنّا
وخضّبت لك حتى مثاني كفوفي

(. . . . .)

وإذا أضافت إليه المواد المذكورة أصبح لونه أسود داكن، وتضعه المرأة بوسط كفّها وتنقش به أصابع يدها من اخلف وأظافرها القصيرة، ولا تستعمل

المرأة من المساحيق شيئاً ولا تغيرّ من معالم وجهها بنتف حواجبها أو تكثيف رموش عينيها، وتعتني بتنظيف أسنانها بالمسواك وقشور شجر مرّ المذاق يسمّى «الديرم» وتكتحل بصفة مستمرة، وذلك للعناية بعينيها، أما الحلي فتلبس منها القرطين في أذنيها على اختلاف درجاتهما، و«الزمام» في أرنبة أنفها، و«الهامة» فوق مفرق رأسها، والقلّادة في رقبتها و«المورقة» على صدرها، والقلائد الخرزية في رقبتها، والأساور «المجاول» و«السعيفة» و«المطاوي» و«الخصور» في معصمها، والمعضد في عضدها والخواتم والمحابس في أصابعها والحجول والخلاخيل فوق قدميها في أسفل ساقيها، وتفصيل هذه الحلي في موضع آخر من هذا الكتاب في الفصل الأول من الباب الثالث، والمرأة في الأحوال العادية لا تلبس كل الأشياء السابقة وإنما تكتفي بما هو ضروري لجمال مظهرها وما يحافظ على نظافة شعرها وجمال عينيها وأسنانها، أما جسمها فغالباً ما يكون رشيقاً، فهي إلى النحافة أقرب ريانة العود ضامرة الخصر مكتنزة العضلات والمجاسد، عبلة الذراعين، ويعود الفضل في هذا الوضع الجسماني إلى ما تقوم به من جهد يومي، يبعد عنها السمنة والترهّل ويجعل جسمها متناسقاً بصفة دائمة حتى عندما تبلغ الستين من عمرها، وبناء عليه فإن أدنى درجة من التجمّل تظهر عليها، أما في المناسبات كالأعياد والأفراح وغيرها لا تبقي من زينتها وحليها شيئاً إلا أعدّته ولبسته.

□ □ □

الفصل الرابع والعشرون:

الأسلحـــة

□ الأسلحة القديمة والحديثة:

الأسلحة الموجودة بهذه المنطقة هي الأسلحة القديمة في معظمها إلى أن دخلت عليها الأسلحة النارية الحديثة، ولا بدّ من إلقاء نظرة عليها للتعرّف على أنواعها سواء القديم منها أو الحديث، وهي كما يلي:

١ ـ **السيف**: وهو أشهر من نار علم وغني عن التعريف، وقد تغنّى به الأقدمون منذ آلاف السنين، وبقي هو السلاح الفتّاك إلى بزوغ فجر النهضة الأوروبية الحديثة واختراع الأسلحة النارية، وهو نوعان: السيف الطويل المنحني قليلاً، والسيف القصير المعتدل «الكردة» وكلاهما من مادة واحدة غير أن لكل واحد منهما ميزته، فالطويل يفيد صاحبه عند مقارعة الخصم عن بعد، أما القصير فهو أقوى ضربة من قرب ويمكن أن يطعن به عند اللزوم في الصدر أو الخاصرة.

٢ ـ **الرمح**: وهو كذلك من الأسلحة العريقة مثله مثل السيف، وقد تغزّل بتثنيه الشعراء، ووصفوا شدة طعناته، والرمح معروف بهذه البقعة وهو نوعان كذلك، فالرمح العادي ذو العصا الدقيقة الطويلة وله رأس واحد وأذنان صغيرتان، والنوع الثاني هو «الشلفا» وهي ذات عصا غليظة وقصيرة نوعاً ما ولها رأسان متوازيان رقيقان حادّان من الجانبين كلسان

الثعبان، وما بينهما يقصّ ما يمر عليه ولها أذنان خلفيتان حادّتان، فعند الطعن يفعل الرأسان فعلهما وعند النزع تفعل الأذنان فعلهما كذلك.

٣ ــ **القوس والنبال**: القوس والنبال والكنانة استعملها الإنسان منذ القدم للصيد ثم استخدمها للحرب وهي باقية في هذه المنطقة إلى أن حلّت محلّها الأسلحة النارية قبل حوالي قرنين من الزمان.

٤ ــ **المقلاع**: وهي سلاح بدائي يقذف به الحجر بحجم البيضة ويرجم به الجهة الثانية، وله فعّالية عند المناوشات على بعد خمسمائة متر فما دون، وهو سلاح غير قاتل وإنما يترك كسوراً وشجوجاً، وبعد الاستغناء عنه استخدمه الفلاحون لطرد الطيور الضارّة من مزارعهم وقد جرت الإشارة إليه في موضعه.

٥ ــ **الفاعوس «الكلنك»**: وهو أداة كالفأس مصنوعة من الفولاذ ذات عصا قصيرة لها وجه حاد رقيق ويقابل هذا الوجه رأسان آخران حادّان معقوفان قليلاً إلى الخلف، ويفيد هذا السلاح بالضرب عن قرب في رأس الخصم، أو كاهله وأكتافه، وذلك عندما يفقد فعالية سيفه لسبب أو آخر، أو لا يكون ضرب السيف مجدياً.

٦ ــ **الخنجر «القُدَيمي»**: وهو سلاح يشبه السيف في سلته، مصنوع من الفولاذ غير أنه قصير يبلغ طوله ٣٠ سم وهو معقوف قليلاً وله غمد بحجمه مزخرف ومطعّم بالفصوص، وقد يكون ذهبياً أو مذهّباً ويعلّق بالحزام تحت السرة، وهو السلاح الأبيض المستعمل للطعن والقدّ عند الاشتباك بالأيدي وقد يستخدم بعض منها لأغراض أخرى.

٧ ــ **المُدْية أو السكين «الخوصة»**: وهي شبيهة بالخنجر من حيث الاستخدام غير أنها تختلف عنه من حيث الصنع، فهي تصنع من الحديد الطري وليس لها غير وجه واحد، وأقل عناية في غمدها، وتستخدم للأغراض والخدمات الأخرى، وعند الضرورة تقوم مقام الخنجر.

٨ ــ **القناة «العجراء»**: وهي عصا غليظة ذات رأس كروي، إما أن يكون جذع شجرة والعصا أحد أغصانها ورأسها الجذع، أو أن يكون العصا الغليظ قد ثبّتت به قطعة من الصخر المثقوب بحجم الكف المقبوضة أو أكبر قليلاً، وفي الآونة الأخيرة صاروا يضعون بدلها «صامولة» عجلة إحدى المعدّات الثقيلة، وتستخدم القناة للمضاربة في الهجوم والدفاع، وتحدث رضوضاً وكسوراً وشجاجاً وتقتل بضربتها في جمجمة الرأس.

٩ ــ **العصا**: وهي العصا العادية منها الغليظ ــ الهراوة ــ ومنها الرفيع وتكون من أغصان الشجر، وتنفع للمضاربة في حالتي الهجوم والدفاع وتحدث كسابقتها رضوضاً وشجاجاً وتقتل إن أصابت مقتلاً، هذه الأنواع من الأسلحة القديمة التي عرفت منذ بدأ الإنسان يتخطّى العصر الحجري، ويستخدم هذه الأدوات لإيذاء أو قتل أخيه الإنسان أما الأسلحة النارية الجديدة فأولها:

١٠ ــ **البندقية ذات الفتيل**، وهي ذات أنبوبة مجوّفة طويلة بقعر مسدود وبأسفلها قناة تنتهي بحوض صغير بارز، وهذه القناة تصل بين الحوض وقعر سبطانة البندقية، وبجانب الحوض زناد يوضع فيه فتيلة تبقى بعيدة قليلاً عنه حتى إذا أشعلت النار في طرف الفتيل وضغط على الزناد لامست النار المشتعلة بالفتيل الحوض الملآن بالبارود وعندها يشتعل وتنتقل النار من خلال القناة إلى كمية البارود الموجود في أسفل السبطانة، وعندها ينفجر بقوة دافعاً كرة القصدير إلى خارج السبطانة، ويصل مدى الطلقة من ٢٠ ــ ١٠٠٠ م تقريباً حسب قوة فعالية الملح وطول سبطانة البندقية.

ولا يفوتني الإشارة إلى أعداد القذيفة، حيث توضع كمية من ملح البارود في قعر السبطانة ويوضع فوقه مادة لابدة ثم توضع كرة أو كرات من القصدير فوق العبوة وتملأ القناة الواصلة بين قعر السبطانة والحوض الخارجي بالبارود

أيضاً بما يسمح للنار بالانتقال من خارج البندقية إلى داخلها، حيث يتم الرمي كما سبقت الإشارة إليه وقد أثارت ضجة كبيرة في وقتها وأدّت خدمة ممتازة، وتغنّى بها الشعراء حيث يقول أحدهم:

٣٨٥ ـ ليا حركوا عبثات هي تاخذ القضا
لـو هـو صـديق من يـردّد أنشـوره
(محسن الشايع العمير)

ثم أصبحت بعد ذلك تعبأ بالملح والبارود والحصى وتصاد بها الطيور، وجاء بعدها «القبسون» وهي من نفس الشكل مع تطوير بسيط بالزناد، حيث أصبحت عين التعبئة صغيرة والزناد ينطبق ذاتياً بعد همز إصبعه، وأصبح الزناد له قعر صغير يلبس بقمع مشبع بمادة قابلة للاشتعال أو يملأ «بسقوة» أعواد الثقاب، وعندما ينفلت الزناد يقدح العين فيشتعل ما بها من ملح البارود، وتنتقل النار إلى داخل بطن السبطانة وينفجر البارود دافعاً القذيفة من خلال الفوهة إلى بعد يتراوح بين ١٠٠ ـ ٣٠٠ متر تقريباً حسب قوة فعالية البارود التي بداخلها، وتعد أكثر من سابقتها وذلك بسرعة إطلاقها كما أشار إلى ذلك أحد الشعراء يصف ناقته بقوله:

٣٨٦ ـ كـالنبل كـالبابـور عجـل التـراتيب
كـالبـرق كـالقبسـون عجـل مثـاره
(خضيري الصعيليك)

كما تمتاز عن سابقتها بعدم تأثير البلل والمطر عليها وذلك لعدم تعرّض ملح البارود للمطر بخلاف ذات الفتيل التي يطفىء المطر فتيلها ويخرب البارود الموجود بعينها مما قد يكون له أثر عكسي على سير القتال كما حدث بإحدى المعارك في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، حيث أمطرت السماء على أحد الطرفين المتحاربين فأبطل المطر مفعول سلاح هذا الطرف وحلّت به الهزيمة، ثم تلى ذلك البندقية، ذات القذيفة المستقلّة الموجودة في الوقت الحاضر، وقد ورد

منها عدة أشكال ومستويات، كالماطلي، والصمعاء، وأم أصبع، التيزي، والشرفاء، والألماني، «العصملي» وكلما ورد نوع منها أحدث دويّاً هائلاً واحتل مكانة مرموقة بين الناس وقتاً من الزمن، وأطراه الشعراء بقصائدهم حيث يقول أحدهم:

٣٨٧ ـ أمهـات إصبـع لـلروح نـزاعـة
مـع خـطاة الـولـد تبعـد مـراميهـا
(. . . . .)

ثم لا يلبث أن يأفل نجمه ويبزغ مكانه نجم سلاح جديد أفتك منه حتى وقتنا الحاضر الذي تعدّى فيه مستوى السلاح الفردي إلى الأسلحة الفتّاكة كالأسلحة الجرثومية والكميائية والذرّية والنووية والنترونية، كفانا الله شرّها وسخّر العقول التي اخترعتها إلى تغيير سيرها ليوجّهوا الجهد والمال التي تصنع به أسلحة الدمار إلى ما فيه خير البشرية ورفاهية الإنسان.

١١ ـ **المدفع**، والمدفع المستعمل آنذاك على مستوى الحكومة وقد جاء في فترة متأخّرة بعد الحرب العالمية الأولى.

□ □ □

الفصل الخامس والعشرون:

متفرقات

□ الوسم:

ولما كانت ممتلكات الناس في ذلك الوقت معظمها من بهيمة الأنعام وهذه بطبيعة الحال تتشابه في كثير من الصفاة في بعض الأحيان وإن اختلفت في ملامح أخرى إلا أنها غالباً ما تكون متشابهة لاسيما وأن فحلها واحد كما سبق أن مر بنا في فصل من هذا الكتاب، ولكون هذه الأنعام تختلط في أغلب الأحيان بمرعى واحد فلا بد من إيجاد رمز يصنعه كل إنسان على ممتلكاته من هذه المواشي، لذلك نجد لكل قبيلة أو عمارة أو بطن أو فخذ أو فصيلة أو رهط وأحياناً لكل أسرة علامة تضعها على ماشيتها تسمى «وَسْمًا» وهي بمثابة السمة التجارية في الوقت الحاضر التي تتميز بها الشركات والمؤسسات وحتى السلطة الحاكمة لها وسم خاص تضعه على ما يخصها من المواشي، والوسم هو أما كية النار بالإشارة المعنية تكون على سطح فخذ البعير أو على خده أو رقبته أو خاصرته من اليمين أو الشمال أما بالنسبة للغنم فتكون على أذنها أما الحمير والبقر فتكون على رقبتها وفخذها وأحياناً يكون الوسم بشق الأذن من الأمام أو الخلف أو قطع طرف الأذن من اليمين أو الشمال أو سرد شريحة من الجلد وتبقى عالقة بمكانها والوسوم هي على سبيل المثال لا الحصر كما يلي:

، ⊃⊂ ،

⅛ ، ⅜ ، ⅝ ، ⅞ ، ⅓ ، ⅔ ، ⅕ ، ⅖ ، ⅗ ، ⅘ ، ⅙ ، ⅚ ،

§ ، ¶ ، † ، ‡ ، ‖ ، ⁋ ، ⁊ ، ⁂ ، ※ ، ⁇ ، ⁈ ، ⁉ ،

⊞ ، ⊟ ، ⊠ ، ⊡ ، ⊢ ، ⊣ ، ⊤ ، ⊥ ، ⊦ ، ⊧ ، ⊨ ، ⊩ ،

‰ ، ‱ ، ′ ، ″ ، ‴ ، ⁗ ، ⁎ ، ⁑ ، ⁕ ، ⁘ ، ⁙ ، ⁛ ،

ولكل وسم من هذه الوسوم اسم خاص وبمجرد ما يملك الشخص الدابة فإنه يضع عليها وسمه حتى إذا ضاعت هذه الدابة بدأ بالبحث عنها فإنه يسأل عنها بموجب سماتها ومواصفاتها الطبيعية بالاضافة إلى الوسم، والوسوم التي عليها حتى يهتدي إليها فمن قد رآها أو مرت به ويعتبر الوسم العلامة الفارقة في الوقت الحاضر ووسم الحكومة هو ٥١٥ على ما يخصها من مواشي ولكل أمير مقاطعة وسم ينبثق من هذا الوسم كأن يكون ( ) في الشمال مثلاً وهكذا نرى أهمية هذه العلامة، وهي باقية حتى الوقت الحاضر.

□ عادة التدخين:

لم تكن عادة التدخين منتشرة في ذلك الوقت كما هي عليه الآن وإنما كانت مقتصرة على أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة في كل بلد وكانت عادة التدخين مذمومة، وتعد ذنباً يصعب التغاضي عنه، وربما ذهب البعض إلى اعتبار الشخص المدخن ناقصاً وبه مثلباً لا يحق له أن يؤم الناس في الصلاة إذا وجد غيره ويسمى الدخان «التتن» وشاربه «تتانا»، وفي مقابل ذلك يعتبر كيفا للرجال المرموقين، والفرسان البارزين، وعِلْيَةِ القوم، وهؤلاء يشربونه كنوع من التسلية إلى جانب القهوة العربية مع شعورهم أنه يساعد في معالجة مشاكلهم، ويكوي مواضع آلامهم، ويساعد على استجماع أفكارهم، واختيار أنسب الحلول لمشاكلهم، هذا ما تخيل به إليهم نفوسهم وإن كان خلاف ذلك ولنستمع إلى أحدهم يعرب عن هذه الناحية بقوله:

٣٨٨ ـ والله يا لولا العظم يوم اني أملاه
اكويه بالجمرة ويكوى جروحي[1]

٣٨٩ ـ مع دلة صفرا على النار مركاه
أقصر بصتبها على قد روحي

---

(١) من نوادر الأشعار، ص ١٢٨.

٣٩٠ ــ فنجالها يشدا خضاب الخوانده
الجادل اللي عند أهلها طموحي

(ذعار مشاري، بن ربيعان)

ولم يكن التبغ بلفائف وعلب كما هي عليه الآن، إنما كان التبغ من الورق الجاف الطبيعي الأخضر والأشقر، ويسمى «التنباك» ويكون إما بصرة أو بكيس من القماش أو جراب من الجلد، أو بعلبة مناسبة ويشرب «بالغليون» وهو «السَّبِيْل» وهو آنذاك من عظم ساق الغنم وغيرها، يقطع بطول مناسب ويعبأ بالتبغ ثم يكوى من طرفه بجمرة من النار كما أشار إليه الشاعر آنفاً ويمصه شاربه فإذا ضاقت على أحدهم الدنيا وكثرت همومه ومشاكله لجأ إلى غليونه وصرة التبغ وبدأ يعبىء ويكوي، ويمص وينفث آلامه ومشاكله مع سحابة الدخان المحيطة به، وربما دمعت عيناه ورف شاربه وانجلت التقطيبة عن حاجبيه وجلى «عماسه» ويسمى عملية التدخين «بالتعميرة» أو «جلية العماس» كما أشار إليه أحدهم بقوله:

٣٩١ ــ ليادك بالخاطر ثمانين هوجاس
الشاوري بالكيس والنار حية

٣٩٢ ــ مزيت ما يبس معاليقي ايباس
يكوي جروح القلب لوبه شكية

(عبد الله الرشيد)

ويتواكب شرب القهوة العربية مع شرب التبغ ويقترنان في أغلب الأحيان لدى هذه الفئة حيث يبدأ بارتشاف فنجان القهوة ثم يمص بعده مصة من «غليونه» كما ذكر أحدهم بقوله:

٣٩٣ ــ شربت من بكره ثلاثة فناجيل
وكيس الشقيري فاتحين مصره

٣٩٤ ـ مـزيت ما يكـوى العروق المغـاليل
لــو أن شـربــه مـا ذكــر بـه مسرة

(خضيري الصعليك)

ولا يفوتني بهذه المناسبة إلا الاشارة لموقف وحديث جرى بين سطام بن هذال العنزي وزوجته الشاعرة عند أحد أركان بيت الشعر وهي تردد:

٣٩٥ ـ يا شارب التنباك شاربك لا طال
إيــاك وايــا واحــد جــاز دونــه

ولم تدر أنه بقربها ويسمعها وعندما التفتت وإذا هو بجانبها يسمع ما تقول، عند ذلك نهرها بقوله: ماذا تقولين؟ فاستدركت الموقف الحرج الذي وقعت فيه بسرعة بديهتهـا وبادرته قائلة:

٣٩٦ ـ شـرابـة التنبـاك معهم سعـة بـال
ليـا طـال شـارب واحـد يقصــرونـه

٣٩٧ ـ يستـاهـل التنبـاك مثـل ابن هـذال
الــلي يحـطه في مــثــاني ردونــه

وقد أعجب بسرعة تصرفها الذي يدل على ذكائها عند ذلك قال لها لقد نجوت.

وقال آخر:

٣٩٨ ـ والله يــا لـولا مــزة العـظم مــرة
وفـنجــال بـن عـشــر عـفــر بهــاره[1]

(١) نوادر الأشعار، ص ١٦٩.

٣٩٩ ـ ليا خذت من خطو الغلايين جره
اتبعتهـا الـفنـجـال يـطفي حـرارة

(محمد العوني)

أما الآن فقد انتشر بشكل غريب وأصبح ظاهرة ضارة من جميع النواحي رغم التحذيرات التي تصدر من الحكومة والمبنية على رأي الهيئات العلمية بالاقلاع عن هذه العادة الضارة.

□ الحمى:

معروفة هذه المنطقة بالأحماء منذ القدم، وذلك لخصوبة أرضها وطيب مراعيها على قلة مطرها، وأول من عين حمًى فيها هو كليب وائل في بداية القرن السادس الميلادي ثم بعد ذلك حمى الربذة وحمى ضرية واستمر هذا الوضع بين الحين والآخر إلى أن انتهى آخر هذه الأحمية في نهاية الستينات من القرن الهجري المنصرم، وصفة الحمى أن تخصص قطعة من الأرض الخصبة في ترتبتها المشهورة بالنباتات الجيدة والأعشاب الممتازة للرعي، فتحميها السلطة للخيل والابل والأغنام الخاصة بها، وذلك لتبقى هذه البقعة كمستودع طبيعي لمراعي هذه الأنعام ولا يرعى منها أحد من أصحاب المواشي المحيطة بها، وتوكل مسؤولية حمايتها إلى عدد من خدم السلطة يسمون «خدام» الحمى ويمنحون كامل الصلاحيات لحماية هذه البقعة من أي طارق يقترب بمواشيه منها سواء أكانت خيلاً أو إبلاً أو غنمًا، ولا يمر بها ويرخص للمسافر الذي يأتي طريقه من خلالها الرعي لدابته أثناء سيره عبرها ولا يأخذ من الحشائش والأعشاب لدابته شيئاً، وتتم مراقبة هؤلاء الخدم لهذا الحمى على ظهور إبلهم التي تدلج بهم بصفة مستمرة عدا فترات الراحة، وتقوى ملاحظتهم على المناطق المتاخمة للقرى المجاورة للحمى أو الأماكن التي يوجد بقربها مياه، وتكثر حولها مضارب البادية فهذه النقاط لا يكادون يفارقونها بصفة مستمرة، والخادم في هذه الحالة مسلح بسلاح فردي يتدرج من عصا الخيزران إلى الخنجر والمسدس والبندقية، وعادة